العلاقات العثمانية - المملوكية

٨٦٨-٩٢٣هـ / ١٤٦٤-١٥١٧م

تأليف
غيثاء أحمد نافع

مراجعة
أ. د. عمر عبد السلام تدمري



العلاقات العثمانية - المملوكية

٨٦٨-٩٢٣هـ/١٤٦٤-١٥١٧م

تأليف

غيثاء أحمد نافع

مراجعة

الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري



الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - 2005م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ ١١ - تلفاكس ٦٥٥٠١٥ ٠٠٩٦١١
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٧٢٠٣١٧ ٠٠٩٦١٧
E-mail: alassrya@terra.net.lb - alassrya@cyberia.net.lb

ISBN 9953-34-388-8



الإهــداء

إلى زوجي وابنتيّ اللتين نرى في عينيهما

إشراقة أمل واستشراف مستقبل عابق

بالإيمان والحب والحنان. . .



مقدمة

ممّا لا شكّ فيه، أنّ ظاهرة العداء بين الدولتين العثمانية والمملوكية تعتبر من الظواهر الجديرة بالدراسة، لأنّها لم تأت مصادفة أو دون مبررات فحسب، بل نتج عنها تغيير جذري في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، حيث نجح العثمانيون في ضمّ ممتلكات السلطنة المملوكية وحلوا محلّ المماليك في حكمهم لفترة تزيد على ما يقارب الأربعة قرون.

صحيح أن كِلْتا الفترتين المملوكية والعثمانية قد حظيت بشيء من الدراسة الجادة في بعض فتراتهما ـ خاصة في الفترة الأخيرة ـ إلّا أنّ العوامل التي لعبت دوراً هاماً في تطور علاقات المماليك والعثمانيين من علاقة جوار وصداقة وتحالف ضد الفرنج إلى علاقة عداء وأطماع توسعية، لم تحظ بدراسة مفصّلة، وإنّما يجد الباحث حقائقها مبعثرة مشتّتة في خضم الحديث عن تاريخ الشام ومصر، إما في فترة المماليك أو فترة العثمانيين.

ولما كانت العلاقات العثمانية ـ المملوكية عميقة الجذور ومثار بحث ونقاش في التاريخ العربي الإسلامي، ونادرة هي الدراسات التي أخضعت الموضوع لبحث علمي على ضوء قراءة موضوعية ومتجردة، فقد ارتأيت دراسة تلك العلاقات وتحليلها حتى تتضح بدقة إشكاليات هذا العداء وتتبين حقيقة نتائجه، وحتى يكون ذلك بمثابة المدخل لكل من يريد أن يدرس تاريخ البلاد العربية في الفترة العثمانية الأولى، وربما في الفترة المتأخرة...

لقد بدا لي واضحاً من خلال قراءاتي وتتبعي للسياسة المملوكية والعثمانية، أنّ الفترة التي اتخذناها منطلقاً لدراستنا، قد مهدت للصدام وهيأت له على نطاق واسع بين القوتين.

فعلى الرغم من أن العلاقات بين الدولتين بدأت في أول عهدها بداية طيبة، حيث لم يحدث بينهما عداء أو صدام، وذلك لعدم تضارب مصالحهما ولبعد حدودهما عن بعضهما البعض، وخاصة أن الدولة العثمانية الناشئة قد وجّهت همّها في الفترة الأولى من حياتها للتوسع غرباً، إلّا أنّ استراتيجية الدولة العثمانية فيما

بعد، وضمّ الإمارات التركمانية في الأناضول لم تجعل العلاقات بين الدولتين في صفاء ووئام. فما كادت دائرتهما تتماسان في منطقة طوروس حتى نشب الصراع على الإمارات التي تعتبر نقاطاً استراتيجية هامة.

كان ضعف هذه الإمارات سبباً في عدم استقرار الحكم فيها ومشجعاً لكلتا الدولتين الكبيرتين على التدخل في شؤونها باستمرار. فالمماليك يعتبرونها حصونهم الشمالية، وينظر إليها العثمانيون على أنّها جسماً غريباً داخلاً في صميم أناضولهم ومثار قلق دائم وتهديد مستمر. وممّا صعّد من هذا العداء أنّ هذه الحدود، وبسبب ضعف القدرة العسكرية المملوكية في تلك الآونة، لم تكن مضبوطة أمنياً من جانب المماليك بحيث تمنع حصول اشتباك بين الدولتين.

لذلك فإن مشاكل الحدود هذه بالإضافة إلى عوامل أخرى كان أبرزها تدخلات المماليك في الصراعات الداخلية للعثمانيين وما نتج عنها من تداعيات. . . لا بدّ من أن تؤدي إلى تردّي العلاقات بين الدولتين. فتراكم الأحداث والوقائع والمسبّبات أدّى إلى حروب متعددة وفترات سلام فرضتها مصالح الطرفين، إلى أن حسم العثمانيون المعركة لصالحهم وتمكنوا من ضم ممتلكات الدولة المملوكية إلى سلطانهم عام (٩٢٣ هـ / ١٥١٧م).

ولكي يتضح ما أشرت إليه في هذه السطور، قسّمت دراستي هذه إلى ثلاثة أبواب، تضمن كل باب أربعة فصول، وذلك على الشكل التالي:

الباب الأول: الصراع بين الدولتين على جنوب شرقي الأناضول، وقد حددت من خلاله، إضافة إلى سياسة المماليك على حدود الأناضول وامتداد العثمانيين على رقعة اعتبرت حدّاً فاصلاً بين الدولتين، وجود اتجاهين في العلاقات العثمانية ـ المملوكية: اتجاه التحالف والتعاون بين الدولتين كان مبعثه الأخطار الخارجية التي تعرضتا لها (تيمورلنك ثم حلفاؤه)، واتجاه للنزاع حول مسألة عدم وضوح الحدود في منطقة طوروس وتضارب المصالح بينهما، وخاصة بعد أن ضم العثمانيون الإمارة القرمانية إلى ممتلكاتهم.

والجديد في هذا الباب أنه جاء توسّعه في تبيان الأسباب القريبة والبعيدة التي أدت إلى تردّي العلاقات العثمانية ـ المملوكية في الفترة التي تهمنا من دراستنا، والتي مهدت للحرب الأولى بين الدولتين.

أما الباب الثاني: وهو الحرب العثمانية ـ المملوكية الأولى، فقد اشتمل على صورة العلاقات الطارئة إبّان الحرب والسلام، ورسم مسارات الحرب ونهاياتها من وجهتيها العسكرية والديبلوماسية.

وأهم ما توصلت إليه في هذا الباب أنّ اعتداء إحدى الدولتين على جانب من مناطق الدولة الأخرى كان تبعاً لظروف القوة والضعف. حيث إنّ ازدياد قوة إحداهما على الأخرى قد ارتبط بشكل مباشر بهيمنتها على الإمارات الحدودية الفاصلة بين الدولتين، وتوازن القوى من الناحية الاستراتيجية (قرمان تحت النفوذ العثماني ودلغادر ورمضان تحت النفوذ المملوكي)كان يعني حالات الاستقرار والسلام بين الجانبين.

أما الباب الثالث: وهو الحرب العثمانية ـ المملوكية الثانية، فقد رصدت من خلاله التطورات الجديدة التي برزت عند منعطف القرنين التاسع والعاشر الهجريين وأثرها السلبي على العلاقات العثمانية ـ المملوكية، وسلّطت الضوء على الاستراتيجية العسكرية العثمانية مع وصول السلطان سليم إلى العرش، وعلّلت الأسباب الكامنة وراء تدهور العلاقات العثمانية ـ المملوكية، وتطرّقت إلى المعارك الفاصلة بينهما.

ولعلّ أهم ما توصلت إليه في هذا الباب أنّ اهتمامات السلطان سليم واستراتيجيته العسكرية، خلال فترة حكمه، في معالجة التحديات والأخطار التي جابهتها دولته من الشرق، كانت سبباً في السيطرة العثمانية الكاملة على الإمارات الحدودية والامتداد من خلالها لضم ممتلكات الدولة المملوكية إلى سلطتهم.

والجدير بالذكر أنّه من خلال متابعة المسار التاريخي لتحولات النظام المملوكي، اتّضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك، أنّ البنية التقليدية لهذا النظام قد دفعت به نحو حافة الانهيار، وبالتالي فإن المجتمع الذي كان يتأهب للعب دور جديد ويستبطن مفاهيم إصلاحية جديدة، كان على وشك الخروج من حالته والتوثب للدخول في مرحلة جديدة، يستجيب معها لتلك التطورات والتحولات.

إنّ القدرة على فهم ذلك كله لا تتوفر البتة بمعزل عن السيطرة المعرفية التي من أهم أدواتها ووسائلها ما يمتلكه الباحث فيها من مصادر ومراجع متنوعة، وبلغات مختلفة.

ولأهمية المصادر، على وجه الدقة، يجدر بي أن أعرّف بأهمّها على سبيل المثال لا الحصر، وذلك لإتمام الفائدة قبل الولوج في متن هذه الدراسة.

التعريف بأهم المصادر العربية

١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك:

تأليف: تقي الدين أحمد بن علي(٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ).

هو كتاب من أبرز كتب التاريخ المصري الوسيط. أتمّ به المقريزي سلسلة التواريخ المصرية بجمع وتسجيل أوسع ما وجد من المعلومات حول عصري الدولتين الأيوبية والمملوكية من سنة٥٧٧ هـ/ ١١٨٢م حتى السنة التي سبقت وفاته سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢م. وقد عني بتحقيقه الدكتور محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، ونشر في مصر سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٧٣.

ونظراً لتعذر حصولي على هذه النسخة، اعتمدت على نسخة مطبوعة بتحقيق من محمد عبد القادر عطا نشره في بيروت عام ١٩٩٧م.

٢ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة:

تأليف: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٣ ـ ٨٧٤ هـ/ ١٤١١ ـ ١٤٧٠م).

وهو سرد لتاريخ مصر منذ الفتح العربي سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١م حتى سنة٨٧٢ هـ/ ١٤٦٨م قبيل وفاة المؤلف. وأهمية هذا المؤلف في أنّ ابن تغري بردي يبلغ الغاية في الإفاضة حين يصل العصر المملوكي، وهكذا حتى يصل عصره، وإذ ذاك يتخذ الكتاب شكل السجل اليومي في عهد الناصر فرج تقريباً إلى عهد الأشرف قايتباي.

نشرته المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٣ ـ وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام:

تأليف: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٨٣١ ـ ٩٠٢ هـ/ ١٤٢٨ ـ ١٤٩٧م).

يتناول هذا الكتاب الحوادث والوفيات لمدة تزيد على القرن ونصف القرن، فيبدأ بسنة ٧٤٥ هـ/ ١٣٤٥م وينتهي بأثناء حوادث سنة ٨٩٨ هـ/ ١٤٩٣م. ويتميز هذا الكتاب بأنه يتناول حوادث القرن العاشر الهجري بكامله تقريباً، باستثناء سنتين فقط، فهو يزيد على ما كتبه المقريزي في «السلوك» وما كتبه ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة» وما كتبه الظاهري في «نيل الأمل في ذيل الدول». لقد كشف هذا التاريخ حالة دولة المماليك في أواخر عهدها وقبيل استيلاء العثمانيين عليها.

وقد عني بتحقيقه الدكتور بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني والدكتور أحمد الخطيمي، ونشروه في بيروت سنة ١٩٩٥م.

٤ ـ نيل الأمل في ذيل الدول:

تأليف: زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري(٨٤٤ ـ ٩٢٠ هـ/ ١٤٤١ ـ ١٥١٤م).

يبدأ الكتاب بحوادث سنة ٧٤٤ هـ/ ١٣٤٤، وينتهي بحوادث سنة ٨٩٦ هـ/ ١٤٩١م. وتبرز أهمية هذا الكتاب، في كونه يؤرخ لحقبة طويلة من عصر دولة المماليك في مصر والشام والحجاز واليمن. والأهم أنه يؤرخ للحقبة المتأخرة من دولة المماليك، حيث تقل المصادر عنها بشكل ملحوظ، فالكتاب بسنواته الأخيرة يؤسس لمرحلة العلاقات المتوترة بين المماليك والعثمانيين، ويعرض لحيثياتها ومجرياتها وتطوراتها سلماً وحرباً.

وقد عني بتحقيقه الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري، ونشره في بيروت سنة ٢٠٠٢ م.

٥ ـ حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران:

تأليف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الشهير بابن الحمصي (٨٤١ ـ ٩٣٤ هـ/ ١٤٣٨ ـ ١٥٢٨م).

يبدأ هذا الكتاب حوادثه سنة ٨٥١ هـ/ ١٤٤٧م، وينتهي عند نهاية عام ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤م. وتأتي أهمية تاريخ ابن الحمصي في أنه يؤرخ للشام ومصر بقدر متوازن تقريباً، على عكس ابن إياس الذي بقي مقيماً في مصر ولم يسافر إلى دمشق أو إلى أي بلد من بلاد الشام، ولذا جاء كتابه على أهميته يكاد يكون خاصاً بتاريخ مصر، ولم يستحوذ من تاريخ بلاد الشام إلا على النذر اليسير. وكذلك الحال عند ابن طولون، فهو لم يسافر إلى مصر ليدوّن أخبارها ولهذا جاء كتابه خاصاً إلى حد بعيد بتاريخ دمشق أولاً وبلاد الشام ثانياً. فضلاً عن أنّ تاريخ ابن الحمصي يزيد على تاريخ ابن إياس وتاريخ ابن طولون، إذ يؤرخ حتى نهاية عام ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤م.

وقد عني بتحقيقه الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري ونشره ببيروت عام ١٩٩٩ م.

٦ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور:

تأليف: محمد بن أحمد بن إياس (٨٥٢ ـ ٩٣٠ هـ/ ١٤٤٨ ـ ١٥٢٤م)

وهو كتاب شامل في تاريخ مصر من بدء التاريخ إلى سنة ٩٢٨ هـ/ ١٥٢٢م، وقد اعتمد ابن إياس في كتابه هذا على كتاب الظاهري بين مصادره، بل إنّه نقل

حرفياً كامل الكتاب من أوّله إلى آخره، ووضعه في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور». وتكمن أهمية هذا الكتاب في الفترة التي سجلها المؤلف وهو شاهد عيان لها، وعلى الخصوص تلك الفترة التي تمثلت بسقوط دولة المماليك وبداية حكم العثمانيين لمصر. والجدير بالذكر أنه مثل بعمله هذا الجانب المصري كشاهد على هذه الفترة في الوقت الذي مثل فيه ابن طولون في كتابه «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان» الجانب الشامي ـ كما سبق وذكرنا ـ فأتى نتاجهما متكاملاً، غطى فترة تعتبر من أحرج الفترات في تاريخ مصر وبلاد الشام إلى ما بعد سقوط دولة المماليك بعدة سنين.

وقد عني بتحقيقه الأستاذ محمد مصطفى، ونشره بالقاهرة سنة ١٩٨٤م.

٧ ـ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان:

تأليف شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن طولون (٨٨٠ ـ ٩٥٣ هـ/ ١٤٧٥ ـ ١٥٤٦م).

هو آخر من أرّخ لدمشق المملوكية في القرن العاشر الهجري والكتاب يتناول تاريخ مصر والشام بين سنتي(٨٤٤ ـ ٩٢٦ هـ/ ١٤٤١ ـ ١٥٢٠م) وقد أتى ـ على ما ذكر قبل قليل ـ على صيغة عمل متواز مع كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس. وقد سجل فيه مؤلفه، مجمل الأحداث التي سبقت سقوط دولة المماليك.

وقد عني بتحقيقه الأستاذ محمد مصطفى ونشره بالقاهرة سنة ١٩٦١م.

٨ ـ التاريخ الغياثي:

تأليف: عبد الله بن فتح الله البغدادي الملقب بالغياث.

إن التاريخ الغياثي يعد ذا قيمة تاريخية كبيرة لأنه شمل حقبة زمنية غامضة امتدت من سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م بيد هولاكو إلى سنة٨٩١ هـ/ ١٤٨٦م. لقد حوى عرضاً لأحوال الدول التي حكمت العراقين العربي والعجمي، إضافة إلى بلاد الشام ومصر والدولة العثمانية، لكن أكثر حوادثه تتعلق بالعراق. وأهمية كتاب الغياثي أنه أضاف معلومات جديدة عن العلاقة الحربية بين العثمانيين والمماليك في زمن بايزيد الثاني وقايتباي سنة ٨٩١ هـ/ ١٤٨٦م.

وقد عني بتحقيقه طارق نافع الحمداني ونشره ببغداد عام ١٩٧٥ م.

هناك فئة من المؤرخين تناولت فترة محددة اقتصرت على حوادث سنوات قليلة لو بعض السنة، مثل ابن الجيعان وابن زنبل.

٩ ـ القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف:

تأليف: القاضي بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد

الغني المعروف بابن الجيعان (٨٤٧ ـ ٩٠٢ هـ/ ١٤٤٤ ـ ١٤٩٧م).

وهو يتناول رحلة السلطان قايتباي في سنة٨٨٢ هـ إلى بلاد الشام، لمدة تزيد على الأربعة أشهر بقليل، وصل فيها إلى حلب وأطرافها، بعد أن بدأت حدود دولة المماليك في الأطراف الشمالية من بلاد الشام تشهد مقدّمات تحوّل سياسي وعسكري خطير في العلاقات مع العثمانيين في الأناضول بعد انتصارهم على الروم البيزنطيين، وفتح القسطنطينية ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م على يد السلطان محمد الثاني.

وقد عني بتحقيقه الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري ونشره بطرابلس عام ١٩٨٤م.

١٠ ـ واقعة السلطان الغوري وسليم العثماني:

تأليف: الشيخ أحمد الرمّال بن زنبل.

هو كتاب يتناول نهاية دولة المماليك بعد موقعة مرج دابق بالقرب من حلب التي جرت بين سلطان مصر «قانصوه الغوري» والسلطان العثماني «سليم الاول» سنة ٩٢١ هـ/ ١٥١٥م. ويؤرخ لأحداث سبع سنوات فقط، تبدأ بخروج قانصوه الغوري من مصر ٩٢١ هـ/ ١٥١٥، وتنتهي بآخر سنة ٩٢٨ هـ/ ١٥٢٢م وهي السنة التي ينتهي بها كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس. وتأتي أهمية هذا الكتاب في كونه يتابع حركة السلطان سليم بعد موقعة مرج دابق، فيتناول دخوله إلى مصر، وإخضاعها لحكمه، وقتل «طومان باي» آخر السلاطين المماليك.

وقد عني بتحقيقه عبد المنعم عامر، وصدر مؤخراً عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أدب الحرب ١٩٩٧ م.

التعريف بأهم المصادر التركية

١١ ـ تاج التواريخ:

تأليف: محمد خوجة سعد الدين (٩٤٣ ـ ١٠٠٦ هـ/ ١٥٣٦ ـ ١٥٩٨م).

كتاب يعتبر من أعظم السجلات للتاريخ العثماني حتى القرن السادس عشر. وتكمن أهميته في كونه تناول في جزئه الثاني أسباب الصراع بين العثمانيين والمماليك، بالإضافة إلى أنه تطرق إلى العلاقة العسكرية بين الدولتين في فترة الحرب الأولى (٨٨٩ ـ ٨٩٦ هـ/ ١٤٨٤ ـ ١٤٩١م)، حيث تقل المصادر عنها بشكل ملحوظ.

وطبع في إسطنبول (١٨٦٣ ـ ١٨٧٢م).

تنويه وشكر

إنّ هذه الدراسة المتواضعة، قد استغرق إعدادها حوالى خمس سنوات، تناولت فيها فترة زمنية صعبة، فترة تحتضر فيها دولة وتنتصر دولة أخرى، وحيث لا مجال لعمل المؤرخين ولا مناخ للإنتاج الفكري، إلّا أنّني واصلت عملي جادّة وجاهدة. وهنا أذكر ببعض المصاعب التي واجهتني في كتابة هذا البحث وسأقتصرها على الآتي:

١ ـ صعوبة وتعذر الحصول على الوثائق العربية والتركية من أرشيف طوبقبو سراي Topkapi في اسطنبول، الأمر الذي اضطرني إلى الاعتماد على بعض الكتب الوثائقية.

٢ ـ عدم معرفتي للغة التركية والإنكليزية، قد استلزم مني جهداً كبيراً في عملية الترجمة.

٣ ـ لدى رجوعي إلى المصادر والمراجع المتعلقة بالبحث، وجدت أنّ هناك تنوعاً هائلاً في الأفكار والآراء والتفسيرات المتعلقة بالموضوع، وقد استدعى مني هذا الأمر قراءة متأنية وصبراً فائقاً لأخذ المعلومات اللازمة بدقة.

٤ ـ كان لخصوصية البحث في العلاقة بين الدولتين أن اضطررت إلى تتبع الأحداث المختلفة، وتلك لعمري مهمة شاقة تحتاج إلى تعب وجلد.

ولكن على الرغم من ذلك، لا أخفي مطلقاً مقدار السعادة التي نلتها بجمع المعلومات وترتيبها وصياغتها ثم طباعتها على شكل بحث متكامل قدر الإمكان والمعطيات.

ولمّا كنت قد سلّطت الضوء على العلاقات العثمانية ـ المملوكية فإنّني لا أدّعي استيفاء الموضوع من كل جوانبه، وقد بذلت ما استطعت على أمل أن يتصدى الباحثون لهذا الموضوع فيحيطوا به بشكل أوفى وأشمل ويكشفوا صفحات أخرى في مفاهيم هذا التاريخ وإشكالياته، من أجل توظيف دروس وعبر الماضي في فهم الحاضر، وبناء مستقبل أفضل. . .

وقبل أن أنهي، أرى من الواجب أن أتوجه بالشكر والتقدير لأستاذي الفاضل

الدكتور عمر تدمري، الذي تفضل بالإشراف على رسالتي للماجستير، فأحاطني بتوجيهاته العلمية السديدة، وملاحظاته القيّمة. كما أتوجه بوافر شكري وتقديري إلى أستاذي الدكتور حسن يحيى وأستاذتي الدكتورة جوليات الراسي، اللذين تفضلا واشتركا في مناقشة رسالتي، وأدليا بآراء صائبة كانت السبيل إلى إخراج هذا البحث بأفضل صورة.

وأنتهز هذه المناسبة للتعبير عن شكري وامتناني لأستاذي الدكتور عبد اللطيف الحارس، الذي أشار عليّ باختيار هذا الموضوع، وشجّعني على دراسته، وفتح لي سبيل المعرفة بإرشاداته القيمة.

وفي هذا المقام أتوجه بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور إدمون فرح، أستاذ اللغة العربية، لقراءته رسالتي، وتكرّمه بإعطائي الملاحظات والتوجيهات المهمة.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى جميع أساتذتي في الجامعة اللبنانية، وكذلك إلى السادة القيّمين والعاملين في مكتبتها.

ولا بدّ من توجيه عظيم شكري وامتناني لزوجي الدكتور محمّد شهال وابنتيّ رولا وليلى، الذين كانوا عوناً لي طوال إعداد هذه الدراسة.

وأخيراً أتقدم بشكري إلى جميع الذين قدموا لي مساعدتهم أكانت قولاً، أو إرشاداً، أو كتباً.

والله أسأل، أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يجزيني على قدر إخلاصي، وحبي للحقيقة، وتحمسي لإظهارها خالية من كل زيف، مبرأة من كل غرض.

الباب الأول

الصراع على جنوب شرقي الأناضول

- الفصل الأول: سياسة المماليك على حدود الأناضول
- الفصل الثاني: التوافق والصراع في الفترة الأولى من العلاقات العثمانية ـ المملوكية
- الفصل الثالث: الصراع على إمارتي القرمان ودلغادر (٨٦٨ ـ ٨٨٦ هـ) (١٤٦٤ ـ ١٤٨١ م)
- الفصل الرابع: مقدمات الحرب الأولى (٨٨٦ ـ ٨٩٠ هـ) (١٤٨١ ـ ١٤٨٥ م)

سياسة المماليك
على حدود الأناضول



الحدود المملوكية: معلومات جغرافية

أسس المماليك[1] دولة مترامية الأطراف امتدت على أراضي بلاد الشام، مصر والحجاز. وقد لعب المماليك أدوارهم التاريخية المتنوعة في أطراف عديدة من هذه البقاع، وخصوصاً عندما امتدت يد سلاطينهم وسلطاتهم حتى كيليكيا في الجهة الغربية المتوسطية التي تعتبر الحد الفاصل لجبال طوروس والأراضي المملوكية.

ويحدّ كيليكيا نطاق جبلي يعرف بجبال طوروس، يمتدّ من الغرب إلى الشرق في عدة سلاسل متقطعة. ويمتد طوروس الأوسط عند أدنة، ويعرف باسم طوروس كيليكيا، وإلى الشرق من خليج الإسكندرون تتفرع طوروس إلى سلسلتين متوازيتين من جبال الأمانوس وهناك أنتي طوروس وطوروس الأرميني، وطوروس الكردي[2].

وتشكل الجبال الطوروسية الحدود الطبيعية بين الأراضي المملوكية ووسط الأناضول المعروف عند الجغرافيين العرب القدامى ببلاد الروم[3].

---

(١) إن الحكم الفعلي لسلاطين المماليك الذين تعاقبوا من العام ١٢٥٠م إلى العام ١٥١٧م، يتألف من مرحلتين متتاليتين شبه متعادلتين زمنياً تنطبقان على سلالتين مختلفتي الاصل. إن سلاطين أمراء السلالة الأولى هم أتراك من منطقة كبتشاك شمال البحر الأسود والقفقاس وبحر الخزر ويسمون بالمماليك الأتراك أو المماليك البحريين(١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م) نسبة إلى كلمة بحر أو نهر النيل حيث كانت ثكناتهم تمتد على ضفافه. وأما سلاطين السلالة الثانية، الذين سيخلعون السلاطين البحريين ويحلون محلهم، فهؤلاء يدعون بالمماليك الجراكسة أو البرجيين (١٣٨٢ ـ ١٥١٧م) نسبة لفيلق المماليك الجراكسة الذين كانوا مكلفين بالدفاع عن الأبراج أو القلاع.

(٢) الجميل، سيار: العثمانيون وتكوين العرب الحديث، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١ ١٩٨٩، ص ٣٠٠.

(٣) المرجع نفسه: هامش ص ٣٢٤.

تضم المنطقة الحدودية الكيليكية المعروفة ببلاد الأرمن[١]، العواصم التي هي عبارة عن مقاطعة عسكرية تشمل سفوح بلاد الشام العليا وأراضي ما بين النهرين الفوقية، وعاصمتها أنطاكية[٢]، وفي حافة هذه المقاطعة يمتد الحزام المحصن الذي عرف بثغور الشام ويبدأ من طرسوس كمركز متقدم له على البحر المتوسط ويمتد على طول جبال طوروس إلى مركز متقدم آخر هو ملطية[٣]، ثم إلى الفرات[٤]، الذي يشكل الحدود الشرقية للأراضي المملوكية.

إنّ هذا الحزام الجغرافي ـ الذي قطنته جماعات من التركمان[٥] وربطتهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حيناً والثورة والعدوان أحياناً ـ قد عانى الكثير من الاضطرابات والصراعات وشهد قيام أول حرب مملوكية ـ عثمانية وذلك نتيجة الظروف الخاصة والعامة التي أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى وشعوبها.

فكيليكيا؛ التي أطلق عليها العرب اسم بلاد الدروب، أي بلاد ممرات طوروس[٦]؛ كانت تضم عدداً من المدن والقلاع التي تتحكم بخطوط قوافل منتظمة تصل آسيا الصغرى ببلاد الشام[٧]، مما ساعد على توسيع التجارة الشامية ـ

---

(١) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت ج٤، ص ١٣٤.

(٢) هي قصبة العواصم من الثغور الشامية، من أعيان البلاد وأمهاتها موصوفة بالحسن وطيب الهواء، انظر القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص ١٥٠ ـ ١٥١ وياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩ م، ج١، ص ٢٦٦ ـ ٢٧٠. وحول تاريخ أنطاكية انظر سليمان بن بطرس جاويش تاريخ القسطنطينية، دار صادر، ط٢، ١٩٩٥، ص ٥٣.

(٣) مدينة مشهورة بأرض الروم، وهي قاعدة الثغور ويحف بها جبال كثيرة، وهي بلدة مسورة انظر ياقوت الحموي: ج ٥، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٤) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٠١ ود. عمر تدمري: تاريخ طرابلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١، ١٩٨١، ج٢، ص ١٠٧.

(٥) عاشت على الأطراف الشمالية لدولة المماليك جماعات من شعوب متنوعة مثل الأرمن والأكراد والتركمان. وقد عرف عن التركمان أنهم عملوا جنداً مرتزقة في جيوش المماليك وكذلك أقاموا لأنفسهم دولاً أو دويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين، اشتهرت منها دولة دلغادر ودولة رمضان ودولة قرمان ودولة ألاق قوينلو ودولة القراقوينلو.

(٦) القلقشندي : المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٧) لسترينج، كي : بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة فرنسيس وعواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م، ص ١٦١ وما بعدها.

الأناضولية البرية في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، فجاء الأتراك إلى دمشق لشراء التوابل ورحل أهل الشام من حلب ودمشق إلى بورصة[١]، ليبيعوا الأصبغة والأقمشة الحريرية إضافة إلى الزخم القوي لتجارة العبيد القديمة الآتية من القوقاز[٢].

إن إشراف كيليكيا على عدد من الممرات الجبلية ولا سيما ممرات بلاد الشام قد رفع من مكانتها الاستراتيجية ومكانة بعض المدن. فملطية مثلاً إضافة إلى كونها قد احتلت مركزاً مهماً في التجارة العالمية بسبب موقعها على الطريق التجارية الآتية من بورصة ـ سيواس[٣]، إلى تبريز[٤] في إيران، اكتسبت أهمية كبيرة لإشرافها على أحد الممرات الجبلية القليلة. وكذلك استفادت منطقة البستان ومرعش[٥] من موقعها على طريق درب الحدث الآتية من قيصرية[٦] والمؤدية إلى عينتاب[٧] ثم إلى حلب في شمال الشام[٨]، واكتسبت طرسوس مكانة مرموقة لإشرافها على مخرج درب طرسوس الذي يبدأ من أركلي[٩].

وكان لوفرة المرافئ وخصوصاً آياس في المنطقة الغربية لخليج الإسكندرون وأدنه في المنطقة المتصلة مع البحر المتوسط بواسطة نهري سيحان وجيحان، أن أصبحت كيليكيا مركزاً مهماً للتجارة البحرية العالمية في القرون الوسطى، حيث لعبت أدنة دوراً بارزاً في هذا المجال بعد طرسوس[١٠].

---

(١) مدينة كبيرة من بلاد الروم، يأتون اليها من أقاصي البلاد انظر ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار، تحقيق طلال حرب، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣٢١.

(٢) لابيدوس، إيرامارفين : مدن الشام في العصر المملوكي، ترجمة د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٥، ص ٨٥.

(٣) مدينة مشهورة ببلاد الروم بها قلعة صغيرة، وهي من أمهات البلاد حصينة، سكانها مسلمون ونصارى، والمسلمون تركمان، انظر ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٣١١.

(٤) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣.

(٥) من حصون الشام الشمالية، انظر ياقوت الحموي:المصدر نفسه، ج٥، ص ١٠٧.

(٦) مدينة عظيمة ببلاد الروم، انظر الحموي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٧) مدينة كبيرة فيها قلعة حصينة بين حلب وانطاكية وتعتبر من أعمال حلب، انظر الحموي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٧٦.

(٨) On the region of the Cilician, see j. A Cramer geographical and historical, description of Asia Minor, Oxford, 1995, v2, p239 - 365.

(٩) مدينة ببلاد الروم وكلها وقف على الفقراء المجاورين لمكة والمدينة، انظر أحمد بن يوسف القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق د. أحمد حطيط و د. فهمي سعد، عالم الكتب ط١، ١٩٩٢، ج٣، ص ٣٠٥.

(١٠) Shai, Har - El: Struggle for domination in the Middle East, CE j. Brill, l'Eiden, Newyork,1995, p36 - 38 - 39.

لهذا أصبحت هاتان المدينتان محوراً أساسياً للصراع العسكري بين المماليك والعثمانيين. وباختصار يمكن القول إنّه بفضل موقع كيليكيا الجغرافي ومميزاتها الطبيعية قد أصبحت الخلفية الأكثر أهمية استراتيجياً للأراضي المملوكية.



التوسع المملوكي في جنوب شرقي الأناضول

واجه المماليك في مستهل حياتهم السياسية خطرين كبيرين، كان لهما أثر واضح في تطور مسيرتهم السياسية، خطر ما تبقى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام وخطر المغول.

فبعد معركة عين جالوت في فلسطين ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م[١]، والتي تعتبر فاتحة العلاقات العدائية بين المماليك ومغول فارس، رأى حكام مصر أن يعملوا على كسر شوكة هؤلاء الطامعين، نظراً لما ارتكبوه بحق الإسلام والمسلمين في العراق وبلاد الشام من أعمال وحشية. وقد قدر بيبرس منذ تسلم الحكم أن مغول فارس لا بدّ من أن يأخذوا بثأرهم بعد انهزام جيشهم في معركة عين جالوت. وازداد الموقف خطورة عندما ارتبطت سياسة مغول فارس العدائية بسياسة الصليبيين في بلاد الشام والأرمن في كيليكيا[٢]. لذلك استهدفت استراتيجية المماليك السياسية والعسكرية والاقتصادية توسيع حدود الدولة المصرية لتشمل بلاد الشام وأرمينيا الصغرى والأناضول وذلك بهدف تحقيق الغايات التالية:

ـ أن تقوم هذه المناطق بحماية المماليك من الأخطار العسكرية الخارجية[٣].

ـ منع حصول اتصالات بين مغول فارس وحلفائهم الأرمنيين والصليبيين.

ـ استمرار التجارة الشمالية ذات القيمة الاستراتيجية الكبيرة وذلك لضمان تدفق عناصر المماليك الضرورية لبناء نظامهم العسكري[٤].

---

(١) حول معركة عين جالوت انظر ابن دقماق: النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق د. عمر تدمري، المكتبة العصرية، ط١، ١٩٩٩، ص ٥٠ وتقي الدين أحمد بن علي المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٩٩٧، ج١، ص ٥١٥ و السيوطي : تاريخ الخلفاء، دار الجيل، بيروت ١٩٩٧ م، ص ٥٤١ وابن سباط : ج ١، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ وفيه مصادر كثيرة عنها.

(٢) طقوش، د. محمد سهيل : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس ط١ ، ١٩٩٧، ص ١٣٦.

(٣) لابيدوس :المرجع السابق، ص ٤١.

(٤) المرجع نفسه : ص ٥٣.

ومن هذا المنطلق قام السلطان بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٥ هـ / ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م)، المؤسس الفعلي للسلطنة المملوكية، بانتزاع إمارة الكرك وهي آخر إمارة بأيدي الأيوبيين، بهدف توحيد بلاد الشام ومصر[١] ومواصلة أعمال صلاح الدين. فاستعاد معظم مدن الشريط الساحلي الشامي بالإضافة إلى بعض القلاع من أيدي الصليبيين[٢]، ومدّ نفوذه على الحجاز والأماكن المقدسة. ولإسباغ الصفة الشرعية على دولته، دعا الخليفة العباسي للإقامة في القاهرة مجرّداً من كل سلطة سياسية[٣].

كان دمج بلاد الشام في الدولة المصرية عملًا دالاًّ على القوة؛ فبلاد الشام لم تحكم قط من قبل بشكل ثابت وطويل مثل هذه المرة ونادراً ما تم حماية المنطقتين بشكل جيد من خطر القوى الخارجية. وقامت دمشق بدور العاصمة الثانية للدولة المملوكية، والموقع المتقدم لحماية مصر، وقاعدة لشن الحملات العسكرية المعاكسة على مغول فارس شمال الصليبيين، والأرمن في كيليكيا[٤].

كانت العلاقات المملوكية الأرمنية في الربع الأخير من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، تتراوح بين التأزم الشديد والاصطدام وبين الانفراج والهدوء، فالأرمن كانوا مستغلي فرص يهاجمون المناطق الحدودية عندما ينهمك المماليك في الحرب مع الصليبيين والمغول. لذلك ما أن نجح السلطان بيبرس عام ٦٧١ هـ / ١٢٧٣م من صد هجوم مغولي عند الفرات[٥]، حتى يمم وجهه شطر أرمينيا، فأرسل إليها قوة عسكرية هاجمتها «وغنموا منها ما لا يحصى[٦]» على حد

---

(١) Boulos, jawad: Les peuples et les civilisations du Proche Orient, Dar Awad, Beyrouth 1983, v 4, p 33 - 34.

(٢) طقوش: المرجع السابق، ص ١٤١ والسيروليم موير: تاريخ دولة المماليك بمصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة ط ١، ١٩٩٥، ص ٥٦.

(٣) الحنفي : قطب الدين، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق محمد طاهر الكردي، المكتبة العلمية بمكة المشرفة، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ والسيوطي: المصدر السابق، ص ٥٤٥.

(٤) لابيدوس: المرجع السابق، ص ٤٢ وعن علاقات المماليك مع الأرمن انظر تدمري: المرجع السابق، ص ١٠٧ وما بعدها.

(٥) ابن دقماق : المصدر السابق، ص ٦٣ والمقريزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨١ ـ ٨٢ وحمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن سباط الغربي: صدق الأخبار تاريخ ابن سباط، تحقيق د. عمر تدمري، جروس برس، طرابلس ط١، ١٩٩٣، ج ١، ص ٤٣٤ .Boulos: op. cit, p 151.

(٦) ابن عبد الظاهر، محي الدين : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ط ٢، ١٩٧٦، ص ٤٣٤ والمقريزي : المصدر نفسه، ص ٩٠ وابن سباط: المصدر نفسه، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩. Ibid, p 515.

تعبير المقريزي. وقبل وفاته ببضعة أشهر عاود السلطان بيبرس دخولها مجدداً فلاقى الجيوش المغولية ـ السلجوقية المتحدة قرب البستان فهزمها[١]، ثم عبر الجبال الطوروسية ووصل إلى قيصرية، إلّا أن أخبار تقدم الجيش المغولي قد حال دون بقائه ودفعه للانسحاب[٢]. إن سياسة بيبرس التي ارتكزت على صد خطر الصليبيين والمغول وتوجيه الحملات العسكرية إلى أرمينيا الصغرى المتعاونة معهما، كانت أساساً سار عليه من جاء بعده من السلاطين، فقلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠ م) والأشرف خليل (٦٨٩ ـ ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م) نجحا في تصفية ما تبقى من الإمارات الصليبية، حيث سقطت بأيديهم معاقل الصليبيين الواحد تلو الآخر وكان آخرها عكا عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م، المعقل الصليبي الأخير الواقع على البرّ الرئيسي[٣].

وفي الوقت نفسه قاومت الجيوش المملوكية الغزوات المغولية اللاحقة في بلاد الشام وأرمينيا، فهزم قلاوون المغول قرب حمص عام ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م[٤]، ووسع حدود بلاده الشمالية على حساب المملكة الأرمينية، التي اجتاحها عقاباً لها على تحالفها مع المغول[٥]، فضلاً عن حسدهم لهم على الثروة التي تجتاز بلادهم بالطرق التجارية التي تصل إلى البحر المتوسط عند مرفأ آياس[٦]، وفرض عليها

---

(١) ابن عبد الظاهر : المصدر نفسه، ص ٤٥٦ ـ ٤٦٢ ـ ٤٦٣. والجدير بالذكر أن القاضي ابن عبد الظاهر كان قد رافق الحملة لبلاد الروم ويصف الأحداث كشاهد عيان. والمقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٩ وابن دقماق : المصدر السابق، ص ٦٥٥ وابن سباط : المصدر نفسه، ص ٤٤١ وموير: المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢) ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص ٤٥٣ ـ ٤٧١ وابن دقماق: المصدر نفسه، ص ٦٦ والمقريزي : المصدر نفسه، ص ٩٩ ـ ١٠٠ وابن سباط : المصدر نفسه، ص ٤٤١ ـ ٤٤٢ وموير: المرجع نفسه، ص ٥٨.

(٣) فيما يتعلق بفتح عكا راجع النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ج ٣١، تحقيق السيد الباز العريني، ١٩٩٢ م، ص ١٩٥ ـ ١٩٩ والمقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ـ ٢٢٥ وابن سباط : المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦ ـ ٤٩٧ وموير :المرجع نفسه، ص ٦٨.

(٤) ابن كثير، الحافظ : البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت ط٢، ١٩٧٧ م، ج ١٣، ص ٢٩٥ وابن دقماق : المصدر السابق، ص ٧٨ والمقريزي :المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٥ وما بعدها وابن سباط: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ ـ ٤٧٧ والسيوطي: المصدر السابق، ص ٥٥٠ وموير: المرجع نفسه، ص ٦٣.

(٥) Boulos: op. cit, p 516.

(٦) رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت ط٢، ١٩٨١ م، ج ٣، ص ٧٥١ ـ ٧٥٢.

ضريبة سنوية بموجب توقيع هدنة معها لمدة عشر سنوات[1]. ونجح السلطان الأشرف خليل عام ٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م من انتزاع قلعة الروم الحصينة التي تتحكم بمدخل بلاد الشام من ناحية الفرات من أيدي الحامية المغولية الأرمنية وأعطيت اسم «قلعة المسلمين»[2]، وقد تسلّم في العام نفسه بهسنا ومرعش من أجل تعديل حدود بلاده الشمالية[3].

وأثناء انشغال المغول ـ حلفاء أرمينيا الصغرى ـ في الحرب في الشرق،[4] هاجمت القوات المملوكية أرمينيا الصغرى عام ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م؛ التي حاولت استعادة نفوذها؛ وفتحت أحد عشر حصناً في كيليكيا وعينت نائباً عليها.[5] إنّ الغزو المغولي ـ الأرمني لبلاد الشام عام ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠م وإلحاق الهزيمة بالجيش المملوكي لم يؤدِّ إلى نتيجة مثمرة، واضطر المتحالفون إلى الانسحاب، مما مكّن دولة المماليك من استعادة سيطرتها على شمالي بلاد الشام وأضحى الطريق إلى كيليكيا مفتوحاً مرة أخرى أمام جيوشها[6]. وبسبب توقف ملك أرمينيا عن دفع الجزية واسترداده لجميع الحصون التي انتزعها المماليك منه[7]، جهز السلطان الناصر محمد[8] حملة عسكرية كبرى حاصرت العاصمة الأرمنية سيس ونهبتها[9]. ويبدو أنّ

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق كامل مراد، القاهرة ط١، ١٩٦١، ص ٣٠ ـ ٣٢ وابن دقماق: المصدر نفسه، ص ٩١.

(٢) راجع فتوح قلعة الروم عند أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد المختصر في أخبار البشر، دار الفكر، بيروت ١٩٥٦م، ج ٧، ص ٣٣ ـ ٣٤ وابن سباط: المصدر السابق، ج١، ص ٤٩٩.

(٣) المقريزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ وابن سباط: المصدر نفسه، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ وموير: المرجع السابق، ص ٧٠ .Boulos: op. cit, p518.

(٤) موير: المرجع نفسه، ص ٧٤.

(٥) النويري يورد تفاصيل وافية عن الحملة على بلاد الأرمن: المصدر السابق، ج ٣١، ص ٣٣٧ ـ ٣٤٣ والمقريزي: المصدر نفسه، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ـ ٢٨٩ وابن سباط: المصدر نفسه، ص٥١٣ ـ ٥١٤.

(٦) ابن دقماق: المصدر السابق، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ والمقريزي: المصدر نفسه، ص ٣١٨ وما بعدها وابن سباط: المصدر نفسه، ص ٥١٩ ـ ٥٢٠ ـ ٥٢١ وموير: ص ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨. Boulos: op. cit. P - 519 - 520.

(٧) أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٧، ص ٥٤، المقريزي: المصدر نفسه، ص ٣٤٨ وابن سباط: المصدر نفسه، ص ٥٢١.

(٨) أحد السلاطين المماليك الأكثر شهرة حكم لثلاث مراحل.

(٩) أبو الفداء: المصدر السابق، ص ٥٦ ـ ٥٧ والمقريزي: المصدر السابق، ص ٣٤٨ وابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٧٦.

السلطان المملوكي لم يكتف بذلك وإنما أراد تأديب الملك الأرمني وإنزال العقوبة به لانضمامه إلى المغول في حملتهم التي وجّهوها مجدداً ضد بلاد الشام عام ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢م[١] فجهز حملة تأديبية أخرى عام ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٣ م ـ بعد انتصاره على المغول ـ نجحت في الدخول إلى العاصمة سيس للمرة الثانية، ونهبت بلادهم واستولت على تل حمدون[٢].

ولكن فيما يبدو وعلى أثر هزيمة المغول الأخيرة، وبسبب التحوّل الكبير للمغول نحو الإسلام ونتيجة للاضطرابات الداخلية التي واجهوها، خفّت حدة العداء التي استحكمت مع المماليك بشكل نسبي[٣].

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّه مع تراجع الخطر المغولي عن بلاد الشام، لم تعد دمشق مركزاً عسكرياً متقدماً للدفاع عنها، وأصبحت حلب قاعدة عسكرية هامة للقيام بهذه المهمة ولتنفيذ هجمات المماليك المعاكسة بشكل نظامي في أرمينيا[٤].

فالعلاقة بين الدولتين المملوكية والأرمنية في كيليكيا لم تستقر بفعل نيات الأرمن السيئة تجاه المماليك. ففي العام ٧١٤ هـ/ ١٣١٤ م هاجم هؤلاء المناطق الحدودية، مما دفع السلطان الناصر محمد إلى تجديد هجماته على بلادهم، فحاصر في العام التالي ملطية ودخلها، ثم توالت انتصارات المماليك بعد ذلك[٥]. في الواقع إنّ سقوط ملطية بيد المماليك كان يشكل حضوراً قوياً لنفوذهم في الجهة الشمالية الشرقية لمملكة أرمينيا[٦]، وعلى الرغم من توقيع معاهدة سلام عام ٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م بين الناصر محمد وأبو سعيد ـ آخر إيلخان مغولي ـ والتي حدّدت بموجبها الحدود الشرقية للدولة المملوكية عند الحد الأعلى لمجرى نهر الفرات والتي تمتد من ورائه منطقة المغول[٧]، إلّا أنّ الأرمن ظلوا شوكة في جنب دولة

---

(١) فيما يتعلق بحملة المغول على بلادالشام عام ٧٠٢ هـ انظر المقريزي : المصدرنفسه، ص٣٥٤ وما بعدها وابن سباط : المصدر نفسه، ص ٥٧٧ وما بعدها.

(٢) المقريزي : المصدر نفسه، ص ٣٦٩ وابن سباط : المصدر نفسه، ص ٥٨٤ وموير : المرجع السابق، ص ٨١. تل حمدون : تل عال بالقرب من جيحان إلى الجنوب منه بينه وبين سيس نحو مرحلتين.

(٣) المقريزي :المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٣ وابن سباط :المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦.

(٤) لابيدوس :المرجع السابق، ص ٤٧.

(٥) أبو الفداء :المصدر السابق، ج ٧، ص ٨٨ ـ ٩٠ ـ ٩٦ ـ ٩٧ وقد اشترك المؤرخ في غزوة عام ٧١٥ هـ وكان نائب حماة، وابن دقماق: المصدر السابق، ص ١٢٣ والمقريزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٩٨ وابن سباط :المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٢٤.

(٦) تدمري :المرجع السابق، ج٢، ص ١١٣.

(٧) المقريزي :المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩ ـ ٣٠ ورنسيمان : ج٣، ٦٦٢ ـ ٦٦٣ . Boulos: op. cit, p521.

المماليك البحرية، وبقيت دولتهم قائمة في كيليكيا بالرغم من الضربات المتتالية الموجعة التي أنزلتها بها الدولة المملوكية. وعجز السلطان الناصر محمد عن اقتلاع هذه الشوكة بالرغم من أنه ضم جزءاً كبيراً من بلاد الأرمن إلى أملاكه[١]، لذلك استمر الضغط المملوكي على الأرمن في عهد خلفائه وطوال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي من خلال الغارات السنوية المكثفة، إذ كانوا على حق في ارتيابهم منهم بأنهم أصدقاء الصليبيين وحلفاء المغول[٢].

ولم تقتصر هذه الغارات على ما قام به المماليك، وإنما توحدت جهودهم مع الإمارات التركمانية في آسيا الصغرى التي قامت على أنقاض سلطنة سلاجقة الروم، ولاسيما إمارة قرمان، التي سعت بدورها للقضاء على مملكة أرمينيا الصغرى ونجحوا بتقليص حدودها في مدينة سيس[٣].

وظلت أرمينيا الصغرى تسبب إزعاجاً للمماليك إلى أن اقتضت النظرة السياسية المملوكية الجديدة إلى ضم هذه المملكة والتوسع في الشمال على حساب الإمارات التي ظهرت على أثر تفكك امبراطورية الإيلخانيين[٤]. فبعد ست سنوات على الغزوة المملوكية التي قام بها نائب حلب على أرمينيا عام ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م[٥]، للاقتصاص منهم بسبب مساعدتهم للقبارصة في هجومهم على الإسكندرية عام ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٦م[٦]، قرر السلطان شعبان عام ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م غزوها وضمها نهائياً إلى الأملاك المملوكية[٧]. ونجح المماليك في ذلك، وبهذا انقرضت دولة الأرمن في كيليكيا، وشكّلت الإمارات التركمانية المتعاونة مع المماليك الموجودة في جنوب شرقي الأناضول حاجزاً هاماً للدفاع عن أراضي بلاد الشام.

---

(١) المقريزي: المصدر نفسه، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) كان لعدد كبير من نبلاء الأرمن علاقات وثيقة بقبرص. رنسيمان: ج ٣، ٧٥١ ـ ٧٥٢. لقد استمر المغول بمساعدتهم الأرمن على الرغم من معاهدة الصلح معهم. انظر القلقشندي: المصدر السابق، ج٨، ص ٣١.

(٣) القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٢ وما بعدها.

(٤) حول تفكك امبراطورية الإيلخانيين انظر الغيائي: ٦٢ وما بعدها.

(٥) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٧ والظاهري: المصدر السابق، ج١، ص ٤٢٦.

(٦) ابن دقماق: المصدر السابق، ١٩٨ والمقريزي: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٨٣ وما بعدها والظاهري: المصدر نفسه، ص ٣٧٣ وما بعدها والسخاوي: وجيز الكلام، ج١، ص ١٤٧
Hill, George: History of Cyprus, Cambridge, 1948, v2, p324 et ce qui suit.

(٧) ابن دقماق: المصدر نفسه، ص ٢١٤ والمقريزي: المصدرنفسه، ج ٤، ص ٣٧٧ والظاهري: المصدر نفسه، ج٢، ص ٨٩.



حدود دولة المماليك مع العثمانيين:
إمارتا دلغادر ورمضان

مع سقوط امبراطورية «الخانات» يعلن الحكام المغول استقلالهم متخذين ألقاب أمراء وسلاطين مدعومين بقوة سلاطين المماليك في مصر[1] وقد عجل هذا، بزوال مملكة أرمينيا الصغرى ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م؛ التي طالما هدّدت المسلمين في بلاد الشام وأطراف العراق وآسيا الصغرى، فضلاً عن تهديدها للتجارة بين الشرق والغرب والتي كانت دولة المماليك طريقها الرئيسي[2]؛ حيث تقوم مكانها أسرة أميرية تدعى أسرة «رمضان» متخذة من أدنة عاصمة لها، وكانت تابعة لسلطة المماليك بمصر، وتستقر كذلك في منطقة طوروس الشرقية سلالة تركمانية تابعة لمصر، وكانت تعرف بأسرة «دلغادر» متخذة لها من مدينة البستان عاصمة لها[3].

إن أمراء هاتين الإمارتين، لم يكونوا لدى سلاطين القاهرة سوى نواب وولاة لهم، إلّا أنهم كانوا يفرضون أنفسهم عليهم بسبب قبائلهم التركمانية، التي توطنت في تلك الجهات حين افتتحتها ملوك مصر والشام والتي لم تكن تخضع لغير أمرائها[4].

فإمارة دلغادر هي إمارة تركمانية من التركمان البوذقية الذين نزحوا نحو الأناضول من آسيا الوسطى فراراً من جنكيز خان. وأول من ظهر منهم هو زين الدين قراجة بن دلغادر[5]، الذي يعتبر المؤسس الفعلي لهذه الإمارة، فقد نجح في تشكيل أول حكومة سنة ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٧ م[6]، معترفاً به كحاكم على البستان من قبل المماليك نظراً لإخضاعه حاكم آسيا الصغرى المغولي للسلطان الناصر محمد[7]. إلّا أنه وخلال قرنين من الزمن أي حتى انتصار

---

(١) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٠٥.
(٢) عاشور، سعيد عبدالفتاح الحركة الصليبية: مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ط٢، ١٩٦٣، ص ٢٢٢.
(٣) الجميل: المرجع السابق.
(٤) دهمان، محمد أحمد: العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار، دار الفكر، ط١، ١٩٨٦، ص ٢٥.
(٥) القرماني: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٠.
(٦) دهمان: المرجع السابق، ص ٢٥.
(٧) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٢٧٧.

العثمانيين على المماليك سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م، فإن قراجة بن دلغادر وخلفاءه لم يكفّوا عن المجاهدة في سبيل توسيع رقعة نفوذهم وممتلكاتهم حتى شملت مرعش، البستان،[1] ملطية، عينتاب، عزاز[2]، خربوت[3]، بهسنا[4]، درندة[5]، قيصرية، قلعة الروم، بلاد سيس وغيرها[6]، وهي البلدان التي قامت عليها المملكة الأرمنية[7]، أي مناطق الحدود بين الدولتين المملوكية والعثمانية[8].

وإذا كان المماليك في البداية ونظراً لسوء أوضاعهم الداخلية قد قرروا إدارة ظهورهم للأمراء التركمانيين مكتفين بالحصول على مساعدتهم المالية والعسكرية[9]، إلّا أنّ سياسة هؤلاء التوسعية إضافة إلى أهمية منطقتهم الاستراتيجية، قد جعلت المماليك أكثر حذراً من قبل، فكانت الغزوات المتتالية التي قام بها نواب الشام على ممتلكاتهم اعتباراً من النصف الثاني من القرن الثامن الهجري فاتحة عصر جديد في علاقة مصر معهم.[10]

أمّا الرمضانيون فهم أسرة أناضولية صغيرة من التركمان الأوجاقية[11]، يكتنف تاريخها ما يكتنف معظم الإمارات الأناضولية من غموض وتذهب الروايات إلى أنّ هذه الأسرة التركمانية قد قدمت إلى الأناضول من آسيا الوسطى في عهد

---

(١) البستان: وتقع على سطح جبل البستان من الغرب. وهي إلى الشمال من مرعش، وكانت عاصمة الإمارة الدلغادرية.

(٢) بلدة من أعمال حلب من العواصم. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٤، ص ١١٨ والقرماني: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٢٣.

(٣) مدينة في هضبة أرمينيا تقع على أحد أصول نهر الفرات إلى الشمال الشرقي من ملطية. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٦٤.

(٤) قلعة حصينة مرتفعة بينها وبين سيس نحو ستة أيام، وهي من المغرب والشمال من عينتاب.

(٥) مدينة من بلاد الروم. القرماني: المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٧١.

(٦) القرماني: المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٧) دهمان: المرجع السابق، ص ٢٣.

(٨) أوزتونا، يلماز: تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إستنبول ـ تركيا، ١٩٨٨، ج١، ص ٧٧ وطقوش: تاريخ المماليك، ص ٤٤٦.

(٩) المقريزي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٩.

(١٠) المقريزي: المصدر نفسه، ص ٥٠ ـ ٥٩ ـ ١٢٠ ـ ١٥٨ ـ ١٥٩ ـ ١٨٦ ـ ١٦٧ والقرماني: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٩ وما بعدها.

(١١) ابن أجا: محمد بن علي محمود الحلبي: تاريخ الأمير يشبك الظاهري، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي، ص ٧٢ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص٧٧.

أرطغرل، حيث استقرت في إقليم أدنة[(١)]، وتشمل بلاد هذه الأسرة أدنة، سيس، آياس وتوابعها[(٢)].

وبعد وفاة قراجة بن دلغادر سنة ٧٥٤ هـ/ ١٣٥٣م، استقر مكانه ابن رمضان التركماني حيث رسم له السلطان المملوكي بالإمرة على التركمان وأنعم له بالإقطاع[(٣)]. ويبدو أن يوركر أوغلي رمضان التركماني قد أسس لنفسه حكماً في أدنة، بعد أن احتلها المماليك سنة ٧٦١ هـ/ ١٣٦٠م وجعلوها قصبة نيابة، وقد اعترف يوركر بسلطان المماليك، ومدّ في رقعة أملاكه وأنشأ الدولة الحاجزة رمضان أوغلي. وكان هو وخلفاؤه يناصرون المماليك حيناً ويناهضونهم حيناً[(٤)]، إلى أن التزمت هذه الإمارة الطاعة بعد مقتل إبراهيم بن رمضان ٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥م[(٥)]، وقد اتسمت أدنة بفترة من الهدوء النسبي[(٦)].

ولعلّ ما أورده القاضي ابن أجا، مرافق الأمير يشبك الدوادار في حملته العسكرية لإخضاع الأمير المتمرد شاه سوار بن دلغادر (٨٧٥ ـ ٨٧٧ هـ/ ١٤٧١ ـ ١٤٧٣ م)، يعتبر دليل هام على سياسة المماليك تجاه الأمراء التركمانيين من الدلغادريين والرمضانيين، فقد ذكر بأن الأمراء التركمان قد وفدوا على الأمير يشبك عند وصوله إلى حلب وكان بينهم الأمير شاه بداق بن دلغادر والأمير عمر بن رمضان وأخوه داوود، وقد طلب منهم القاضي ابن أجا تنفيذ أوامر نائب حلب، فأجابوه بالطاعة ووزّع عليهم مبلغاً من المال[(٧)].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبدالحميد يونس، مراجعة مهدي علام، ج ١٠، ص ١٨٧.
(٢) القرماني: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٥
(٣) المقريزي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٠٠ والظاهري: المصدر السابق، ج١، ص ٢٦٦.
(٤) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٧، هامش ص ١٨٩.
(٥) الظاهري: المصدر السابق، ج٥، ص ١٠٥.
Darraj, Ahmed al Sayyid: L'Egypte sous le règne de Barsbay (825 - 841), Damascus, 1961 p 385 - 386.
(٦) القلقشندي: المصدر السابق.
(٧) ابن أجا: المصدر نفسه، ص ٧١ ـ ٧٢.



سياسة المماليك العسكرية
على الحدود العثمانية

إنّ الدفاع عن المنطقة الحدودية استدعى من المماليك القيام ببعض التنظيمات الإدارية التي خدمت سياستهم العسكرية، فقد قسموا المنطقة الحدودية ـ وفقاً لما أورده القلقشندي ـ إلى اثنتين وعشرين نيابة. مركزها الإداري مدينة حلب، ونظمت في ثلاث مجموعات على الشكل الآتي:

ـ بلاد داخلة في حدود الممالك الشامية.

ـ بلاد متصلة بذيل البلاد المتقدم ذكرها من الشمال المعروفة ببلاد الأرمن أو بلاد العواصم والثغور.

ـ البلاد المجاورة للفرات من شرقيه من بلاد الجزيرة الواقعة بين الفرات ودجلة.(١)

ويبدو ممّا تقدم، أنّ التقسيم الإداري لم يختلف كثيراً عما كان عليه سابقاً، فقد بقي الخط الحدودي كما كان بين المسلمين والبيزنطيين(٢).

لذلك اعتمدت الدولة المملوكية، مع بعض التعديلات، النظام الدفاعي الإسلامي القديم المعروف بالعواصم والثغور.

العواصم هي الحصون المنيعة التي كان المسلمون يعتصمون بها فتعصمهم من العدو إذ كانت متاخمة لبلاد الكفر وواقعة في نحر العدو، وكانت تحيط بالمنطقة الواقعة بين حلب وأنطاكية ومركزها الإداري أنطاكية أو منبج ويدخل عليها تعديل حسب التراتيب الإدارية.(٣)

أما الثغور فهي الحصون التي بنيت على تخوم الشام والجزيرة لصد غزوات الروم، لذلك سميت بالثغور الرومية، وتبدأ هذه المنطقة من طرسوس وتمتد على

---

(١) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ ـ ٢٣٥. الجزيرة بلاد تشتمل على ديار بكر، وسميت جزيرة لأنها بين دجلة والفرات انظر القزويني: المصدر السابق، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٢) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٠١.
Le Strange, Gy: The lands of the Easterne caliphate, Newyork, 1966, p7 - 10.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ص ١٣٥.

طول جبال طوروس إلى ملطية ثم إلى الفرات، وهي بمثابة الحزام المحصن الذي يحمي منطقة العواصم التي على الحدود من غارات الأعداء[١].

لقد تداولت بلاد الثغور بأيدي المسلمين والروم ثم هاجرت في أوائل الحروب الصليبية فرق كثيرة من الأرمن إلى هذه الجهات فتوطنوها وبقيت بأيديهم إلى أن قامت دولة المماليك بتحطيم هذه الإمارة وأصبحت الحدود الشامية في العصر المملوكي تضم منطقتي العواصم والثغور[٢] التي «حدّها من جهة القبلة وانحرافاً للجنوب بلاد بغراس وما يليها، من الشرق جبال الدربندات، من الشمال بلاد ابن قرمان ومن الغرب سواحل الروم المفضية إلى العلايا وأنطاليا». [٣]

وتنقسم منطقة الثغور إلى قسمين:

ـ الثغور الشامية وتمتد بموازاة جبال طوروس وتتضمن سيس، الهارونية، مصيصة، أدنة، طرسوس وآياس. (وهي تؤمن الحماية لمرافئ بلاد الشام من القرمانيين والعثمانيين).

ـ ثغور الجزيرة وتمتد بموازاة أنتي طوروس وتتضمن ملطية، الحدث، ومرعش[٤]. وتضم من جهة شرق الفرات البيرة، جعبر والرها[٥] (حيث شكلوا خطاً دفاعياً لحماية الأراضي المملوكية من الأسر المجاورة في العراق وإيران).

من خلال تقسيم منطقة الثغور إلى مجموعتين يتبين بأنّ لهذا التقسيم أصولاً جغرافية، بمعنى آخر فإنّ الحصون الحدودية التي حمت درب الحدث قد شكّلت ثغور الجزيرة، وأمّا الحصون التي حمت درب طرسوس وممرات بلاد الشام فقد شكّلت الثغور الشامية.

من هذا المنطلق يمكن تفسير اهتمام السياسة العسكرية المملوكية بإمارتي دلغادر ورمضان واعتبارهما خطين دفاعيين داخليين في وجه الدولة العثمانية. فالمماليك قد أوكلوا إلى الدلغادريين، الذين كان مركزهم حول إمارة البستان، مهمّة حماية درب الحدث على طول ثغور الجزيرة. وإلى الرمضانيين، ومركزهم

---

(١) دائرة المعارف: المرجع السابق، ج ٦، ص ٢٠٣.
(٢) دهمان: المرجع السابق، ص ٢٠ ـ ٢٢.
(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج٤، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية: المرجع السابق، ج ٦، ص ٢٠٤.
(٥) القلقشندي: المصدر السابق، ج٤، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤. البيرة بلدة ذات قلعة حصينة مرتفعة على حافة نهر الفرات ولها واد. انظر القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص٣٢٤. والرها مدينة كبيرة شرقي الفرات. انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

حول أدنة، مهمة حماية درب طرسوس على طول الثغور الشامية. واحتفظوا بحكم مباشر على بعض المدن الممتدة من طرسوس وحتى الفرات يتمثل بأمير وحاكم مملوكي[(١)]، بهدف المحافظة على سياسة التوازن بين القوى داخل المنطقة الحدودية وخارجها.

وبناءً على هذا، يمكن القول بأنّ هذا التقسيم الذي اعتمده المماليك قد خدم سياستهم العسكرية انطلاقاً من حاجتهم وصل الأمن بالجغرافيا. وإذا كانت السياسة العسكرية المملوكية قد اعتمدت على إمارتي دلغادر ورمضان في شؤون الأمن والدفاع فإنها أولت إمارة قرمان، الواقعة بين ممتلكات المماليك والعثمانيين[(٢)]، والتي كان أمراؤها نواباً لدى السلطنة[(٣)]، نفس المهام واعتبرتها خطاً دفاعياً خارجياً لحماية الأراضي المملوكية، إلّا أنّ هذه الجهة لم يكن وضعها أكثر استقراراً مع تزايد قوة العثمانيين واعتمادهم نفس سياسة المماليك اتجاهها[(٤)].



خطوط الدفاع المملوكية في كيليكيا

إنّ السياسة العسكرية التي اعتمدها المماليك في المنطقة الحدودية، والتي قامت على أساس اعتبار منطقة الثغور الممتدة من طرسوس وحتى الفرات حزاماً أمنياً وحاجة ضرورية للحماية من الاعتداءات الخارجية، قد شكّلت الهيكل العام للسياسة الدفاعية المملوكية.

لم يكن صدفةً أن أطلق على هذه المنطقة تسمية بلاد الثغور والعواصم، ولكن للإشارة إلى القلاع التي تعتبر من أقدم ما هو موجود من خطوط الدفاع فيها والتي ورد ذكرها في كثير من المصادر القديمة. لقد لعبت هذه القلاع دوراً هاماً في السياسة الدفاعية نظراً لموقعها الاستراتيجي على المرتفعات والهضاب، ممّا أتاح لها دوراً في الاشراف على الممرات الجبلية وحفظ أمن الطرقات المؤدية إلى المدن الرئيسية، وأحياناً لاتخاذها قواعد انطلاق لمحاربة الأعداء.

(١) Shai, Har - El: op. cit, p 45.
(٢) Darraj: op. cit, p 364.
(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٧، ص ٤٣٥.
(٤) عاشور، سعيد عبد الفتاح: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ص ٢٧٥.

وكتحديد للخطوط الدفاعية المملوكية في كيليكيا، والتي كانت هدف الهجوم العثماني يمكن تقسيمها إلى خمسة خطوط أساسية: طرسوس، أدنة، سيس، آياس، وممرات بلاد الشام.

طرسوس:

إنّ وجودها على طرف الجبال الطوروسية، وإشرافها على مخرج الممرّ الذي سمي باسمها[١]، قد جعل منها حصناً أساسياً للدفاع عن الأراضي الكيليكية، فهي مدينة مسورة محصنة تابعة لحلب ولها خمسة أبواب[٢]. وحاكم المدينة هو نائب من قبل السلطان المملوكي، وفيها قلعة محاطة بخنادق ولها سوران[٣].

وإلى الشمال من طرسوس وعلى طول ممرّها، يوجد عدة قلاع موزّعة على نقط استراتيجية وأهمها «كولك» التي هي عبارة عن قلعة مدوّرة على رأس جبل[٤] محاطة بالجبال بحيث أنّ الناظر إليها لا يكاد يراها، ولا يمكن الدخول إلى قرمان إلّا سيراً على الأقدام ومروراً بالقلعة[٥]. وذكر القلقشندي «كرزال»، و«باري كروك»، و«سنياط كلا» التي كانت تابعة للمماليك، ثم استولى عليها ابن قرمان، وقلعة «تامرون»، و«لؤلؤة» التي تحمي شمال نهاية الممرّ وقد استولى عليها العثمانيون[٦]. وهكذا يتبين ممّا تقدّم بأن قلعة كولك تحت حكم المماليك، ولؤلؤة تحت حكم العثمانيين، قد شكلتا خطيّ تماس بين الدولتين.

أدنة:

هي مدينة حصينة[٧] مسورة ومطلة على البحر[٨]، فيها قلعة بيزنطية قديمة[٩]. عندما غزاها هارون الرشيد أعاد بناء الجسر على نهر سيحان[١٠]، وقد

---

(١) ابن الأثير، عز الدين بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ تحقيق د عمر تدمري، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٧، ج٦، ص ٣٩.

(٢) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٨..

(٣) De la Broquière, Bertrandon: «The travel of Bertrandon de la Broquière, A.D.1432 and 1433» Ed Thomas wright, Early travels in Palestine, London 1848, p 316.

(٤) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٠.

(٥) De la Broqière: op. cit, p 319 - 320.

(٦) القلقشندي: المصدر السابق، ج٤، ص ١٤٠ ـ ١٤٢.

(٧) المصدر نفسه: ص ١٣٩.

(٨) Dela Broquière: op. cit, p 318.

(٩) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٧، هامش، ص ١٨٩.

(١٠) اليعقوبي، أحمد بن ابي يعقوب اسحاق بن واضح: البلدان، تحقيق محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٢٠٧ والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٠٤.

بناه قديماً الرومان، ولهذا الجسر أهمية استراتيجية باعتباره الممرّ الوحيد فوق النهر[١]. ولم يستجدّ في المدينة حصون إضافية بعد أن أصبحت تحت حكم أسرة رمضان[٢].

وإلى الشرق من أدنة توجد مصيصة وتقع على نهر جيحان، لها باب يقفل بالليل، بناها المأمون، كانت من ثغور الإسلام وأصبحت بيد أسرة رمضان[٣]. للمدينة جسر له أهمية في اجتياز النهر. إنّ نصف المدينة أصيب بالدمار والنصف الآخر حافظ على السور وحوالي ثلاثمئة منزل سكنها التركمان[٤].

سيس:

كانت تعتبر من أكبر حصون الأرمن[٥]، تقع شمال شرق أدنة[٦] على هضبة تجاه جبال طوروس، وهي بلدة كبيرة لها قلعة حصينة عليها ثلاثة أسوار[٧]، وفيها أيضاً قلاع صغيرة عليها أبراج مراقبة محاطة بخنادق واسعة[٨]. لقد قاومت المدينة حصار المماليك لها حوالى شهرين قبل أن يتمكن الجيش المملوكي من دخولها وفتحها[٩]. إن ابن أجا الذي زار سيس عام ٨٧٦ هـ/ ١٤٧٢م بعد أن استولى عليها شاه سوار، وصف قلعتها بأنها من أعظم القلاع، في وسطها قلعة أخرى تسمى «القلة»، وذكر بأن قلعتها حصينة «لو كان فيها رجال يحفظونها ما أمكن أخذها بالحصار لصعوبتها وعلوها»[١٠]. لقد أصبحت سيس في أعقاب الفتح المملوكي لها نيابة مستقلة[١١]، وقد استولى عليها العثمانيون عام ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨م إبان الحرب التي دارت بين بايزيد الثاني والمماليك[١٢].

إنّ حصانة سيس وموقعها بين إمارتي دلغادر ورمضان قد خدمت السياسة

---

(١) Le Strange: op. cit, p131.
(٢) Ibid: p 131 - 132.
(٣) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤٢ ـ ١٤٥ والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٨٧.
(٤) De la Broquière: op. cit, p 316 - 317.
(٥) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٩٩.
(٦) دائرة المعارف الإسلامية: ج ١٢، ص ٤٦٧.
(٧) القلقشندي: المصدر السابق، ج٤، ص ١٣٩.
(٨) Le Strange: op. cit, p 130 - 131.
(٩) المقريزي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٧٧ والسخاوي: وجيز الكلام: ج ١، ص ٢٠٦.
(١٠) ابن أجا: المصدر السابق، ص ١٣٢.
(١١) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٩.
(١٢) دائرة المعارف الإسلامية: ج ١٢، ص ٤٧٢.

العسكرية المملوكية القائمة على حفظ التوازن بين القوى المتواجدة في المنطقة الحدودية.

آياس:

هي بلدة على ساحل كيليكيا على الشاطئ الغربي لخليج الإسكندرون وإلى الشرق من نهر جيحان(١)، قريبة من بغراس ولها ميناء هام(٢). تمّ استعادتها من الأرمن سنة ٧٣٨ هـ/ ١٣٣٨ م، وكان أمرها إلى نائب الشام ثم جعلت إلى نائب حلب(٣). فيها قلعة ذكرها القاضي ابن أجا أثناء زيارته لها(٤). يعتبر ميناء آياس المرفأ الوحيد الذي زخر بحركة تجارية واسعة في ظل حكم ملوك أرمينيا ثم المماليك بعد ذلك(٥)، حيث أمن للدولة المملوكية حماية للأراضي الكيليكية ولأراضي بلاد الشام ومصر من هجوم عسكري ضخم من جهة البحر.

ممرات بلاد الشام:

إنّ وجود أربع ممرات أساسية في جبال الأمانوس أو بغراس قد شكلت خطاً دفاعياً هاماً لحماية بلاد الشام.

أولاً: ممرّ الدربند، الذي وصل شرق غرب أدنة بمرعش، عينتاب، الرها وديار بكر من جهة، وبحلب شمال الشام من جهة أخرى. وقد أُوكل إلى قلعة سرفندكار مهمة حماية هذا الممرّ(٦)، وهي قلعة حصينة في واد على صخر وبعض جوانبها ليس له سور وذلك للاستغناء عنه بالصخر، وتقع بالقرب من جيحان من جهة البر الجنوبي وفي الشرق عن تل حمدون، التي تعتبر من القلاع المهمّة أيضاً فهي قلعة حصينة تقع على تلٍّ عالٍ مشرف لها سور منيع وبينها وبين سيس مسيرة يومين(٧).

ثانياً: الممرّ الموجود شمال خليج الإسكندرون أمام مصيصة، والذي

---

(١) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٧، هامش ص ١٩٠.
(٢) القرماني: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠٥.
(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤ ص ١٣٧ ـ ١٣٨.
(٤) ابن أجا: المصدر السابق، ص ١٣٢.
(٥) ضومط، أنطوان: الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثة بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٦.
(٦) Cahen, Claude: La Syrie de nord a l'époque croisades, Paris, 1940, p 151.
(٧) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٩ ـ ١٤١.

استخدم كمدخل رئيسي من الأراضي الكيليكية إلى الأراضي الشامية[(١)]. هو مضيق صخري محمي من قبل قلعة قوية جداً[(٢)] اسمها «كوارة» كانت تعتبر من أحصن قلاع الأرمن، لها سور كبير أنفق على عمارته أربعمائة وستين ألف دينار[(٣)]، وهي تقع إلى الشمال من آياس على جبل مطل على البحر المتوسط[(٤)].

ثالثاً: ممر «باب الملك» الذي هو عبارة عن مضيق صخري ضيق عند عقبة بغراس يمتد من الإسكندرون وحتى باياس، يحده البحر المتوسط من جهة وجبال الأمانوس من جهة أخرى[(٥)]، وطريقه صعبة جداً لا يمر بها إلّا الشخص الواحد، وقيل إنّ الملك الظاهر بيبرس منع الناس من المرور بها إلّا الواحد بنفسه[(٦)].

رابعاً: الممرّ الذي يجتاز الأمانوس ويمر منه طريق الإسكندرون ـ أنطاكية[(٧)]، وهو محمي من قبل قلعة بغراس الحصينة[(٨)]، المبنية فوق جبل شاهق من جبال الأمانوس بلواءالإسكندرون وهي تطل على واد عميق[(٩)]. عندما أراد صلاح الدين فتحها سنة٥٨٤ هـ/١١١٨ نصب المجانيق فلم يؤثر منها شيئاً لعلوها وارتفاعها[(١٠)].

إنّ هذا الممرّ يعتبر الحاجز الأخير قبل الدخول إلى الأراضي الشامية. وعلى الرغم من أن هذه السلسلة الدفاعية من المدن المسورة والقلاع، بالإضافة إلى الحدود الطبيعية من جبال طوروس وأمانوس؛ قد خدمت النظام الدفاعي المملوكي في صد الاعتداءات الخارجية في بعض الأحيان؛ إلّا أنها لم تكن قوية بما فيه الكفاية، فمقاومة أي هجوم عسكري كبير كانت تتطلب مقدرات عسكرية أخرى، والحق أنّ الحاجة كانت أمس ما تكون إلى نشر قوات إضافية عند الحاجة وإنشاء جيش من المشاة.

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٩ .Cahen: op. cit, p 151
(٢) De la Broquière: op. cit, P 316.
(٣) المقريزي: المصدر السابق، ص ٢٣٠.
(٤) القلقشندي: المصدر السابق، ص ١٤٠ .Cahen: op. cit, p 151.
(٥) De la Broquière: op. cit, p 314.
(٦) ابن الجيعان، القاضي بدر الدين بن عبد الغني، القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، تحقيق د. عمر تدمري، جروس برس ط١، ١٩٨٤، ص ٦٣.
(٧) اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٢٠٧.
(٨) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٥٧ وابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٩٣.
(٩) ابن أجا: المصدر السابق.
(١٠) ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص ٥٧.



ضعف القدرة العسكرية المملوكية

بعد أقل من قرنين على غزو هولاكو وجحافله المغولية، واجهت دولة المماليك مرحلة من أشد مراحل العصر المملوكي صعوبة، تمثلت بتجديد طمع المغول بالديار الإسلامية، وتجسدت بالهجوم الواسع الذي شنّه تيمورلنك على البلاد الشامية، والذي ألحق الضرر الجسيم بالأرواح والممتلكات، وأثر على القوتين، الاقتصادية والعسكرية للدولة المملوكية. فتحوّل الحكم نهائياً إلى الجراكسة أو المماليك البرجيين، لم يضع حدًّا للصراع على السلطة، حيث استمرت الفتن الداخلية بين طوائف المماليك، ومع غياب حاكم قوي قادر على توحيد الصف الداخلي، لمواجهة الخطر الخارجي، تقهقر النظام المملوكي، حتى إذا ما واجهت الدولة في القرن التاسع الهجري تحديات «ديموغرافية» إقتصادية، سياسية وعسكرية برزت بوادر الإنحطاط واستشرت في البلاد وانعكست سلباً على القدرة العسكرية المملوكية البرية والبحرية.

أ ـ «الديموغرافية»

لقد تناقص عدد السكان في مصر بشكل هائل، من جراء وباء الطاعون الذي عرف في تاريخ أوروبا «بالموت الأسود» والذي اجتاح معظم البلدان في الجزء الغربي من العالم في منتصف القرن الرابع عشر واستمر لحوالي القرن بعد ذلك في ثوران يتكرر دورياً[1]، وقد حصد الآلاف من البشر. وقدر عدد الطواعين الذي شهدته مصر في الفترة الواقعة بين ٨١٩ هـ/ ١٤١٦ م و٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م، بأحد عشر طاعوناً[2]، وكان أشدّها طاعون سنة ٨٣٣ هـ حيث ضبط من توفي في القاهرة فكانوا ألفاً ومئتين وثلاثاً وستين في اليوم الواحد[3]. وقد أصابت هذه الطواعين أكثر شيء الشباب القادمين الجدد من المشتروات من الرقيق[4]، وذلك

(١) حوراني، البرت: تاريخ الشعوب العربية، ترجمة كمال خولي، وتحقيق أنطوان نوفل، ١٩٩٧، ص ٢٦٦.

(٢) Raymond, André: Le Caire, Librairie Arthème Fayard, 1993, p171.

(٣) المقريزي: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧. إن هذا الرقم لا يعقل إطلاقاً وربما أعطى المقريزي ذلك الرقم تدليلاً على خطورة هذا المرض.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب ط١، ١٩٩٠، ج ٢، ص ٥٢٤

لعدم تأقلمهم بعد في المناخ المحلي[١]، ممّا أدى إلى تناقص المماليك في مصر وخاصة في صفوف الأجلاب[٢].

ب ـ الاقتصاد

شكل الاقتصاد دعامة أساسية استندت إليها الدولة المملوكية أيام قوتها وازدهارها؛ إلّا أن الضعف الذي أصاب هذه الدعامة قد ارتبط بعوامل داخلية أكثر منه بعوامل خارجية: ـ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول تجارة الهند والشرق الأقصى عن طرق التجارة المارة بأملاك مصر[٣] ـ كالقحط الناتج عن انخفاض النيل، والأوبئة، وتناقص عدد السكان، وعدم رعاية الدولة لأرباب الاقتصاد وللعاملين في الميادين الاقتصادية، وكثرة فرض الحمايات على الإقطاعات، واستبعاد الفلاح وعدم مراعاة حقوقه، ومزاحمة المماليك لأرباب العمل الصناعي[٤]، واحتكارهم لسلع التجارة الخارجية كالتوابل والبهار، وزيادة قيمة الأسعار والضرائب[٥]، والغش في النقد بتقليل قيمة الذهب والفضة في الدينار والدرهم[٦]، إضافة إلى الخلل الرهيب بين مصاريف الجهاز العسكري والإنتاج الاقتصادي، حيث إنّ الحروب الداخلية والخارجية قد استنزفت الاقتصاد تأميناً لمصاريف تلك الفتن والحروب[٧]، فضلاً عن أن بزخ السلاطين لم يتوقف في أشد الأوقات حرجاً[٨].

(١) رافق، عبد الكريم: العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦، مطابع ألف باء دمشق، ط١، ١٩٧٤، ص ٧.

(٢) رافق: الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر، من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ١٩٨٨، ص ٢١.

(٣) Ayalon, David: Gunpowder and fireams in the mamluk kingdon, London, 1956, p132.

(٤) ضومط: المرجع السابق، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٥) رافق: العرب والعثمانيون، ص ٩.

(٦) ضومط: المرجع السابق، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ وكلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة د. بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت، ط١، ١٩٧٢، ص ٨٤.

(٧) مثال على ذلك فإن كلفة حملة السلطان برسباي على «آمد» ٨٣٦ هـ خمسمائة ألف دينار من النقد وتلف له من السلاح والمتاع والجمال والبغال مثل ذلك وأنفق على الأمراء بمصر والشام والعساكر المصرية والشامية مثل ذلك ومع هذا كله كانت سفرة كثيرة الضرر قليلة النفع. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة من ملوك مصر والقاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج ١٥، ص ٣٥

(٨) ضومط: المرجع السابق، ص ٣٦٥.

ج ـ السياسة

لقد تقهقر الوضع العام للنظام السياسي المملوكي من جراء الصلاحيات الواسعة التي منحها السلاطين للأمراء، ضماناً لولائهم، والتي لم تكن مقيدة على أسس الأعراف والتقاليد التي تحدّد أولوية الترقية، فانفسح المجال أمام المغامرين للخروج عن الطاعة وأساؤوا استعمال صلاحياتهم، فانتشر الفساد في إدارات الدولة وممّا زاد في نشاطهم أن العرف المملوكي قد جعل العرش من حق الجميع فانتهجوا الثورات متناً وتدافعوا فيما بينهم للوصول إلى السلطة.[(١)] وكان للانحطاط الاقتصادي تأثير على الوضع السياسي حيث قام الجند بثورات متعددة لعدم تمكن الدولة من دفع رواتبهم أو لمحاولة إنقاصها.[(٢)] إن عجز السلاطين في بعض الأحيان عن كبح جماح مماليكهم قد دفعهم إلى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض حتى تخلو لهم الساحة السياسية، ممّا أوجد حالة من اللاستقرار الأمني[(٣)].

د ـ السياسة العسكرية

لقد قامت دولة المماليك أساساً على نظام عسكري متين القواعد، يجمع أفراد الجيش ويفرض الاحترام المتبادل فيما بينهم. وبذلك استطاعت التصدي للمغول والقضاء نهائياً على الوجود الصليبي في الشرق. إلّا أن هذا النظام قد حمل في أسسه بذور الفساد والضعف؛ فتقسيم الجيش إلى أصول وطوائف متعددة، قد أدى بداية إلى تقوية المنافسة البناءة بين فرقها، ثم تحول هذا التنافس إلى تناحر مميت، عندما وهنت السلطة السياسية وقل تدبير السلطان[(٤)] «فضعف عسكر مصر لذلك ولولا ذلك لكان عسكر مصر لا يقومه عدد ولا يدانيه عسكر»، على حد تعبير ابن تغري بردي[(٥)]. لعل أهم سبب أدى إلى ضعف المماليك العسكري هو إهمالهم تمارينهم التقليدية في الفروسية بسبب التهديم الذي أصاب الميادين المخصصة لتمارين الفروسية، وكرههم استخدام الأسلحة النارية[(٦)]. إن قلة تجريد

---

(١) ضومط: المرجع نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) رافق: بلاد الشام ومصر، ص ٢٤ .Raymond: op. cit, p 172

(٣) طقوش: المرجع السابق، ، ٣٥٢.

(٤) يؤلف المماليك عماد الجيش في السلطة المملوكية وأشهرهم: المماليك السلطانية وهم ثلاثة أقسام: مماليك السلطان الحاكم أو الجلبان أو الأجلاب ثم مماليك السلاطين السابقين أو القرانصة ثم مماليك الأمراء السابقين أو السيفية وأيضاً مماليك الأمراء انظر رافق: العرب والعثمانيون، ص ٦.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٧٠ ـ ٧١.

(٦) رافق: بلاد الشام ومصر، ص ٢١.

الجند للحروب الخارجية قد ساعد على إضعاف روح الولاء عند المماليك وكثرة ثوراتهم وانصرافهم إلى الفتن الداخلية[(١)] وزيادة على ذلك يمكن القول، وبشكل عام، أن تجنيد الأرقّاء المعدّين للخدمة في الجيش كان في القرنين التاسع والعاشر الهجريين أدنى نوعية ممّا كان عليه الأرقّاء في القرنين السابع والثامن الهجريين[(٢)].

إن هذه الأسباب مجتمعة لم تؤثر سلباً على النظام المملوكي فحسب، وإنّما ساهمت بإضعاف النظام الدفاعي في المنطقة الحدودية، فالأمراء التركمانيون، الذين كان من المفروض أن يكونوا تابعين لسلطنة المماليك ومساهمين في تأمين الحماية العسكرية للمنطقة الحدودية، لم يظلوا دائماً على ولائهم؛ فقد أقاموا لأنفسهم إمارات شبه مستقلة متوارثة تتسلسل فيهم وفي أحفادهم[(٣)]. وقد بلغت جرأة أحدهم، وهو قراجة بن دلغادر، حدًّا أن طلب من صاحب سيس الحمل الذي يحمل إلى السلطان[(٤)]. لا شك أن انشغال السلاطين المماليك في النزاعات الداخلية وعجز الدولةعن الاحتفاظ بهيبتها والدفاع عن كيانها ضد الأخطار التي هددتها، قد دفع هؤلاء الأمراء في كثير من الأحيان إلى الخروج عن الطاعة والإفساد في الأرض[(٥)]. وقد لاحظ ابن تغري بردي عام ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٨ م بأن الفرق بين سلطنة المماليك والنيابة في إمارة البستان لم يعد مقتصراً إلّا على الاسم والخلعة فقط[(٦)].

وأمام رفض السلاطين قبول هذا الواقع السياسي والإصرار على اعتبار الإمارات التركمانية، ولا سيما إمارتا دلغادر ورمضان، كجزء من الدولة المملوكية وأمرائها كتابعين مباشرة لنيابة حلب[(٧)]، فإن المنطقة الحدودية قد شهدت صراعات وحروباً متقطعة بين الأمراء التركمانيين، الذين حاولوا بناء كيانهم الخاصّ، والسلاطين الذين تمسكوا بفرض سيطرتهم على المنطقة.[(٨)] وإذا كان المماليك قد حرصوا على توطيد أمن الدولة في هذه المنطقة وذلك بوضع حاميات عسكرية في مواقع

(١) نوار، عبد العزيز: الشعوب الإسلامية، دار النهضة العربية، ١٩٧٣، ص ٨٣ والسيد الباز العريني: المماليك، دار النهضة، بيروت، ص ٢٦٣.
(٢) Boulos: op. cit, v 4, p 538.
(٣) عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٣٧٩.
(٤) دهمان: المرجع السابق، ص٢٥.
(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٣،ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) دائرة المعارف الإسلامية: ج٨، ص ٢٥.
(٨) Darraj: op. cit, p 364.

استراتيجية[١] لأغراض تجارية وسياسية، فإنه وحوالى منتصف القرن التاسع الهجري ونظراً لتراكم الديون والعجز المالي والعسكري أضحى الدفاع عن الحدود الشمالية من المشقات التي بذلت[٢]، لذلك بدأوا يتخلون عن معظم هذه المواقع واكتفوا بالحماية التركمانية التي قدمتها إمارتا دلغادر ورمضان فتضررت السياسة الدفاعية المملوكية[٣].

إن النزاعات المستمرة بين إمارة قرمان وإمارة دلغادر من جهة، وبين السلطة المملوكية من جهة أخرى، إضافة إلى اعتداءات «آلاق قوينلو»[٤] على دفاعات المماليك وممتلكاتهم الحدودية في الفرات وتدخلهم باستمرار في شؤون دلغادر، كل ذلك ساهم بتقويض سياسة التوازن بين القوى التي اعتمدها المماليك في المنطقة الحدودية[٥]. ومع تنامي قوة الدولة العثمانية وتوسعها على حساب الإمارات الأناضولية ابتداءً من نهاية القرن الثامن الهجري ازدادت الأمور تعقيداً حيث دفعت الضغوط التي نتجت عن تدخلها في شؤون دلغادر وتوسّعها على حساب قرمان في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، هاتين الإمارتين للقيام بمناوشات متكررة مع المماليك[٦].

وقامت حلب بمسؤولية عسكرية في قمع البدو وكفكفة مخاطر الإمارات التركمانية التوسعية، وأصبحت قاعدة على تسيير الحملات إلى الحدود الشمالية، وقد ناءت الأوضاع الاقتصادية والأمنية للبلاد تحت عبء الضغوط العسكرية المتواصلة.

ومع انتقال أساليب الحرب والقتال من عصر الفروسية والسيف إلى عصر المشاة والمدفعية البرية والسفن البحرية، فإنّ المماليك الذين كانوا فرساناً بطبيعتهم، لم يكن لديهم القدرة على الارتفاع بسرعة إلى أساليب ومستويات التفوق العسكري حينذاك (العثماني والبرتغالي) سواء في البر والبحر.[٧] بل وعندما

---

(١) لابيدوس: ص ٧٢ وأنور زقلمة: المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٥، ص ٨٩.
(٢) لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٧٥.
(٣) Shai, Har - El: op. cit, P 56.
(٤) إمارة آلاق قوينلو أو «الخروف الأبيض»، أسرة تركمانية وفدت من أواسط آسيا نتيجة غزوات المغول على بلاد خوارزم، واستقرت في ديار بكر، واتخذت في بادئ الأمر مدينة آمد عاصمة لها. مؤسس هذه الأسرة هو قرايلك، تعاون مع تيمورلنك أثناء غزوه لمناطق غربي آسيا، وقد منحه أرضاً في أرمينيا ومنطقة الفرات الأعلى، كما توسعت الإمارة بعد ذلك على يد أميرها أوزون حسن (٧٧٢ ـ ٨٨٢ هـ/١٤٦٧ ـ ١٤٧٧م) كما سنرى ذلك لاحقا.
(٥) Shai, Har - El: op. cit, p114.
(٦) لابيدوس: المرجع السابق، ص ٧٥.
(٧) Ayalon: op. cit. p 132.

أدركوا ضرورة استحداث فرق من المشاة واعتمدوا على المشاركة الشعبية؛ التي لم تقتصر على الدفاع المحلي فقط بل شملت الحملات الخارجية؛ فشلت هذه التجربة، وفرضت وجود تهديد قوي وعام لسيطرة المماليك، لأن هذه القوة كانت تفتقر إلى التنظيم وتنقصها روح الثورة العسكرية(١).

وثبت أيضاً أن الهجمات التي شنها القراصنة على سفن المسلمين وشواطئهم كانت خطراً كبيراً، لم يخفف فتح المماليك لقبرص(٢) عام ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦ م، والهجمات التي شنت ضد رودس(٣)، الضغط. كما أن الدفاعات السلبية لم تجد نفعاً(٤)، وأن الجهود التي بذلت لتقوية الدفاعات الساحلية قد شغلت دوراً بسيطاً في حماية سواحل بلاد الشام ومصر. وهكذا توجب على المماليك حمل الأعباء الجسام للدفاع في البحر(٥)، فقويت بعد ذلك صناعة السفن بالرغم من عوزها للمواد والطاقة البشرية الماهرة التي كان يحصل عليها بقنوط عن طريق الحملات المخفورة إلى سواحل الأناضول وبتكاليف لا تحصى، ممّا ساهم، مثلما ساهمت العوامل الأخرى، في إفلاس نظام المماليك(٦).

وهكذا فعندما تعرض أمن الدولة المملوكية فيما بعد إلى خطر خارجي بسبب ظهور قوة البرتغاليين ـ بعد اكتشافهم الجغرافي ـ في المحيط الهندي والبحر الأحمر(٧)، وأمام فشل جهود المماليك والتي استمرت لعقود من الزمن في إخماد القرصنة(٨)، فإن بسط السيطرة العثمانية في مناطق بحر إيجة وشرقي المتوسط قد أنجز ما لم يستطع المماليك إنجازه لأنفسهم(٩).

---

(١) لايبدوس: المرجع السابق، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٢) حول فتح قبرص انظر: المقريزي: المصدر السابق، ج٧، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ والسخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص ٤٨٩ وما بعدها وابن سباط: المصدر السابق، ج٢، ص ٧٩٠ وتدمري: المرجع السابق، ج٢، ص ١٦٨.

(٣) عن هجمات المماليك ضد رودس عام ٨٤٤ هـ انظر المقريزي: المصدر نفسه، ص ٤٦٣، وعامي ٨٤٧ ـ ٨٤٨ هـ، انظر السخاوي: المصدر نفسه، ٥٩٤.

(٤) الخادم، سمير: الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، مؤسسة دار الريحاني ط١، ١٩٨٩ م. ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٥) لا بيدوس: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٦) لايبدوس: ص ٧٦ .Raymond: op. cit. p 179

(٧) العبادي: أحمد مختار وسالم السيد عبد العزيز، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ١٩٧٢، القسم الثاني، ص ٣٣٩.

(٨) حول عجز الأسطول المملوكي انظر: الخادم: المرجع السابق، ص ٧٤ ـ ٧٧.

(٩) لايبدوس: المرجع السابق.

التوافق والصراع في الفترة الأولى من العلاقات العثمانية ـ المملوكية

لسنا مبالغين، إذا قررنا بأن دولة المماليك كانت وحتى سقوط القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م تنظر بعين الارتياح إلى الانتصارات التي حققها العثمانيون على حساب القوى المسيحية المجاورة، فكانوا ينظرون إلى كل نصر يحققه العثمانيون على أنه نصر للإسلام والمسلمين.

وقد أدرك العثمانيون هذه الحقيقة فدأبوا كلما أحرزوا انتصاراً في موقعة كبرى على إرسال بعض أسرى الأوروبيين إلى القاهرة، ليشاركهم إخوانهم المسلمون في مصر فرحة النصر.

غير أنه لم تكد السلطة تنتقل إلى خشقدم عام ٨٦٥ هـ/ ١٤٦١م، حتى أخذت العلاقات بين الدولتين تتعكّر. ذلك أن الدولة العثمانية أخذت تولي وجهها مرة أخرى صوب ما تبقى خارجاً عن السيادة العثمانية من إمارات في آسيا الصغرى، وكانت أهم هذه الإمارات إمارتا القرمان ودلغادر، وهما إمارتان مشمولتان بحماية سلطنة المماليك واعتمدت عليها هذه السلطنة في شؤون الأمن والدفاع عن مصالحها في شمال الشام والعراق، فأنذر تطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على هاتين الإمارتين بصراع مقبل بين العثمانيين والمماليك[1].

١

التوسع العثماني في الأناضول الإسلامي

عهد مراد، وبايزيد

تميزت الدولة العثمانية، منذ نشأتها، بدينامكية خاصة رفعتها بعيداً لمستوى أعلى من بقية منافسيها في الأناضول.

---

(١) عاشور: مصر والشام، ص ٢٧٥.

فخلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري، وبينما كانت القوة المملوكية في ذروة قوتها وازدهارها، كان العثمانيون في حركة توسع بارزة. فقد استطاع أرخان ابن عثمان (٧٢٦ ـ ٧٦١ هـ/ ١٣٢٦ ـ ١٣٦٠)، مؤسس الدولة العثمانية، بأن يستولي على ما تبقى من الأراضي البيزنطية في شمال غربي الأناضول دون صعوبة، وتمكن من ضم إمارة قراسي[1]، وهي أول إمارة إسلامية في الأناضول يضمها العثمانيون إلى أملاكهم. وقد شهد عهده أول استقرار إسلامي في أوروبا من جهة البلقان[2]، كما شهد ظهور نظام عسكري جديد، ممّا جعل دولته أقوى إمارات التركمان في المنطقة[3].

إن تقسيم الأناضول بين إمارات الغزاة كان مضعفاً له ومدعاة لتدخل أوروبا، لذلك استغل العثمانيون انتصاراتهم في البلقان للتوسع في الأناضول[4]. فبعد أن تمركز العثمانيون في غاليبولي، مدوا نفوذهم شرقاً واحتلوا أنقرة[5]، ذات الحضارة السلجوقية وملتقى العديد من الطرق التجارية[6]. وبذلك بدأ التوسع العثماني في المناطق الداخلية الإسلامية، وهذا أوقع العثمانيين بعد ذلك في خلاف مع أمير قرمان، الذي اعتبر نفسه بعد احتلال قونيا وريثاً لسلطنة سلاجقة الروم، والتفّ من حول هذا الأمير أمراء الغزاة في الأناضول، الذين أخافهم التوسع العثماني[7].

وقد اتبع العثمانيون إلى جانب الحرب أساليب أخرى لضم إمارات الغزاة كالتزاوج مع أسرها الحاكمة أو شراء أراضيهم أو منحهم بدلها إقطاعات في البلقان.

---

(١) تقع على ساحل بحر إيجة، أشهر مدنها برغما. خبر فتوحات أرخان انظر: الحنفي: المصدر السابق، ص ٢١٨ والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠ وما بعدها وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص٩٤ وسعيد برجاوي: الامبراطورية العثمانية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣، ص ٢٨.

(٢) القرماني: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠ ـ ١١. حول توسع العثمانيين في البلقان انظر أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٩٥ وما بعدها.

(٣) حول موضوع إنشاء الجيش الإنكشاري انظر مصطفى، أحمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق ط٢، ١٩٩٣، ص ٤٥.

(٤) رافق: العرب والعثمانيون، ص ٣١ ـ ٣٧.

(٥) القرماني: المصدر السابق، ج٣ ـ ص ١١ ـ ١٣ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٩٤ والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٥.
أنقرة مدينة مشهورة ببلاد الروم، غزاها الرشيد وفتحها انظر القرماني: المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

(٦) Boulos: op. cit, v5, p 43.

(٧) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٩٧ ورافق: المرجع السابق، ص ٣٧.

ففي الستينات من القرن الثامن الهجري، تحالف مراد الأول ـ خلف أرخان ـ مع أمير كرميان، الذي أدرك أن ليس من الحكمة المجازفة بحرب مع الدولة العثمانية الناشئة القوية، فأقدم على تزويج ابنته من بايزيد بن مراد وقدّم مدينة كوتاهية[١]، ذات الموقع الاستراتيجي الفريد، مهراً لهما[٢]. وكان في حصول العثمانيين على كوتاهية ضربة قوية لإمارتي تكا[٣] وحامد[٤].

لما أدرك أمير حامد عبث مقاومة العثمانيين، قام ببيع معظم أراضيه بسيديا المطلة على ولايات تكا وكرميان[٥] وقرمان إلى مراد الأول سنة ٧٨٨ هـ/ ١٣٦٨م، وبهذا ضمت بعض المناطق الهامة إلى الدولة العثمانية، وكان أهمها مدينة عك شهر، وهي تقع على حدود إمارة قرمان.

ثم قام مراد الأول بأول عمل حربي ضد الإمارات التركية في الأناضول، فغزا تكا، ولكنه لم يقضِ على أجزائها المطلة على البحر المتوسط، وفي السنوات الثلاث التالية قضى مراد همه في هضم وتنظيم الأجزاء التي ضمها من الإمارات الثلاث كرميان وحامد وتكا[٦].

إنّ اتصال العثمانيين بمنطقة سيديا في شمال حامد، قد شكل تهديداً مباشراً لإمارة قرمان، لذلك ففي عام ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧م استغل علاء الدين أمير قرمان انشغال مراد بحملته على البلقان، واتحد مع بعض الأمراء التركمانيين وهاجموا أراضي حامد، ممّا أدى إلى حصول أول صدام عسكري بين العثمانيين والقرمانيين. وقد ربح مراد المعركة في سهل قونية وأخذ علاء الدين أسيراً، ولولا توسط ابنته التي كان تزوجها مراد لجرده من أملاكه. لذلك اكتفى بأن فرض عليه

---

(١) مدينة ببلاد الروم بينها وبين بورصة ثلاث مراحل انظر ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٣٠٥ والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٤٥.

(٢) فريد بك، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت، ص ٤٦.

(٣) تقع على ساحل البحر المتوسط في المنطقة الجنوبية الغربية وهيمنت على أنطاليا والعلايا.

(٤) تقع داخل الهضبة الأناضولية، اتخذت من أسبارطة عاصمة لها.

(٥) ناحية مشهورة بين فارس وخراسان، تشمل على مدن كثيرة انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٦.

(٦) حول ضم الإمارات التركية انظر: أنيس، محمد: الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ ـ ١٩١٤، القاهرة ص ٣٦ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٩٩ ود. محمد سهيل طقوش: العثمانيون من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة، دار بيروت المحروسة، ط١، ١٩٩٥، ص ٤٤ ـ ٤٥ والبرجاوي: المرجع السابق ص ٣٥.

دفع الجزية[1]. ومن المرجح أن العفو كان سببه أن انتصار العثمانيين لم يكن حاسماً على القرمانيين[2].

هذا ما كان عليه الوضع حين تولى بايزيد الأول الحكم، فركز سياسته على ثلاثة مهام رئيسية: الجهاد في سبيل الله، محاولة قيادة العالم الإسلامي، وتوحيد منطقة الأناضول تحت الإدارة العثمانية وخاصة مع ازدياد الخطر المغولي.

فالعثمانيون أدركوا مساحة الخطر المغولي الذي كان يتهددهم من الشرق، ففي حوالى عام ٧٧١ هـ / ١٣٧٠م خلع تيمور، أمير خراسان ـ ممّا وراء النهر ـ وضم بلاده إلى دولته التي جعلت عاصمتها سمرقند[3]، ولم يقتنع هذا المغامر بالتوسع الذي حصل، بل طمع إلى حدود أبعد. وكان بايزيد يدرك حتمية حدوث معركة في يوم من الأيام بينه وبين تيمورلنك، ومن هنا كان اتجاهه إلى تدعيم مركزه في الأناضول وانتزاع قونية من أمير قرمان، ودخول التركمان في قيصرية وتوقات وسيواس في طاعته[4].

وكانت أولى الإمارات التي غزاها إمارة آدان[5]، صاروخان[6]، ومنتش[7] التي تطل على بحر إيجة. وكان صراع هذه الإمارات مع العناصر التجارية اللاتينية قد أضعفها، لذلك سهل على بايزيد القضاء عليها واحتلال أملاكها، وبهذا الاحتلال أضحت الدولة العثمانية تطل على بحر إيجة. وفي جنوب هذه الإمارات الثلاث استولى بايزيد على أنطاليا ـ آخر مدينة في إمارة تكا ـ وكان هذا أول ظهورهم على البحر المتوسط[8].

---

(١) أوزتونا: المرجع نفسه، ص ١٠٠ وأنيس: المرجع نفسه، ص ٢٧ وفريد بك: المرجع السابق، ص ٤٧ والبرجاوي: المرجع نفسه، ص ٣٦.

(٢) أنيس: المرجع نفسه، ص ٢٧.

(٣) سمرقند مدينة مشهورة بما وراء النهر ـ يقصد به نهر جيحون ـ بها قصور عالية شاهقة ونهور دافقة تخترق أزقتها ودورها. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠ وابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٣٩١ والقزويني: المصدر السابق، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦.

(٤) حسون، د. علي: تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، ط٣ ١٩٩٤، ص ٢٠.

(٥) آدان: تقع على ساحل بحر إيجة.

(٦) صاوروخان: تقع على ساحل بحر إيجة.

(٧) منتش: وتقع في الغرب على ساحل بحر إيجة.

(٨) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٠٣ وأنيس: المرجع السابق، ص ٣٨ والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٣٩. أنطاليا هي حصن، على شط البحر، منيع وبعدها خليج القسطنطينية. انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٠.

إن زعماء الإمارات التركية في الأناضول، الذين احتفظوا بقسط كبير من الاستقلال، قد قبلوا سيطرة بايزيد في البداية، وذلك نتيجة للأعمال العظيمة التي أنجزها في أوروبا. ولكنهم ما لبثوا أن استاؤوا من اتجاه بايزيد إلى العطف على العناصر المسيحية. لذلك ففي الوقت الذي كان فيه مشغولاً في أوروبا، اتحدت الإمارات التركمانية في جنوب غربي الأناضول مع إمارة قرمان في حلف ضد العثمانيين، أمكن علاء الدين قرمان من استرجاع مساحات كبيرة من الأراضي التي ضمّها مراد. لذلك ما إن نميت إليه أنباء الهجوم الذي شنه أمير القرمان على أملاكه في الأناضول، حتى اكتسح بايزيد إمارات آسيا(١). وعلى الرغم من أن علاء الدين قرمان اضطر لأن يتنازل عن جزء عظيم من ممتلكاته للسلطان(٢)، إلّا أنه عاد وانتهز فرصة انشغال بايزيد في حربه في أوروبا، وجهز جيشاً وقصد أنقرة، واصطدم بالعثمانيين وتغلب عليهم. فما كان من بايزيد إلّا أن خرج بنفسه لتأديب هذا الثائر، عندئذ أسرع علاء الدين بطلب الصلح، ولكن بايزيد أدرك أن عقد اتفاق معه لا طائل من ورائه، بل إنّ الفرصة قد أصبحت مؤاتية للقضاء على إمارة قرمان نهائياً. فيما يبدو أن علاء الدين وفّر على بايزيد مشقة الرحيل إلى قرمان وتوسيع خطوط مواصلاته، بأن حضر بنفسه إلى بورصة، ولما رفض بايزيد الصلح اشتبك معه وانتهى الأمر(٣) بقتله وأسر ولديه علي ومحمد، وبهذا سقطت قرمان في يد العثمانيين(٤). على أن سقوط هذه الإمارة لم يكن معناه أنها تحولت إلى بقعة عثمانية. فبالرغم من عودتها إلى الحكم بعد دخول تيمورلنك، فإن هذه العودة لم تكسبها القوة التي تميزت بها من قبل دخول العثمانيين، ومع أنها لم تعد عاملاً سياسياً فعالاً في الأناضول إلّا أنها استمرت حتى بعد سقوط القسطنطينية تقاوم سيطرة العثمانيين الكاملة على آسيا الصغرى إلى حوالي سبعين سنة تقريباً.

لمّا رأى زعماء الإمارات التركمانية في الأناضول ما حصل لإمارة قرمان جاؤوا بمفاتيح قلاعهم وهي آقسراي، نكدة، قيصرية، دولي، وقرة حصار، وسلموها لبايزيد. في عام ٧٩٨ هـ/١٣٩٦م، استولى بايزيد على إمارة برهان

---

(١) مصطفى: المرجع السابق، ص ٥١ ـ ٥٢.

(٢) طقوش: العثمانيون، ص ٤٩ وأنيس: المرجع السابق، ص ٣٨ وفريد بك: المرجع السابق، ص ٤٩.

(٣) طقوش: المرجع نفسه وأنيس: المرجع السابق، ص ٣٨ وفريد بك: المرجع السابق، ص٤٩.

(٤) القرماني: المصدر السابق، ج٢، ص ٥١١ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٤٠.

الدين في سيواس[(١)]، وهي إمارة في شمال شرقي قرمان، بناءً على طلب من أهلها، على أثر مقتل صاحبها القاضي برهان الدين على يد قرايلك، الذي قصد تيمورلنك ووقف في خدمته يرشده على الأماكن ويعرّفه بالطرق. فأرسل بايزيد إليهم، أي إلى سيواس، ولده سليمان فملكها[(٢)]، واستولى بعد ذلك على توقات، نكسار، وصامسون[(٣)]، وإمارة قسطموني، التي كانت حائلاً بين الإمارة العثمانية في آسيا الصغرى والبحر الأسود وهي آخر إمارة صغيرة في الأناضول من بقايا دولة السلاجقة. وبالاستيلاء على أهمّ مدن هذه الإمارة، وهي سينوبي، تمكن العثمانيون من الحصول على ميناء هام جداً على البحر الأسود[(٤)].

بسقوط قرمان وسيواس بأيدي العثمانيين، أصبح بايزيد مجاوراً للأراضي المملوكية الحدودية، ممّا حضّر إلى حصول مواجهة قريبة بين الدولتين[(٥)]، وأصبح التحالف بينهما عند غزو تيمورلنك أمراً صعباً للغاية.

وإذا كانت المرحلة التوسعية الأولى للعثمانيين في الأناضول قد ارتكزت على تحجيم الإمارات التركمانية مع الاحتفاظ بقسط كبير من الاستقلال، فإن بايزيد قد أدخل سياسة جديدة حين فرض سيطرته المباشرة على هذه المناطق، وطرد أسرتها الحاكمة وأخضعها لسلطته المركزية[(٦)].

إن سرعة الإطاحة بأمراء هذه الإمارات الذين كانوا قبل كل شيء مسلمين وغزاة، واستخدامه قوات غير مسلمة، مثل الفرق البلقانية والبيزنطية، أثار نقمة الغزاة والعلماء[(٧)] بالإضافة إلى أنه حاول في الأراضي التي جرى ضمّها وشيكاً في الأناضول أن يحل عبيده محل الارستقراطية المحلية، وهذه السياسة هي التي أدت إلى نكبة أنقرة. فقد حول بايزيد دولة عثمان وأرخان من دولة شبه إقطاعية إلى سلطنة إسلامية حقيقية ذات نظم تقليدية[(٨)].

---

(١) ابن سباط: المصدر السابق، ج٣، ص ٧٥٠ وأوزتونا: المرجع نفسه، ص ١٠٦.
(٢) المقريزي: المصدر السابق، ج٧، ص ٤ وابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي: أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق د. حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧١ م، ج٢، ص ١٠٧. Darraj: op. cit, P 365.
(٣) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١٦.
(٤) أنيس: المرجع السابق، ص ٣٩ والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٤٠.
(٥) Darraj: op. cit, P 365.
(٦) مصطفى: المرجع السابق، ص ٥٢.
(٧) رافق: العرب والعثمانيون، ص ٣٨.
(٨) رافق: المرجع نفسه: ص ٥٢ وطقوش: العثمانيون، ص ٥٠.



المواجهة الأولى بين المماليك والعثمانيين

بدأت العلاقة بين دولة المماليك ودولة العثمانيين على أتمّ ما تكون صفاء، لاسيما وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها في الدور الأول من حركتها التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة، وبخاصة الدولة البيزنطية، وهو أمر قوبل بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية في الشرق الأدنى.

وزاد من ذلك الشعور الودّي المتبادل بين المماليك والعثمانيين تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك[1]، ممّا حتم ضرورة الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر[2].

ففي الوقت الذي حرص فيه العثمانيون على تجميع القوى الإسلامية في الأناضول لمواجهة البيزنطيين والأوروبيين، حرصوا من جهة أخرى على توثيق العلاقات الأخوية مع المراكز الإسلامية الأخرى.

وقد حصل تبادل رسائل بين الدولتين في وقت مبكر منذ عهد أرخان بن عثمان، بدليل ما ذكره القلقشندي عن مكاتبة المماليك إلى صاحب بورصة أرخان الملقب سيف الدين[3]. وأولى خلفه مراد الأول أهمية خاصة لتوثيق علاقته بدولة المماليك، باعتبارها أقوى قوّة إسلامية أنذاك،فكانت الدولة العثمانية هي البادئة بالسعي لتأكيد الصداقة مع المماليك، أو إيجاد نوع من الروابط معهم. وقد ابتدأت العلاقات الرسمية بين الدولتين في عام ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٦ م عندما قدمت رسل مراد الأول إلى القاهرة ووعدت بتقديم سفن حربية نجدة للسلطان المملوكي على متملك قبرص[4]. وفي عام ٧٩٠ هـ/١٣٨٨ م أرسل السلطان مراد سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية ورسالة تعرض لخروج تيمورلنك من تبريز إلى سمرقند[5].

وقد حذا بايزيد الأول حذو والده في التقرب من السلطان برقوق آملاً بالتعاون في صد الخطر التيموري، فأرسل عام ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣ م موفداً إلى القاهرة، يخبر أن السلطان بايزيد قد جهز لنصرة السلطان برقوق مائتي ألف درهم،

---

(١) السيوطي: المصدر السابق، ص ٥٧١.

(٢) عاشور: المرجع السابق، ص ٣٨٤.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٥.

(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٩٣ والظاهري: المصدر السابق، ج١، ص ٣٨٥.

(٥) المقريزي: المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٠٣ والظاهري: المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٥٥.

وينتظر ما يردّ عليه من جواب السلطان ليعتمده[1]. غير أن السلطان برقوق لم يكن مرتاحاً كثيراً، ولم يستطع أن يخفي مخاوفه من ازدياد نفوذ العثمانيين وخطورتهم على مستقبل دولته.

فإغارة بايزيد على قيصرية عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩١م[2]، ضمن حركته لضم الإمارات التركمانية في آسيا الصغرى إلى دولته، والتي كانت مشمولة بحماية المماليك والقبض على حاكمها، قد جعلت برقوق قليل الثقة ببايزيد؛ فلم يتجاوب معه في عقد تحالف بينهما. ولكن تجدد خطر تيمورلنك على منطقة غربي آسيا، أجبر السلطان العثماني على الاعتذار إلى السلطان المملوكي، وبادر إلى إصلاح الأمور معه[3]. فقبل برقوق اعتذار بايزيد وأرسل إليه الأمير حسن الكجكي بهدية ليتوسط في عقد الصلح بينه وبين صاحب قيصرية[4].

إن بايزيد كان بحاجة إلى دعم دولة قوية كدولة المماليك لمساعدته في دفع الخطر التيموري[5]، لذلك استغل وساطة برقوق، وردّ عليه في السنة نفسها أي عام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣م بهدية جليلة وكتاب حذره فيه من خطر تيمورلنك، ونصحه بأن يكون متيقظاً لتحركاته، كما طلب منه طبيباً لمعالجته من مرض المفاصل وأدوية، فأجابه السلطان إلى طلبه، وأرسل إليه طبيباً ومعه الأدوية والعقاقير المطلوبة[6].

واستمر تبادل الرسائل بين السلطانين، حيث وصلت رسل بايزيد إلى القاهرة سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥م ومعها كتابان: الأول يتضمن طلب تشريف من الخليفة بأن يقلده سلطنة بلاد الروم[7]، والثاني إلى السلطان برقوق يبشره بانتصاره على الفرنج، بالإضافة إلى هدية فيها مائة أسير من الفرنج[8]. وعلى الرغم من أن برقوق أرسل الرسل معززين مكرمين، إلّا أنه لم يخف مخاوفه فقال «إني لا أخاف

(١) المقريزي: المصدر نفسه، ج٥، ص ٣٥٩.
(٢) المقريزي: المصدر نفسه، ص ٣١١. والظاهري: المصدر السابق، ص ٣٠٧.
(٣) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٤٠٠.
(٤) المقريزي: المصدر السابق، ص ٣٢٣. والظاهري: المصدر السابق، ص ٣٣٦.
(٥) حول خطر تيمورلنك على الدولة العثمانية بسبب تحالفه مع الدول الأوروبية ضدها راجع البرجاوي: المرجع السابق، ص ٤٩.
(٦) المقريزي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٤٠.
(٧) ابن سباط: المصدر السابق، ج٢، ص ٧٥٠.
(٨) طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٤٠١.

الكفار، فإن كل أحد يساعدني عليهم وإنّما أخاف من ابن عثمان[(١)]».

مهما يكن من أمر، فعقب وفاة السلطان برقوق، أخذت العلاقات بين الدولتين منحى آخر حيث بدأت بالتدهور، وتأرجحت في عهد السلطان فرج بين العدائية والودية.

في ظل الانقسامات الداخلية والاضطرابات الحاصلة في بلاد الشام عقب وفاة برقوق، والاطمئنان من ناحية تيمورلنك، الذي ذهب يقاتل في بلاد الهند بعد أن استولى على تبريز، والموصل، وماردين، وديار بكر من «القراقوينلو»[(٢)]؛ هاجم بايزيد ملطية سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ بعد أن ملك سيواس سنة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٦م وأخذها بالأمان ورفق بأهلها، واستولى على البستان، ودرندة[(٣)]، ثم تقدم إلى أرزنجان[(٤)]، وكان حاكمها موالياً لتيمورلنك.[(٥)]

إن هذا الحدث كان كافياً لتحذير المماليك من العثمانيين. إلّا أن خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين إلى كسب ودهم، بدليل أنه حين زحف تيمورلنك نحو الغرب وانتزع سيواس[(٦)]، وأضحى قريباً من الحدود المشتركة بين الدولتين[(٧)]، لم ير بايزيد حرجاً من التقرب من السلطان فرج وطلب محالفته لإقامة جبهة متحدة في وجهه؛ فأرسل بعثة وصلت إلى القاهرة عام ٨٠٢ هـ/ ١٤٠٠

---

(١) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١٩.

(٢) عبد الله بن فتح الله البغدادي الغياثي: التاريخ الغياثي، تحقيق طارق نافع الحمداني، بغداد، ١٩٧٥ ص ١٨٠ وما بعدها. القراقوينلو أو «الخروف الاسود» إمارة تركمانية نشأت قبل ظهور ألاق قوينلو بنحو نصف قرن، سكن افرادها شمال بحيرة وان، واستقرت املاكهم في بعض جهات أرمينيا وأذربيجان واتخذوا تبريز عاصمة لهم. لمزيد من المعلومات انظر الغياثي: المصدر نفسه، ص ٢٣٧ وما بعدها والقرماني: المصدر المصدر نفسه، ج٣، ص ٩١ وما بعدها.

(٣) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٩ ـ ١٠٧ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٢، ص ١٧٩.

(٤) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٠٦. أرزنجان من بلاد أرمينيا انظر القرماني: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠١.

(٥) الغياثي: المصدر السابق، ص ١٨١.

(٦) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢١٦ وابن دقماق: المصدر السابق، ص ٣١٤ والخطيب الجوهري علي بن دواود الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق د. حسن حبشي، مطبعة دار الكتب ١٩٧١، ج٢، ص ٧١.

(٧) الغياثي: المصدر السابق، ص ١٩٨.

(٨) المقريزي: المصدر السابق، ج٦، ص ٣٧.

م[1]، يحذر فرج من تيمورلنك ونيته في مهاجمة مصر، وعرض عليه إقامة تحالف بينهما، وألحّ في كتابه على اجتماع الكلمة. ولكن الأمراء في مصر رفضوا تناسي ما قام به بايزيد وقالوا «الآن صار صاحبنا، وعندما مات أستاذنا الملك الظاهر برقوق مشى على بلادنا، وأخذ ملطية من عملنا فليس هو لنا بصاحب، يقاتل هو عن بلاده، ونحن نقاتل عن بلادنا»[2].

ويعتبر هذا التصرف العدائي في هذه الظروف الحرجة قصوراً في التفكير السياسي السليم من جانب فرج وأمرائه تجاه الدولة العثمانية، لأنه أعطى فرصة ذهبية استغلها تيمورلنك بنجاح لضرب كل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على انفراد، وهي الفرصة التي لم يمكنه منها السلطان برقوق حين تبادل الرسائل مع جيرانه سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣م وتوحدت الجهود فأجبرت تيمورلنك آنذاك على تغيير استراتيجيته السياسية، فترك المنطقة ورحل نحو الهند[3].

على كل حال فإن الاحتلال العثماني لملطية لم يكن ليستوجب إثارة مثل ذلك الحقد وكانت المصلحة «تقتضي الصلح مع بايزيد بن عثمان» على حد تعبير ابن تغري بردي[4].

إن عدم اهتمام المماليك بتوحيد الجهود مع العثمانيين، لم يدفع الخطر التيموري عن بلادهم، فقد انحدر تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠١م نحو الأجزاء الشمالية لبلاد الشام بعد ما احتل ملطية ومرعش وعينتاب، ووصلت قواته إلى مدخل حلب فاحتل المدينة وأباد جيش المماليك، ثم تابع سيره باتجاه الجنوب واحتل حماه وحمص وبعلبك ودمشق ثم بغداد، تاركاً في طريقه بصمات أعمال وحشية[5].

وهكذا فبعد أن أنجز تيمورلنك ذلك الجزء من مخططه، اتجه مجدداً نحو الأناضول. ومن سيواس، التي وقف فيها يستعرض جيشه، أكمل إلى أنقرة حيث خاض على مقربة

---

(١) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٤) عن هجوم تيمورلنك على بلاد الشام انظر ابن دقماق: المصدر السابق، ص ٣١٥ والمقريزي: المصدر السابق، ج٦، ص ٣٨ إلى ٤٣ وابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٢، ص ١٣٣ وابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٢١٨ وما بعدها والغيائي: المصدر السابق، ص ١٩٨ والصيرفي: المصدر السابق، ج٢، ص ٧٢ وما بعدها والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٤٤.

Boulos: op. cit, v4, p528.

منها معركة كبيرة، هزم فيها بايزيد وأسر عام ١٠٤ هـ/ ١٤٠٢م، ودمر جيشه، وانهارت دولته(١).



إمارتا دلغادر وقرمان: عصب المواجهة

(٨٠٤ـ٨٦٨هـ/ ١٤٠٢ـ١٤٦٤م)

على أثر موقعة أنقرة، قام تيمورلنك بتقسيم تركة بايزيد، فأعاد أمراء آسيا الصغرى إلى أملاكهم السابقة، وأتاح للإمارات التي ضمها بايزيد من استرجاع استقلالها، وأطلق سراح ولدي علاء الدين بن قرمان من السجن وسلم إليهما مقاليد أبيهما(٢). كما بذر بذور الشقاق بين أبناء بايزيد المتنازعين على الحكم والذي استمر نزاعهم أحد عشر عاماً حتى انفرد بعرش السلطنة محمد شلبي (٨١٦ـ ٨٢٤ هـ/ ١٤١٤ ـ ١٤٢١م)، الذي أعاد تنظيم الدولة بعد فجوة السبات، لتبدأ الانطلاقة من جديد.

عقب غزو تيمورلنك لبلاد الشام والأناضول، والذي تمخّض عنه حصول فوضى سياسية في كل من الدولتين المملوكية والعثمانية، فتح فصل جديد في تاريخ العلاقات بينهما. فبالرغم من أن السلطان محمد الأول قد أدرك أن مهمته ليست الغزو والتوسع بل الاستقرار لتقوية الدولة وتنظيمها حتى تسترجع قوتها، إلّا أنه ونتيجة ضعف النفوذ العثماني في الأناضول كأثر من آثار غارة تيمورلنك، أن قام أمير قرمان محمد بك بن قرمان بغزو الأراضي العثمانية(٣)، فاضطر السلطان

---

(١) عن هجوم تيمورلنك على بلاد السلطان العثماني انظر ابن دقماق: المصدر نفسه، ص ٣٣٦ والمقريزي: المصدر نفسه، ص ٨١ ـ ٨٢ وابن حجر العسقلاني: المصدر نفسه، ص ٢٠٧ وما بعدها وابن تغري بردي المصدر نفسه، ص ـ ٢٦٧ ـ ٢٦٨ ـ ٢٦٩ والغياثي: المصدر نفسه، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ والصيرفي: المصدر نفسه، ص ١٤٩ والقرماني: ج٢، ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١١١ وبروكلمان: المرجع السابق، ص ٤٢ ومابعدها .Boulos, ibid, p530 - 531.

(٢) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج١٢، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ وأوزتونا: المرجع نفسه، ص ١١٢ ومابعدها والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٤٨ ـ ٥٣.

(٣) الظاهري، زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين: نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق د. عمر تدمري، المكتبة العصرية ط١، ٢٠٠٢م، ج٣، ص ٢٦٢. وابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م، ج٢، ص ١٠ والحنفي: المصدر السابق، ص ٢٢١.

محمد الأول إلى محاربته ومع أنه انتصر على خصمه[١]، إلّا أنه لم يشأ أن يتبع سياسة عدائية تجاهه واكتفى بولائه وطاعته[٢].

لقد هدف محمد الأول من خلال سياسة الرفق والحلم التي اتبعها مع أمير قرمان إلى تحقيق هدفين أساسيين:

١ ـ عدم إثارة التيموريين ـ شاه رخ ابن تيمورلنك[٣] ـ من خلال توسعه باتجاه الشرق.

٢ ـ المحافظة على علاقات الصداقة مع المماليك، الذين أصروا على اعتبار إمارة قرمان تابعة لنفوذهم.

وبموجب هذه السياسة تجددت علاقات الصداقة والودّ، بين الدولتين العثمانية والمملوكية، ففي عام ٨١٩ هـ/ ١٤١٦م وصل إلى القاهرة موفد من السلطان محمد الأول حاملاً هدية فاخرة، فأكرمه السلطان المملوكي وأحسن وفادته وجهزه بهدية[٤].

وكدليل على محافظة السلطان العثماني على الصداقة والود مع المماليك فإنه لم يلتفت إلى الرسالة التي أرسلها شقيقه سليمان ـ الذي كان ينازعه على الحكم ـ إلى السلطان المملوكي، والتي وصلت سنة ٨١٩ هـ/ ١٤١٦م[٥]، وتضمنت طلب المساعدة منه لحل مشاكله الداخلية.[٦]

ولكن الأوضاع بدأت تأخذ منحى آخر عندما بدأت الأناضول تسترعي نظر السلطان المملوكي المؤيد من جديد.

ففي العام ٨٢٠ هـ / ١٤١٧م، خرج السلطان المؤيد لتمهيد البلاد الشمالية، حيث حاول أمراء قرمان ودلغادر الإفادة من النصر الذي حققه تيمورلنك في بلاد الشام والأناضول لحل ارتباطهم بعرى التابعية لمصر، فكانت بعض المعارك الظافرة كافية لإعادة أولئك إلى جادة الصواب، ومد حدود الدولة المملوكية أبعد نحو الشمال[٧]. فقد أخضع السلطان المؤيد محمد بك بن قرمان لنفوذه، واسترد منه

---

(١) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٥ ـ ١٣٣ والظاهري: المصدر نفسه، ص ٢٧٨ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ١٩ والحنفي: المصدر نفسه، ص ٢٢١.

(٢) فريد بك: المرجع السابق، ص ٥٣.

(٣) الغيائي: المصدر السابق، ص ٢١٦ وما بعدها.

(٤) الظاهري: المصدر السابق، ص ٣١١ وابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨.

(٥) المقريزي: المصدر السابق، ج٦، ص ٤١٨.

(٦) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٤٥٠.

(٧) Boulos: op. cit, p532 - 533.

طرسوس، التي كان قد استولى عليها، وعين عليها نائباً مملوكياً[١]، ثم توجه إلى جهة البستان للقبض على ناصر الدين محمد بن دلغادر، الذي فر داخل البلاد إلّا أنه لم يلبث أن سأل العفو على أن يسلم قلعة درندة فأجيب إلى ذلك[٢]، وخلع عليه السلطان نيابة البستان[٣].

إن أمراء دلغادر قد شعروا منذ البداية بتعاظم نفوذ الدولة العثمانية، لذلك نجحوا في إقامة تحالفات معها ارتكزت أساساً على الزواج، حيث زوج سولي بن دلغادر ابنته الصغرى من محمد شلبي[٤]. وعندمقتل سولي، غيلة بقرار من السلطان برقوق، تولى مكانه ناصر الدين محمد بدعم من العثمانيين، فوقع خلاف بينه وبين ابن عمه؛ الذي ولاه السلطان المملوكي؛ صراعاً عظيماً[٥]. وفي عام ٨٠٤ هـ/ ١٤٠١م وبعد انسحاب تيمورلنك من المنطقة فإن ناصر الدين محمد قد تحالف مع محمد شلبي وساعده في قتال أخيه موسى[٦].

إن هذا التقارب الحاصل بين أمراء دلغادر والعثمانيين قد أثار حفيظة المماليك تجاه هذه الإمارة. لذلك وانطلاقاً من هذا يمكن القول إنّ طاعة الأمير ناصر الدين محمد للسلطان المؤيّد قد أزاحت الضباب الذي كاد يخيم على العلاقات المملوكية ـ العثمانية.

من جهة محمد بن قرمان، فقد عاد مجدداً لمشاقة المماليك، فحاصر طرسوس وانتزعها من نواب المؤيد، فكان ذلك دافعاً لتجهيز حملة عسكرية بقيادة إبراهيم ابن السلطان المؤيد، الذي استطاع أخذ المدينة بالقوة عام ٨٢٢ هـ / ١٤١٩م، ثم أعقب ذلك فتح للبلاد القرمانية ونازل لارندة وهي قاعدتها، ووصل إلى قيصرية وهي أعظمها وقرر في نيابتها ناصر الدين محمد بن دلغادر[٧]، ثم عاد

---

(١) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٣، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ـ ١٣٠ وابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ١٤، ص ٤٨ ـ ٥١ والصيرفي: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٨٩.

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ وابن حجر العسقلاني: المصدر نفسه، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ـ ١٣٠ وابن تغري بردي: المصدر نفسه، والصيرفي: المصدر نفسه، ص٣٩٠.

(٣) المقريزي: المصدر نفسه، ص ٤٤١ وابن حجر العسقلاني: المصدر نفسه، ص ١٣٢ وابن تغري بردي: المصدر نفسه، ص ٥٠ ـ ٥١.

(٤) دهمان: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٥) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠١.

(٦) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٤٤٧.

(٧) المقريزي: المصدر السابق، ج٦، ص ٤٩٨ وبدر الدين العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق فهيم شلتوت ود. محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب=

إلى قونية ورتب أوضاعها وعين علي بك بن قرمان؛ الذي كان في خدمة ابن السلطان والذي كان المسير من أجله؛ في مملكة أخيه محمد.

ولكن ما إن انسحب المماليك، حتى حاول محمد بن قرمان استعادة قيصرية فهاجمها، إلّا أن ناصر الدين محمد بن دلغادر هزمه وقتل ابنه مصطفى، وأسر محمد وأرسله سجينا إلى القاهرة[(١)].

إن التوسع المملوكي في الأناضول وخاصة في الفترة التي كان فيها محمد الأول مشغولا، كثير الاهتمام بما وراء البوسفور[(٢)]، قد أثر على العلاقات المملوكية ـ العثمانية. وشكل سقوط قيصرية بيد المماليك، نقطة تحوّل هامة في هذه العلاقات[(٣)]، التي اتسمت في ذلك الدور بحدوث صراع غير مباشر بين الدولتين، اتخذ شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم في الإمارات التركمانية.

فالعثمانيون أيدوا إبراهيم بك، أحد أبناء محمد بك بن قرمان، الذي طلب مساعدتهم ضد أخيه علي بك، الحليف الضعيف للمماليك. وكردّ مملوكي على هذه الخطوة قام السلطان ططر سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١م، بعد موت السلطان المؤيد، بإطلاق سراح محمد بن قرمان من سجن القاهرة[(٤)]، وأعاده إلى مملكته[(٥)].

انتهج محمد بن قرمان فور تولية الحكم سياسة عدائية تجاه السلطان مراد الثاني، حيث وقف إلى جانب البيزنطيين في دعم شقيقه الأصغر مصطفى، وحمله

= العربي، القاهرة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ص ـ ت ـ والظاهري: المصدر السابق، ج٤، ص ٣١ وابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٧.

(١) المقريزي: المصدر نفسه، ص ٥٠٧ وابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٣، ص ١٩٠ ـ ١٩٨ وابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ١٤، ص ٨٨ ـ ٩٢ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٨ ـ ٥١ وشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق د. بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني ود. أحمد الحطيمي، الرسالة، ط١، ١٩٩٥، ج٢، ص ٤٤٥ والصيرفي: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣٦ وما بعدها.

(٢) موير: المرجع السابق، ص ١٤١.

(٣) Darraj: op. cit, p 6 - 7 - 368 - 369.

(٤) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٢ والقرماني: المصدر السابق، ج٢، ص ٥١٢.

(٥) ابن حجر العسقلاني: المصدر نفسه، ص ٢٤١ وابن تغري بردي: المصدر السابق، ج١٤، ص ١٨٠ والقرماني: المصدر نفسه، ص ٥١٢.

على الخروج على أخيه[١]، إلّا أن السلطان العثماني نجح في إخماد هذه الفتنة بسرعة فقتل شقيقه مصطفى وأغار على إمارة قرمان واستردها بعد أن قتل أميرها محمد بن قرمان[٢]، وعين إبراهيم ابن هذا الأخير والياً عليها مقابل تنازله للسلطان مراد الثاني عن إمارة الحميد[٣]، وزوّجه السلطان أخته وصار بينهما اتحاد. وقد تسنى لمراد في تلك الفترة استعادة جميع الإمارات التي أقدم تيمورلنك وقتذاك على فصلها عن الدولة العثمانية في الأناضول[٤].

ومع هدوء الجبهة في قرمان عادت وتحسنت العلاقات المملوكية العثمانية في عهد السلطان الأشرف برسباي. وبسبب التعرض لخطر شاه رخ ابن تيمورلنك، أرسل مراد الثاني بعثة في عام ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٤م إلى القاهرة لتهنئة برسباي باعتلائه العرش ومعها هدية[٥]. وردّ السلطان المملوكي على الهدية بأحسن منها بما يناسب مقام السلطنة المملوكية[٦]. وتوالت الوفود بعد ذلك، ففي عام ٨٣٠ هـ وصل إلى القاهرة، وفد السلطان العثماني ومعه هدية فاخرة وطلب استئذان في الحج[٧]، ثم أرسل سفارة عثمانية عام ٨٣١ هـ / ١٤٢٨م لتهنئة الأشرف برسباي بانتصاره النهائي في جزيرة قبرص، واحتفل السلطان المملوكي لقدومهم[٨]. واستمرت العلاقات الجيدة بين الدولتين ناشطة حتى عام ٨٣٦ هـ / ١٤٣٣م عندما استقبل برسباي، وكان في حلب، اثنين من أبناء شقيق السلطان العثماني، وهما سليمان وشاه زادة الهاربين، فأكرمهما واصطحبهما معه إلى القاهرة[٩] وقد رفض تسليمهما لمراد الثاني، الذي أرسل بطلبهما غير مرة.

وفيما يتعلق بالقرمانيين، يبدو أن إبراهيم بن قرمان عاد إلى السياسة القرمانية العدائية القديمة تجاه العثمانيين. ففي سنة ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٥م تعاون مع ملوك أوروبا

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج٧، ص ٦٩ وإبراهيم بك حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية. ط١، ١٩٨٨، ص ٥٦ ـ ٥٧.
(٢) المقريزي: المصدر نفسه، ص ٧٧ ـ ٨٩ والظاهري: ج٤، ص ١٢٦ ـ ١٣٠.
(٣) الظاهري: المصدر نفسه وفريد بك: المرجع السابق، ص ٥٥.
(٤) القرماني: المصدر السابق، ص ٥١٢.
(٥) المقريزي: المصدر السابق، ص ٩٢.
(٦) طقوش: تاريخ المماليك في مصر بلاد الشام، ص ٤٨٣.
(٧) ابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ١١٤.
(٨) المقريزي: المصدر السابق، ج٧، ص ١٧٥.
(٩) المصدر نفسه، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ وابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج٢، ص ٥٥٩ ـ ٥٦٠.

على معاداة السلطان مراد الثاني، فما كان من هذا الأخير إلّا أن هاجمه وشتت شمل أعوانه، فطلب عندئذ إبراهيم منه الأمان والعفو. وعلى الرغم من أن السلطان عفا عنه وردّ له بلاده[١]، إلّا أن إبراهيم ترامى بعد ذلك على السلطان المملوكي بأن يملكه قيصرية، وكانت بيد ناصر الدين بن دلغادر، ووعد بدفع مبلغ كبير للسلطان، الذي وافق من جانبه على مساعدته في الإستيلاء على المدينة[٢].

قلق العثمانيون من الدعم العسكري المملوكي لقرمان ومن تعاظم نفوذ هذه الإمارة، وكرد عثماني على ذلك قدم مراد الثاني الملجأ لجاني بك الصوفي، المخامر على السلطان المملوكي، والمؤيد من قبل ناصر الدين محمد بن دلغادر[٣].

ونتيجة لذلك توترت العلاقات المملوكية العثمانية، ففي العام ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م استنجد ناصر الدين محمد بن دلغادر بالسلطان مراد الثاني على إبراهيم بن قرمان، الذي أخذ قيصرية، ونازل صاحب أماسيا وهو من حاشية السلطان العثماني، فجهز مراد الثاني عسكراً لمحاصرة قيصرية وتسليمها إلى ابن دلغادر، وجهز عيسى، شقيق إبراهيم، على عسكر آخر ليغير على بلاد أخيه. وعندما بلغ السلطان المملوكي ذلك كتب إلى أمراء الطاعة من التركمان بمعاونة إبراهيم بن قرمان، بل أمر نواب الشام بالتوجه لنجدته، بعد أن كان السلطان همّ بالسفر بنفسه[٤].

ولم تهدأ الأوضاع وتستقر العلاقات بين الدولتين إلّا بعد أن قُتل جاني بك الصوفي وهزم ناصر الدين محمد بن دلغادر[٥] والتزم الطاعة، وعقد الصلح بين السلطان العثماني وإبراهيم بن قرمان في نهاية العام ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م[٦]. ففي عام ٨٤٣ هـ/ ١٤٣٩م وصل ناصر الدين محمد بن دلغادر إلى القاهرة طائعاً، فبالغ السلطان المملوكي جقمق بإكرامه وأنعم عليه، وتزوج ابنته التي كانت زوجة لجاني بك الصوفي[٧].

ومع هدوء الجبهة في إمارة دلغادر وقرمان، عادت وتحسنت العلاقات

---

(١) الظاهري: المصدر السابق، ج٤، ص ٣٧٨ وحليم: المرجع السابق، ص ٥٨.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٦١ ـ ٦٢ ـ ٦٣ .Darraj: op. cit, p393
(٣) الظاهري: المصدر السابق، ج٤، ص ٤١٣ وابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ١٧٥ .Ibid, p 393
(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج٧، ص ٣٢٧ ـ ٣٣٢ ـ ٣٣٥ والظاهري: المصدر نفسه، ج٤، ص ٤١٩ والسخاوي: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٤٧.
(٥) المقريزي: المصدر نفسه، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ ـ ٣٦٦ وابن تغري بردي: النجوم، ج ١٥، ص ٨٨.
(٦) المقريزي: المصدر نفسه، ص ٣٣٦ والسخاوي: المصدر السابق، ص ٥٤٨.
(٧) السخاوي: المصدر نفسه، ص ٥٦٧.

المملوكية العثمانية وازدادت أواصر الصداقة بين الدولتين، ففي عام ٨٤٣ هـ/ ١٤٤٠م وصلت إلى القاهرة رسل مراد الثاني حيث قدّموا هديته وهي عشرة مماليك وثياب حرير وغير ذلك ممّا تبلغ قيمته نحو خمسة آلاف دينار، ورسالة تضمنت التهنئة للسلطان جقمق بجلوسه على العرش(١)، وردّ السلطان المملوكي على الهدية بهدية فاخرة(٢). ولتمتين أواصر الصداقة، تزوج جقمق من الأميرة شاه زادة، أرملة برسباي(٣).

بعد ست سنوات على الهدنة بين العثمانيين والقرمانيين، فإن إبراهيم بن قرمان المتعاون مع القوى الأوروبية ضد الدولة العثمانية، انتهز عام ٨٤٦ هـ/ ١٤٤٣ فرصة هزيمة العثمانيين مرتين أمام الجيش الصليبي(٤)، وأظهر ما في ضميره من السوء ضد الدولة العثمانية فأرسل صهره حسن بك لتخريب ممالك الدولة. فغضب السلطان مراد الثاني وتوجه إليه، فهرب إبراهيم، وأخذ السلطان بلاده، إلّا أن زوجته أخت السلطان توسطت في العفو عنه فرد السلطان إليه بلاده. وقد ظهر لمراد الثاني اتفاق إبراهيم هذا مع القوى الأوروبية الصليبية لمحو الدولة العثمانية على أن تكون جهة الروملّلي لهم والأناضول له(٥).

إن سياسة اللين تجاه القرمانيين قد شجعتهم على معاودة التهديد كلما سنحت الفرصة لهم، لذلك وبعد توقيع معاهدة الصلح بين مراد الثاني والقوى الأوروبية(٦)، التفت السلطان العثماني إلى القرمانيين، وشنّ هجوماً على إبراهيم بن قرمان بعد أن استحصل من علماء مصر على فتوى تعلن للعالم الإسلامي وخاصة إلى شاه رخ، خليفة تيمور، شرعية حملته هذه، وكانت حجة العثمانيين أن الأسرة الحاكمة في قرمان قد تعاونت مع القوى المسيحية(٧).

من جهة أخرى، حرص السلطان العثماني على تبادل المراسلات والسفارات والهدايا مع دولة المماليك. ففي سنة٨٤٨ هـ/ ١٤٤٤م وعقب انتصاره عل تحالف

---

(١) خبر الرسل في المقريزي: المصدر نفسه، ص ٤٥٠. والظاهري: المصدر السابق، ج٥، ص ١١٥ وابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٣.
(٢) ابن إياس: المصدر نفسه.
(٣) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ٤٦٤ وحوادث الدهور، ج٢، ص ٥٦٠.
(٤) حليم: المرجع السابق، ص ٥٩.
(٥) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٢٤ وحليم: ص ٥٩ ـ ٦٠. الروملّلي هي البلقان ـ أوروبا الشرقية وملحقاتها.
(٦) فريد بك: المرجع السابق، ص ١٥٧.
(٧) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٢٥.

أوروبي في معركة فارنا[1]، أراد مراد الثاني إظهار حرص العثمانيين على جهاد الأوروبيين أمام الرأي العام الإسلامي «بقصد إدخال السرور على المسلمين «على حد تعبير السخاوي[2]، فأرسل هدية إلى السلطان المملوكي ضمت عدداً كبير من الأسرى[3]. وقد حرص السلطان مراد الثاني على توثيق علاقته مع إمارة دلغادر فزوج ولده محمد من ابنة سليمان بك بن ناصر الدين عام ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩م رغبة في أن يكون هذا التحالف موجها ضد كل من إبراهيم بن قرمان[4]، «والقراقوينلو»، الذين طالما هددوا حدود دولته الشمالية الشرقية، وخاصة بعد موت شاه رخ، وبسبب حروبهم المتواصلة مع «ألاق قوينلو»[5].

وبعد تولية محمد الثاني العرش سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م استمرت العلاقات الحسنة بين المماليك والعثمانيين، ففي العام نفسه توجه موفد من عند السلطان العثماني إلى السلطان المملوكي لإعلامه بتوليه العرش بعد أبيه، وقد عاد الموفد مرافقاً من قبل موفد مملوكي حاملاً التهنئة للسلطان الجديد[6].

إن تولية محمد الثاني الحكم قد أثارت رغبات قديمة عند القرمانيين الذين اعتبروا خطأً أنه عديم المقدرة والمواهب، بسبب أن والده نحاه عن القيادة عندما اشتد الخطر في معركة فارنا، ليتولاها هو بنفسه. ففي الحال حاول أمير قرمان، شأنه كلما رقي العرش سلطان جديد تقريباً، أن يخلع طاعة العثمانيين، وقد قام بهذا العمل بتحريض من البيزنطيين[7]، وحرك أيضاً أمراء كرميان ومنتش وآيدين، فهجموا على كوتاهية وما حولها. فجهز عندئذ السلطان العثماني حملة عسكرية نجحت في إخضاع ابن قرمان، الذي التمس العفو منه، فعفا عنه. وجعل السلطان، مقر أمير الأمراء، في كوتاهية بدلا من قونية لقربها من الحدود، ولمنع تعدي أولاد قرمان وكرميان المذكورين[8].

---

(١) حول انتصار العثمانيين في فارنا انظر أوزتونا: المرجع نفسه، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٦٩. فارنا مدينة تقع على البحر الأسود.
(٢) السخاوي: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٩٥.
(٣) الظاهري: المصدر السابق، ج٥، ص ١٩٦ وابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية: ج٩، ص ٤٠٠.
(٥) حول تاريخ «ألاق قوينلو» انظر الغيائي: ص ٣٧٢ وما بعدها والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٩١ وما بعدها.
(٦) السخاوي: المصدر السابق، ج٢ ص ٦٥٨.
(٧) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ وطقوش: العثمانيون، ص ٨٨.
(٨) أوزتونا: المرجع نفسه، ص١٢٩ وحليم: المرجع السابق، ص٦٤.

عام ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م وهي السنة التي تولى فيها الأشرف إينال السلطة في دولة المماليك، فتح السلطان محمد الثاني مدينة القسطنطينية، وقد وردت رسله إلى القاهرة وعلى يدهم كتاب بهذا الفتح وبعض هدايا إلى السلطان المملوكي، الذي خلع بدوره على القاصد ورسم بكتابة جواب وتهنئة بهذا الفتح العظيم، وعم السكان الفرح[١].

والواقع أن الاحتفالات التي أقيمت في هذه المناسبة في القاهرة كانت في حقيقة أمرها توطئة للنفوس لتقبل الزعامة التركية العثمانية الناشئة. فمنذ سنوات لم تحرز دولة إسلامية انتصاراً مدوياً كهذا. وتدليلاً لحرص السلطان إينال على استمرار هذه العلاقة الودية، فإنه لم يلتفت إلى شكاية الأمير إبراهيم بن قرمان، والتي وصلت إلى القاهرة عام ٨٥٩ هـ/ ١٤٥٥م من تدخل السلطان العثماني محمد في شؤون إمارته[٢].

لقد ساهم موقف السلطان المملوكي السلبي من أمير القرمان بتوطيد دعائم العلاقة مع العثمانيين. ففي عام ٨٦٠ هـ/ ١٤٥٦م وصل إلى القاهرة موفد من السلطان العثماني حاملاً معه رسالة تتضمن الكثير من الإطناب والتفخيم وهدية تشتمل على ثلاثين مملوكاً وأشياء أخرى. ورد السلطان المملوكي على الرسالة بجواب يتضمن الإشادة بجهاد السلطان العثماني، ووصفه بأنه عضد أمير المؤمنين، وأرسل هدية لتوثيق عرى الصداقة والاتحاد بين الدولتين[٣].

وكردّ من جهة إبراهيم بن قرمان على الموقف المملوكي تجاهه، أظهر العصيان وزحف عام ٨٦٠ هـ/ ١٤٥٦م على ممتلكات السلطان إينال، واستولى على طرسوس وأدنة وكولك[٤]، فعين السلطان المملوكي حملة عسكرية لتأديب ابن قرمان، خرجت بعد انتهاء فصل الشتاء[٥]، وخربت غالب بلاده[٦]. وكان إبراهيم قد هرب من أرض

---

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص ٤٥٣ والنجوم الزاهرة، ج١٦، ص ٧٠ ـ ٧١ والظاهري: ج٥، ص ٤٠٧ وابن إياس: ج٢، ص ٣١٦ والقرماني: ج٢، ص ٣١٤ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٣١ وما بعدها.

(٢) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ص ٥١٦ والظاهري: المصدر نفسه، ص ٤٣٠ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٣٢٢.

(٣) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ص ٥٧٤ وما بعدها.

(٤) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ص ٥٩٠ والنجوم الزاهرة، ج١٦، ص ٩٧ والظاهري: المصدر السابق، ص ٤٦٢.

(٥) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص ٥٩٠ ـ ٥٩٢ والظاهري: المصدر نفسه.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ١٠٦ ـ ١٠٩ وابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

المعركة وتحصن في مكان منيع[1]، وبقي فيه إلى أن أرسل بعد بضعة أشهر رسالة إلى السلطان المملوكي فيها الكثير من الترقق والاستعطاف، وبانه داخل في طاعته ويعتذر عما بدر منه، وقد قبل إينال اعتذاره وعفا عنه[2].

بعد فتح القسطنطينية[3]، تبدلت الأوضاع وطويت صفحة العلاقات الحسنة بين الدولتين المملوكية والعثمانية، وفتحت صفحة جديدة سادها العداء بفعل تصادم المصالح.

فتبادل البعثات ومظاهر الاحتفالات لهذا الفتح كانت على ما يبدو آخر مظهر من مظاهر الوفاق المملوكي العثماني[4]. إذ في هذه المرحلة كانت الدولة العثمانية قد توسعت في الأناضول والجزيرة الفراتية شمالاً حتى البحر الأبيض المتوسط جنوباً، وجبال طوروس وفي الوقت نفسه كانت دولة المماليك قد سيطرت على كيليكيا[5]. ومع حرص العثمانيين على استمرار تعزيز الروابط مع المماليك، إلا أن هؤلاء بدأوا يقابلون بشيء من الفتور تنامي العلاقات بين الدولتين، بعد ما شعروا بتعاظم شعبية العثمانيين بين المسلمين نتيجة فتح القسطنطينية، كما لاحظوا بقلق شديد بروز دولة إسلامية قوية أخذت تنمو على حدودهم وتشق طريقها الخاص بها.

فتبدلت نظرتهم إليهم من مشاعر الاعتزاز إلى مشاعر الغيرة، ثم أضحى الصراع على الهيمنة على زعامة العالم الإسلامي السبب الرئيسي للنزاع المملوكي العثماني. وتمثل أول اختبار علني لهذا التنافس بفضيحة ديبلوماسية عام ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٤م في عهد السلطان خشقدم، عندما رفض السفير العثماني الانحناء أمام السلطان المملوكي في القاهرة، فغضب منه السلطان ولم يخلع عليه وكاد أن يقتله لولا أن منعه الأمراء من ذلك. وكان «هذا سبباً لوقوع العدواة بين سلطان مصر وبين ابن عثمان واستمرت الوحشة عمالة بينهما إلى دولة الأشرف قايتباي» على حد تعبير ابن إياس[6].

(١) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٩ والسخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص ٧٠٣ والظاهري: المصدر السابق، ص ٤٦٤ وابن إياس: المصدر السابق، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

(٣) بعد أن فتح محمد الثاني القسطنطينية واتخذها عاصمة لدولته استبدلها اسماً جديداً هو إسطنبول أو إستانبول أو إسلامبول ومعناها دار الإسلام. حول تاريخ القسطنطينية انظرجاويش: تاريخ القسطنطينية، ص ١ وما بعدها.

(٤) إيفانوف نيقولاي: الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤، ترجمة يوسف عطا لله مراجعة د. مسعود ضاهر، دار الفارابي بيروت، ط١، ١٩٨٨ ص ٤٠ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٥٩.

(٥) أوزتونا: المرجع نفسه، ص ١٩٠ وطقوش: تاريخ المماليك، ص ٤٨٦.

(٦) الظاهري: المصدر السابق، ج٥، ص ١٩٠ ـ ١٩١ وابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢٠.

الصراع على إمارتي القرمان ودلغادر
(٨٦٨هـ-٨٨٦هـ) (١٤٦٤-١٤٨١م).

كان من الطبيعي أن تتأزم العلاقات بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية بسبب متاخمة أراضيهما واصطدام مصالحهما في مناطق شرق الأناضول وجنوبه، منذ أن بدأ العثمانيون يولون اهتمامهم إلى ما تبقى خارجاً عن السيادة العثمانية من إمارات في آسيا الصغرى، فصار لا بد لإحدى هاتين القوتين من أن تنتصر على منافستها وتستأثر بزعامة المسلمين في تلك المنطقة. وقد وجدت عدة مناسبات للإحتكاك بين الدولتين في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، فصراع الأخوة الحاكمين في إمارتي دلغادر وقرمان الواحد ضد الاخر، والتي وجدت مشجعاً لها في موقع الإمارتين الستراتيجي بين المماليك والعثمانيين، كانت دافعاً للتنافس بين سلطان المماليك وسلطان العثمانيين، وقد ظهر ذلك بوضوح عندما توفي أميراً قرمان ودلغادر، حيث قامت الدولة العثمانية بمناصرة أميرين غير من قامت دولة المماليك بتأييدهما.



الغزو العثماني لإمارة القرمان
(٨٧٠-٨٧٤هـ) (١٤٦٦-١٤٧٠م)

قبل وفاته بفترة قصيرة، أوصى إبراهيم بن قرمان بالحكم إلى أحد أولاده وأسمه إسحاق[1]. ولكون أمه أم ولد، فما إن تولى الحكم عام ٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م، حتى نازعه عليه اخوته من أبيه، فوقع الشقاق والخلاف بينهم[2]، وتوجه الأخوة إلى ابن عمتهم السلطان محمد الثاني حيث قام بنصرتهم[3]، فحارب إسحاق وانتصر عليه وأجبره على الهرب إلى بلاد الشرق،

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ والسخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص ٧٧٩ والضوء اللامع، ج ١، ص ٢٧٦.
(٢) فريد يك: المرجع السابق، ص ٦٤.
(٣) السخاوي: وجيز الكلام، المصدر السابق وابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢٦.

حيث التجأ عند أوزون حسن، وولى مكانه أكبر إخوته الأمير أحمد[١].

فيما يبدو أن هذه التركة المتنازع عليها داخلياً قد أوجدت المناخ الملائم لتدخل جيران قرمان الأقوياء في شؤونها والتنافس فيما بينهم.

فأوزون حسن، زعيم «ألاق قوينلو»، الذي وجد في هذه الفرصة مناسبة له لكبح جماح التوسع العثماني في آسيا الصغرى، وخاصة بعد سقوط مملكة طرابزون الواقعة شمالي الأناضول سنة ٨٦٥ هـ / ١٤٦١م بيد السلطان العثماني، والتي جمعته مع صاحبها مصلحة مشتركة هي كراهيةالعثمانيين والتي كان لها خير حليف ونصير[٢]، قدم دعماً عسكرياً لإسحاق، الذي انتهز فرصة انشغال السلطان محمد الثاني في حربه في أوروبا وقام بهجوم على قونية ونجح باسترداد ما أوصى به إليه أبوه من البلاد[٣]، وأقام الخطبة للسلطان المملوكي خشقدم.

إن التنافس بين أوزون حسن والعثمانيين قد حدا به أن يكون لبقاً في الوقت نفسه مع سلطان مصر، فأرسل إليه رسالة وصلته في ربيع الأول ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٥م تضمنت شرحاً لما قام به في قرمان، من أنه سار نجدة إلى إسحاق لما تحارب مع اخوته، فكسرهم، وفروا منه إلى بلاد السلطان العثماني، وأخذ منهم عدة قلاع[٤]. وعلى الرغم من سرور السلطان المملوكي لهذا الخبر، إلّا أنه لم يكن مرتاحاً كثيراً، نظراً للأخبار التي وردته والتي أفادت بأن أوزون حسن قد استولى على قلعة كركر[٥]، الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الفرات جنوب شرقي ملطية[٦].

ولمواجهة هذا الاعتداء، كان لا بدّ للسلطان المملوكي من إعادة إصلاح

---

(١) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٥١٢. اوزون حسن يعرف ايضا في المصادر العربية بحسن الطويل.

(٢) تمتنت اواصر الصداقة بينهما بالمصاهرة حيث تزوج أوزون حسن من كاترين ابنة صاحب طرابزون، راجع فيما يتعلق بذلك كارل بروكلمان: الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط٨، ١٩٧٩، ص ٤٣٧. حول سقوط طرابزون انظر أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) فريد بك: المرجع السابق، ص ٦٤.

(٤) الظاهري: المصدر السابق، ج٦، ص ٢٠٤ وابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢٦.

(٥) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج١٦، ص ٢٨٨ والظاهري: المصدر نفسه، ص ٢٠٦ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٢٧.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية: ج٣، ص ١٤٧. في عام ٨٦٨ هـ استولى الكرد على قلعة كركر فأرسلوا مفاتيحها إلى أوزون حسن.

العلاقات مع العثمانيين، والتي ساءت في شعبان ٨٦٨ هـ / ١٤٦٤م، بسبب حنق السلطان المملوكي على القاصد العثماني الذي لم يقبل الأرض عندما وقف بين يدي السلطان، وكاد أن يفتك به[(١)].

فأرسل خشقدم في جمادي الأولى موفداً له إلى السلطان العثماني هو السيد الشريف نور الدين علي الكردي، عارضاً عليه إقامة تحالف مملوكي عثماني ضد أوزون حسن[(٢)].

وعلى الرغم من أن أوزون حسن قد سلم مفاتيح قلعة كركر لأتابك حلب إينال الأشقر، إلّا أن حصول التحالف مع العثمانيين كان أمراً ضرورياً بالنسبة للمماليك، وخاصة بعد أن تحققت شكوك السلطان خشقدم بنوايا أوزون، عندما وردته إلى القاهرة في صفر٨٦٩ هـ/ ١٤٦٥م أخبار أقلقته وأفادت بأن أوزون حسن قد زحف على ممتلكات أصلان دلغادر، فدخل البستان ونهبها وأخرب غالبها ثم استولى على خربوت[(٣)].

أما فيما يتعلق بالرد العثماني على حصول هذا التحالف فقد كان سلبياً، فالقاصد المملوكي الذي عاد إلى القاهرة في ربيع الأول ٨٧٠ هـ / ١٤٦٦م ذكر للسلطان «عدم الإنصاف له من ابن عثمان»[(٤)]. ذلك أن السلطان محمد الثاني، الذي رفض تولية اسحاق، والذي ساءه من قبل أن يهان قاصده، لم يكن ليقبل بإصلاح العلاقات في هذه الفترة.

في ظل هذه الظروف المتردية بين الدولتين المملوكية والعثمانية، قرر إسحاق إصلاح العلاقات مع العثمانيين، فأرسل موفداً له إلى إسطنبول للحصول على اعتراف من السلطان محمدالثاني بتوليه الحكم، ولكن هذا الأخير طلب منه لقاء حصول ذلك، التنازل له عن قسم كبير من الأراضي القرمانية وإعادة الحدود إلى ما كانت عليه زمن بايزيد الأول.

وأمام رفض إسحاق[(٥)]، قدم السلطان العثماني المساعدة العسكرية للأمير أحمد، الذي نجح في شن هجوم على أخيه أسفر عن مقتله، وتملك بلاد قرمان، واستقر من جديد في قونية، وأقام الخطبة بها للسلطان العثماني[(٦)].

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ص ٤٢٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٢٧.
(٣) الظاهري: المصدر السابق، ج٦، ص ٢٥٥ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٣٠ ـ ٤٣٣.
(٤) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٢٢٦ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٣٤.
(٥) Shai, Har - El: op. cit, p 83.
(٦) الظاهري: المصدر السابق، ص ٢١٢ ـ ٢١٧ وابن إياس: المصدر السابق، ص ٤٣٠.

من جهة المماليك وظاهرياً على ما يبدو، ووفقاً لما أورده الظاهري وابن إياس، فإنهم تصرفوا بشكل سلمي إزاء التدخل العثماني في قرمان، ولم يتخذوا أية إجراءات عسكرية لمواجهتهم[١].

على أنه مهما يكن من أمر، فإن الأمير أحمد لم يبق طويلاً على ولائه للعثمانيين، لقد أقام علاقات سرية مع كل من البندقية[٢]، وأوزون حسن[٣]، والسلطان المملوكي. فأرسل إلى هذا الاخير موفداً، وصل إلى القاهرة في شوال ٨٧١ هـ/ ١٤٦٧م[٤].

عام ٨٧١ هـ / ١٤٦٨ م وبعد انتهاء العثمانيين من حملتهم على «ألبانيا»، قاد السلطان محمد الثاني جيشه إلى الأناضول، بهدف استعادة ملطية ودارندة اللتين كانتا بحوزة السلطان بايزيد الأول قبل موته[٥]. وقد طلب محمد الثاني من الأمير أحمد الانضمام إليه في حملته هذه، إلا أن هذا الأخير الذي قرر خلع ولاء الطاعة قد رفض طلبه[٦]، فاغتاظ السلطان العثماني من ذلك وانتزع منه عدة قلاع: أركلي، آقسراي، كولك، كول، وسلمها إلى ابنه مصطفى[٧]. ولكن ما إن انسحبت القوات العثمانية، حتى قام الأمير أحمد وشقيقه قاسم باستعادة أركلي وآقسراي، ووصلوا إلى أنقرة، وذلك بمساعدة فرق تركمانية قرمانية تضم (الورسق والترغود). على أن الرد العسكري العثماني كان سريعاً، حيث قاموا بهجوم مضاد عام ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠م، أسفر عن هزيمة الأمير أحمد وشقيقه اللذين فرا باتجاه الشرق، والانتصار على قوات الترغود والورسق. وقد أمر السلطان العثماني بنفي سكان مدينة آقسراي الثائرة[٨] إلى إسطنبول في مكان يعرف حالياً بآقسراي[٩].

(١) الظاهري: المصدر نفسه، ص٢٦٤ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٣٠.
(٢) طقوش: العثمانيون، ص ١٠٩.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية: ج٢، ص ١٤٤.
(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ص ٤٤٨.
(٥) Shai, Har - El: op. cit, p 84.
(٦) Ibid, p 85.
(٧) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٤.
(٨) آقسراي: مدينة كبيرة ببلاد الروم بها قلعة وسط المدينة بينها وبين قونية ثلاثة مراحل فتحها بايزيد الأول ٧٩٥ هـ. القرماني: المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٠٦.
حول «الترغود والورسق» راجع الموضوع اللاحق بعنوان «استمرار النزاع في الأراضي الحدودية».
(٩) Shai, Har - El: op. cit, p85.

وهكذا فقد تسنى للسلطان محمد الفاتح الاستيلاء على إمارة قرمان؛ التي طالما تحالف أمراؤها مع مسيحيي أوروبا، وأتراك فارس، ومماليك مصر ضد العثمانيين؛ وضمها إلى الدولة العثمانية[١].



المعركة من أجل السيطرة على إمارة دلغادر

(٨٧٤ ـ ٨٨٦ هـ) (١٤٧٠ ـ ١٤٨١م)

يتبين لنا من أعمال الأخوة الحاكمين في إمارة دلغادر كما في إمارة قرمان، الواحد ضد الآخر، النزعة القبلية التركمانية التي سادت فيها[٢]، الأمر الذي فتح الباب للتدخل الخارجي في شؤونها.

بدأت الاضطرابات في هذه الإمارة عام ٨٧٠ هـ/ ١٤٦٥م، عندما كان نائب البستان الأمير سيف الدين ملك أصلان بن سليمان بن دلغادر في زيارة للقاهرة، وبينما كان في صلاة الجمعة وثب عليه فداوي في الجامع وضربه بسكين فقتله. وقد حامت الظنون في حادث هذا الاغتيال حول سلطان المماليك خشقدم، الذي ظن بأنه أرسل الفداوي لهذا الأمر[٣] بتآمر من شاه بداق، شقيق أصلان، الذي كان يؤيده السلطان المملوكي[٤]، لاعتقاده بان أصلان قد سلّم خربوت إلى أوزون حسن[٥].

على أية حال، عين السلطان خشقدم شاه بداق نائباً على تلك الجهات[٦]، أما شاه سوار، الأخ الثاني للأمير المغدور، الذي ساءه أن يقتل أخوه غدراً وأن يولى مكانه شاه بداق[٧]، فقد استعان بالسلطان العثماني لكي يتوسط لدى سلطان مصر في تعيينه في النيابة خلفاً لملك أصلان، فأرسل السلطان محمد الثاني رسالة إلى السلطان خشقدم يطلب منه فيها النيابة لشاه سوار. وأمام عدم استجابة المماليك لهذا الطلب، أرسل محمد الثاني جماعة من عسكره

(١) Boulos: op. cit, v5, p5.
(٢) رافق: بلاد الشام ومصر، ص ٤٥.
(٣) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ٣٤٥. والظاهري: المصدر السابق، ج٦، ص ٢٣٢.
(٤) رافق: المرجع السابق، ص ٤٥.
(٥) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠١.
(٦) الظاهري: المصدر السابق، ص ٢٣٢ وابن إياس: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤٥.
(٧) دهمان: المرجع السابق، ص ٣٤.

عوناً إلى شاه سوار الذي نجح في الاستيلاء على البستان، في حين بقي شاه بداق حاكماً على مرعش[١].

إستاء السلطان المملوكي من التدخل العثماني في الشؤون الداخلية لهذه الإمارة، فأمر في رجب سنة ٨٧٠ هـ/ ١٤٦٥م بتجهيز حملة عسكرية للقضاء على تمرد شاه سوار، ولكن أمر هذه الحملة لم ينفذ[٢]. أما سوار فإنه لم يستمتع كثيراً بالإمرة لأن أهل البستان قد ثاروا عليه في شوال من نفس السنة ورفضوه أميراً عليهم، فاضطر إلى الخروج من المدينة هارباً. عندئذ عزل السلطان خشقدم الأمير شاه بداق عن الولاية، لتقصيره في محاربة أخيه، وعين بدله عمه الأمير رستم. وقد علق على هذا التعيين ابن تغري بردي بقوله: «أظن أن رستم هذا أضعف من شاه بداق في دفع سوار»[٣].

على أية حال فإن شاه سوار عاد وأغار على عمه رستم ونشب القتال بينهما، فأمر السلطان المملوكي عند ذلك نائب حلب مساعدة رستم[٤].

لأمر ما، لم يذكر المؤرخون نتيجة القتال، ولكن فيما يبدو أن رستم قد خسر المعركة، ودليل ذلك أن السلطان أرسل إلى نائب حلب ليقوم بعزل رستم ويعيد شاه بداق إلى الحكم[٥].

بعد فترة قصيرة، أي في أوائل سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م، وصلت الأخبار إلى القاهرة بأن شاه سوار قد توسعت ثورته وعظم أمره، وكان السلطان خشقدم مريضاً فلم يتحرك لهذا الخبر. ولكن لما ترادفت الأخبار بعصيان شاه سوار، تم إرسال حملة عسكرية لقتاله بقيادة نائب الشام بردبك البشمقدار. إلّا أنّه حصل ما لم يكن في الحسبان، فقد انهزمت هذه الحملة شر هزيمة، وأصبح بعضها مأسوراً وبعضها مقتولاً[٦]. ووردت الأخبار فيما بعد بأن نائب الشام كان مخامراً على

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧ والغياثي: المصدر السابق، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٣ والسخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٧٤.

(٢) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ٢٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ٢٩٤ وخبر التعيين ورد عند الظاهري: المصدر السابق، ص ٢٤٣ وابن إياس: المصدر السابق، ص ٤٤٠.

(٤) الظاهري: المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٥٤ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٤٤.

(٥) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٢٦٦ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٤٩.

(٦) الغياثي: المصدر السابق، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ والشيخ علاء الدين علي بن يوسف البصروي: تاريخ البصروي، تحقيق أكرم العلبي، دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٨، ص ٢٨ والظاهري: المصدر نفسه، ص ٢٨١ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٦٠.

السلطان لذلك فقد تواطأ مع سوار في الباطن، فأخذ بالعسكر حتى انكسر(١).

اضطربت القاهرة لهذا الأمر، وجهز السلطان جيشاً أعظم من الأول، ولكن المنية حالت دون إرساله، فتوفي خشقدم في ١٠ ربيع الأول سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨م. وقد اتهم من قبل المؤرخ ابن إياس بأنه هو الذي أثار فتنة شاه سوار التي كانت سبباً للعدواة بينه وبين السلطان العثماني(٢).

مهما يكن من أمر فقد انشغل رجال الدولة بتنصيب سلطان جديد فتولى سيف الدين يلبياي في اليوم الذي توفي فيه خشقدم، ولكن لم تطل مدة سلطته، فقد خلع في ٧ جمادي الأول من السنة المذكورة، ثم نصب عوضاً عنه تمربغاً الظاهري في اليوم نفسه، ثم خلع في السادس من رجب، ونصب عوضاً عنه الأشرف قايتباي المحمودي(٣). ويبدو أن شاه سوار استفاد من هذا الإرباك السياسي الذي أعقب وفاة خشقدم، فقويت شوكته، والتف عليه عسكر كثير من التركمان وغيرهم، وأظهر العصيان والمخامرة(٤). فعيّن له السلطان قايتباي، حالما تولى العرش، حملة ثقيلة بقيادة جاني بك قلقسيز، وضيق على أولاد الناس وألزمهم بالسفر إلى سوار أو يدفعوا له بدلاً، مائة دينار عن الشخص(٥).

وحرص في الوقت نفسه على تهدئة العلاقات مع العثمانيين، فأرسل موفداً إلى إسطنبول، حيث استقبل استقبالاً حاراً من قبل السلطان محمد الثاني، الذي أرسل بدوره بعثة إلى القاهرة لتهنئة قايتباي على توليه العرش(٦).

ولكن فيما يبدو، أن تحركات شاه سوار المستمرة قد قللت من أهمية هذه الاتصالات الدبيلوماسية، ففي شعبان ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨م، خرج أمراء العسكر المعينون للحملة، فكان لهم يوم مشهود، وقد أخفقت هذه الحملة إخفاقاً مزرياً، وانكسر العسكر كسرة شنيعة(٧)، وأسر قائد الحملة، وقتل جماعة من الأمراء

---

(١) الغيائي: المصدر نفسه، ص، ٣٥٩ والبصروي: المصدر نفسه، ص٢٨ والظاهري: المصدر نفسه، ص ٢٨٧ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٦٣.

(٢) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٥٧.

(٣) الغيائي: المصدر السابق، ص ٣٦٠ وما بعدها.

(٤) الظاهري: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٨١ وابن سباط: المصدر السابق، ج٢، ص ٨١٣ ودهمان: المرجع السابق، ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٥) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٣١٣ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٨٧ ودهمان: المرجع نفسه، ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٦) Shai, Har - El: op. cit, p85.

(٧) الغيائي: المصدر السابق، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ والبصروي: المصدر السابق، ص ٣١ والظاهري: =

والجند يصعب إحصاؤهم، والذي سلم منهم دخل حلب في أسوأ حال من العري والمشي. وقوي أمر سوار وتوجه إلى عينتاب، وحاصر قلعتها، وملك البلد، وعزم سوار على الزحف على حلب بسبب مناصرة العثمانيين الذين أرسلوا له نجدة عسكرية، إضافة إلى ما حصل عليه من عسكر القاهرة من خيول وسلاح[1]. لذلك فقد عين قايتباي حملة عسكرية ثانية، وبسبب قلة المال من بيت المال، اضطر إلى أخذ أموال الناس بوجه غير شرعي لتجهيز هذه الحملة[2].

وعلق ابن إياس على سياسة السلطان قايتباي تجاه سوار بقوله: «كان يمكنه أن يرسل إلى سوار خلعة وهدية وتخمد هذه الفتنة فلم يوافق على ذلك، وأخذ الأشياء بالعترسة» أضاف، «فهذه أول شدة وقعت منه في حق الناس، واستمر هذا الأمر منه يتزايد في كل يوم حتى جاوز الحد في ذلك»[3].

في ربيع الأول ٨٧٣ هـ / ١٤٦٩م، أرسل السلطان قايتباي قوة مملوكية مؤلفة من خمسمائة من المماليك السلطانية لحفظ مدينة حلب، إلى أن تحضر الحملة الكبرى، وكان قد بلغ السلطان بأن عسكر سوار نزل على قلعة درندة[4].

وبغية ضمان تدفق التجارة، فقد أرسل سوار منشوراً إلى حلب وطرابلس ودمشق يضمن فيه سلامة التجار، إلّا أن هذه الجهود رفضت من الجانب المملوكي واعتبرت على أنها خداع[5].

وبالعودة إلى الحملة العسكرية، فقد خرجت بقيادة الأمير أزبك بن ططخ، أتابك العساكر، في جمادي الاخرة عام ٨٧٣ هـ / ١٤٦٩م في ظل أوضاع سيئة نجمت عن انتشار مرض الطاعون في مصر وإحجام بعض الأمراء عن الاشتراك فيها. وتمكن الأمير أزبك من الانتصار على شاه سوار في بادئ الأمر، واستولى على باب الملك، وكان أخو سوار من بين القتلى، لكن سوار استطاع بدهائه العسكري استدراج القوات المملوكية إلى أماكن ضيقة، تكثر فيها الأشجار ولا

= المصدر السابق، ص ٢٣٢ وابن سباط: المصدر السابق، ص ٨١٣ وابن إياس: المصدر السابق، ص ١٢.

(١) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٣٢٣. وما بعدها وابن إياس: المصدر نفسه، ص ١٣.

(٢) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٣٢٧ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٢١.

(٣) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٧ ـ ٨.

(٤) الظاهري: المصدر السابق، ص ٣٤٧ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٢١.

(٥) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٣٥١ وعبد الرحمن محمد عبد التواب: قايتباي الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨، ص ١٤١ ولابيدوس: المرجع السابق، ص ٤٣٣ هامش.

تسهل فيها الحركة، ثم انقضّ عليها وهزمها فقتل من العسكر المملوكي مالاً يحصى عددهم، وكانت هذه من الوقعات المشهورة التي لم يسمع بمثلها، ثم بدأ بعد ذلك توافد الجيش إلى القاهرة وهم في أنحس حال من العري والجوع[1].

إن هذه الهزيمة التي مني الجيش المملوكي لهي إشارة واضحة إلى مدى ضعف قدرته العسكرية وافتقاره إلى التنظيم.

في رمضان ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠م قام شاه سوار بمسعى للسلام، وكان قبل ذلك أطلق سراح جاني بك قلقسيز، وبعث به إلى حلب وقد أكرمه غاية الإكرام بقصد أن يسترضي خاطر السلطان[2]، فأرسل رسولاً من قبله إلى القاهرة حاملاً هدية للسلطان ورسالة تتضمن ما يلي:

١ ـ اعتراف السلطان المملوكي به أميراً على إمارة دلغادر.

٢ ـ أن يمنحه أمرة مائة فارس وتقدمة ألف بحلب.

٣ ـ أن يعيد سوار قلعة عينتاب إلى الحكم المملوكي.

إن مبادرة شاه سوار هذه لم تلق تجاوباً من الجانب المملوكي، ممّا يعني استئناف الحرب مجدداً[3].

فيما يبدو، أنّ السلطان المملوكي قد اتخذ هذا الموقف المتصلب حيال شاه سوار، حليف العثمانيين القوي، بسبب استيلاء هؤلاء على الإمارة القرمانية وضمها إلى ممتلكاتهم.



تحول العلاقات المملوكية ـ العثمانية من الصداقة إلى العداوة

(٨٧٤ـ ٨٨٦ هـ) (١٤٧٠ ـ ١٤٨١م)

إن العمليات العسكرية التي قام بها شاه سوار على الحدود الشمالية لدولة المماليك قد أدى إلى زعزعة بنيان هذه الدولة. «بعد ما ذهب عليه أموال وأرواح، وقتل جماعة كثيرة من الأمراء، وكسر العسكر ثلاث مرات ونهب بركبهم وقد

(١) البصروي: المصدر السابق، ص ٣٨ ـ ٤٣ والظاهري: المصدر نفسه، ص ٣٧٧ وابن إياس: المصدر السابق، ص ٣٤ ـ ٣٦.

(٢) الظاهري: المصدر السابق، ص ٤٠٣ وابن إياس: المصدر نفسه،ص ٤١.

(٣) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٤١٢ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٤.

انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرها، حتى الفلاحين طمعوا في الترك وتبهدلوا عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار، وكادت أن تخرج المملكة عن الجراكسة، وقد أشرف سوار على أخذ حلب، وقد خطب له في الأبلستين، وضربت هناك السكة باسمه» على حد تعبير ابن إياس[١].

وأمام تمادي سوار في الاستخفاف بدولة المماليك والعبث بحدودها، شعر قايتباي أنه لا طاقة له بحرب سوار مادام يعضده السلطان العثماني، لذلك فقد أرسل إلى إسطنبول وفد بهدف توثيق العلاقات مع العثمانيين والتسليم بمطالبهم كلها ولا سيما في إمارة قرمان[٢].

من جانبهم رحبّ العثمانيون بهذا التعاون، وخاصة مع تعاظم نفوذ أوزون حسن، الذي ازدادت سلطته كثيراً، بعد قضائه على جيهان شاه، آخر حكام إمارة «القراقوينلو»، وضم إمارته إليه[٣]، (ديار بكر العليا والسفلى إلى حدود الشام وعراق العرب وأذربيجان وعراق العجم وفارس إلى حدود خراسان)، ممّا أوقعه في نزاع مع العثمانيين الذين كانوا يخشون منه، لأنه كأمير تركماني سني باستطاعته تهديد سلطتهم المدنية والدينية في منطقة حدودهم الجنوبية الشرقية، حيث سكن كثير من التركمان، كما خشوا احتمال اتفاقه مع المماليك ضدهم[٤]. لذلك وبهدف تجديد أواصر الصداقة بين الدولتين، أرسل السلطان محمد الثاني موفداً له إلى القاهرة وصلها في صفر ٨٧٥ هـ/ ١٤٧١م، بشّر السلطان المملوكي بإفتتاح عدة بلاد من بلاد الفرنج والبنادقة[٥].

إن هذا التعاون أتاح للمماليك حرية التحرك العسكري للقضاء على خطر شاه سوار، الذي ازداد كثيراً بعد استيلائه في محرم ٨٧٥ هـ/ ١٤٧١م، على قلعة آياس التابعة لإمارة رمضان[٦]. وفي رجب من نفس العام وصلت الأخبار من حلب تفيد أنّ سوار قد استولى على سيس وقلعتها[٧].

وأمام هذا التهديد الخطير لهيبة الدولة، لم يستطع السلطان أن يقف مكتوف

---

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٧٨. الأبلستين هي نفسها البستان
(٢) زقلمة، أنور: المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٥، ص ٩١.
(٣) الغيائي: المصدر السابق، ص ٣٧٨ وما بعدها.
(٤) رافق: المرجع السابق، ص ٤٩.
(٥) الظاهري: المصدر السابق، ج٦، ص ٤٢٧ وابن إياس: المصدر السابق ج٣، ص ٥٢.
(٦) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٤٢٥ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٥١.
(٧) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٤٣٦ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٥٦.

اليدين، فجهز حملة عسكرية كبرى عهد بقيادتها إلى أحد أمرائه وهو يشبك الدوادار، ومنحه سلطات استثنائية واسعة، تمكنه من اتخاذ جميع الوسائل التي يراها كفيلة، والتي توفر له الانتصار دون الرجوع إليه، كما فوض إليه أمور البلاد الشامية من العريش إلى الفرات، وجعل له الولاية والعزل في جميع هذه البلاد باستثناء نيابتي دمشق وحلب، نظراً لأهميتهما[1]. وكان قد أرسل قبل ذلك قوات عسكرية لحفظ مدينة حلب خوفاً من أن يكبس سوار حلب على حين غرة[2].

في محرم ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢م حاصر يشبك قلعة عينتاب فوقع الرعب في قلوب أهلها من شدة الحصار. وخوفاً من الهدم، طلبوا الأمان لقاء تسليم القلعة، فأمنهم يشبك واستولى عليها[3].

أدرك سوار أن لا قدرة له على مواجهة الجيش المملوكي وذلك نظراً لكف العثمانيين عن مساعدته، فأرسل موفداً له إلى الأمير يشبك وعلى يده هدايا ورسائل له ولحكام حلب والشام، معلناً عن رغبته بحل الصراع سلمياً، فتوجه إليه القاضي شمس الدين ابن أجا[4] للتفاوض معه، إلّا أن المباحثات بينهما لم تثمر عن شيء إيجابي. فاقتراح شاه سوار على أن يسلم مفاتيح قلعة درندة مقابل أن يكون حاكماً عليها من قبل السلطان المملوكي، رفض، وكان ذلك سبباً لاستئناف القتال مجدداً[5].

في هذه الفترة في ربيع الأول ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢م، ولضمان عدم تدخل العثمانيين وصاحب العراقين أوزون حسن لنجدة شاه سوار، أرسل الأمير يشبك القاضي ابن أجا رسولاً إلى أوزون حسن، والشيخ علاء الدين الحصني رسولاً للسلطان محمد الثاني، وأمير جان إلى ولده بايزيد حاكم أماسية[6].

من جهة العثمانيين، فإن تعاونهم مع المماليك أتاح لهم حرية التحرك العسكري لوضع حد للإمارات والقلاع الموجودة في إيج ـ إيل؛ المنطقة الحدودية في جنوب الشاطئ الأناضولي والتي وقف أمراؤها إلى جانب الأمراء القرمانيين

---

(١) الغياثي: المصدر السابق، ص ٣٦٤ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٥٤ ـ ٥٩ وابن دهمان: المرجع السابق، ص ٦٥.
(٢) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٥٢.
(٣) ابن أجا: المصدر السابق، ص ٨١ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٦٢.
(٤) إن هذا المؤرخ كان قاضي الجيش، وقد رافق الحملة ودوّن أحداثها فهو شاهد عيان لما حدث.
(٥) ابن أجا: المصدر السابق، ص ٨٨ ـ ٩٣.
(٦) المصدر نفسه، ص ٩٥.

الثائرين ضد الدولة العثمانية؛ فأسرت القوات العثمانية عائلة أحمد بن قرمان وأرسلتهم إلى بلاط السلطان محمد الثاني في إسطنبول. وبعد انتهاء هذه الحملة العسكرية، فرض العثمانيون رقابة شديدة على القلعة الحدودية في لؤلؤة ـ التي كانت تحمي المخرج الشمالي لممر طوروس[1]. وبهذا تكون قلعة كولك (بيد المماليك)، وقلعة ولؤلؤة (بيد العثمانيين) قد عادتا من جديد لتشكلا خطيّ تماس بين الدولتين.

وبينما موفدوه لا يزالون في مهمتهم في تبريز وإسطنبول وأماسية، فإن الأمير يشبك، وبعد أن انتهى من ترتيب أوضاع عينتاب، تركها في ربيع الأول ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢م ثم اجتاز ممرات بلاد الشام ودخل آياس، واستطاع أن ينتزع من قوات شاه سوار أدنة وسيس[2]، وكان أثناء ذلك قد وفد إليه قاصد من إسطنبول، حاملاً هدية من السلطان محمد الثاني[3]، وذلك للتأكيد على استمرار التعاون بين الدولتين. وتابع يشبك مهمته فاسترد درندة، ودخل البستان دون مقاومة تذكر ومنها تابع إلى خرمان فتسلمها صلحاً، ورحل بعد ذلك إلى قلعة زمنطو، حيث اختبأ شاه سوار وعائلته[4]، وفرض على القلعة حصاراً أشرف عليه بنفسه[5].

في فترة الحصار أي في رمضان ٨٧٦ هـ/ ١٤٧٢م وصل قاصد آخر من عند بايزيد معه هدية ومكاتبة للأمير يشبك، وقد شرح له هذا الرسول مدى سرور السلطان العثماني لوصول العساكر منصورة، وطلب موافاته بالأخبار، وعرض الاستعداد لإرسال الغلال والمآكل[6].

لما اشتد الحصار على قلعة زمنطو، التمس شاه سوار الدخول مجدداً في مفاوضات الصلح نظراً إلى الخسائر المتتالية التي لحقت به، وطلب مقابلة الأمير تمراز الشمسي، فتوجه إليه هذا الاخير ومعه قاضي العسكر ابن أجا، وأعلن شاه سوار استسلامه على الفور بشرط ألا يقابل الأمير يشبك خوفاً على حياته. لم يوافق تمراز على ذلك وتعهد له بألّا يقتل، فنزل معه عندئذ من قلعته في نفر قليل من

(١) Shai, Har - El: op. cit, p 95.

(٢) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ١٦ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٦٣ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٢٩ وما بعدها.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ص ٦٩ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٦٤.

(٤) الظاهري: المصدر السابق، ص ٣٤ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٥) الغيائي: المصدر السابق، ص ٣٦٤ والظاهري: المصدر نفسه، ودهمان: المرجع السابق، ص ١٤١ وما بعدها.

(٦) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٢٨٠ ودهمان: المرجع نفسه، ص ١٤٥.

عسكره، وذهب إلى مخيم الأمير يشبك حيث أُلقي القبض عليه[١]. في آخر ذي الحجة من العام ٨٧٦ هـ/ ١٤٧٢م، رتّب يشبك أوضاع الإمارة، فعين عليها الأمير شاه بداق ـ شقيق سوار ـ ثم عاد إلى حلب ومنها إلى القاهرة التي وصلها في ١٨ربيع الأول ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣م بصحبته شاه سوار حيث شنق وأخوته؛ باستثناء سليمان؛ وأقاربه بأمر من السلطان على باب زويلة[٢].

عقب القضاء على شاه سوار، وصل قاصد من عند السلطان العثماني، فاحتفل قايتباي بقدومه واستضافه، وقد تصارع عدة من المماليك ولعب آخرون بالنشاب والسيف، إلى غير ذلك بحضرته[٣].

بين عامي ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣م و٨٧٨ هـ / ١٤٧٤م حدثت عدة اصطدامات بين جيش السلطان العثماني وجيش أوزون حسن، فالأمير أحمد بن قرمان؛ الذي كان قد هرب من العثمانيين عام ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢م والتجأ عند أوزون حسن؛ إلى جانب البنادقة، دفعوا زعيم «ألاق قوينلو» إلى العمل ضد العثمانيين، فاستجاب إلى طلبهم لأن في ذلك توافقاً مع مخططه التوسعي، فجهز جيشاً بلغ عدده خمسين ألف مقاتل وفي رواية أخرى مائة ألف. تقدم الجند في محرم ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣ م من ديار بكر إلى توقات فنهبوها، ثم قصدوا قيصرية واكتسحوا قرمان ـ التي كان حاكمها مصطفى ابن السلطان العثماني ـ وحامد.

كان محمد الثاني مهتماً أشد الاهتمام بهذه الأحداث كما كان معنياً بذلك النشاط السياسي ومتيقظاً له تمام التيقظ، لذلك صمم على المواجهة. فعبر السلطان العثماني إسطنبول إلى شاطئ آسيا الصغرى، ونجح الأمير مصطفى وداوود باشا ـ حاكم أنطاليا ـ في تشتيت شملهم غربي قونية[٤].

على الرغم من خسارته أمام العثمانيين، فإن أوزون حسن قرر فتح جبهة أخرى مع المماليك بهدف الزحف على البلاد الخاضعة لمصر في بلاد الشام[٥].

---

(١) الغياثي: المصدر السابق، ص ٣٦٥ والبصروي: المصدر السابق، ص ٥٣ وابن إياس: المصدر السابق، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) الغياثي: المصدر نفسه، ص ٣٦٦ والظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٤٣ ـ ٤٤ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ودهمان: المرجع السابق، ص ٥٨ وما بعدها.

(٣) السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص ٨٤١.

(٤) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٩٣ ودائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ص ٢، ص ١٤٤ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٦٥.

(٥) الغياثي: المصدر السابق، ص ٣١٧ وابن أجا: المصدر السابق، ص ٣٢.

لقد كان أوزون حسن بالنظر إلى موقع إمارته وإلى توسع سلطته، يعتبر خطراً بالنسبة للمماليك والعثمانيين على حد سواء، وإذا كان قد حاول في البدء كسب مودة المماليك، ليتمكن من استخدام أراضيهم للوصول إلى ساحل البحر المتوسط والحصول على المعونة من الأوروبيين[1]؛ وذلك عن طريق إرساله لهم الوفود المتتالية الحاملة الهدايا والنفائس وأخبار انتصاراته على زعيم «القراقوينلو» وعلى أولاد تيمورلنك[2]؛ إلا أن السلطان المملوكي كان يشك بنواياه ويخاف دائما من عبث جنوده بحدود دولته[3]، وخاصة بعدما ما وصل إليه في ذي العقدة ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢م موفد من قبل أوزون حاملاً رسالة يتهم فيها قايتباي، وتتضمن الشفاعة لسوار، وأيضاً طلب حصول على إذن لكسوة الكعبة. وإن في ذلك إشارة ليس فقط لمحاولته الاستقلال السياسي وإنّما ليظهر أمام العالم الإسلامي والشعوب الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في صورة حامي الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة[4].

ومهما يكن من أمر، فإن هواجس السلطان قايتباي تحققت بعدما زالت موجة النفاق وظهرت حقيقة أوزون حسن[5]، عندما عبر زعيم «ألاق قوينلو» في جمادي الآخرة ٨٧٧ هـ/ ١٤٧٣م الفرات واستولى على كختا وكركر، وأرسل فرقة أخرى بقيادة ابنه أغرولو محمد نحو الرها واستولت على مدينة البيرة، وبعث برسالة مكتوبة بماء الذهب إلى شاه بداق بأن يسلم إليه القلاع التي حوله ولا يخرج عن طاعته، وتضمنت الرسالة ألفاظاً تنم عن نواياه التوسعية، وقد وجه رسالة أخرى إلى نائب الشام تتضمن التهديد والوعيد[6].

انزعج السلطان المملوكي من هذا الأمر، وعين الأمير يشبك على رأس حملة

---

(١) رافق: المرجع السابق، ص ٥٠.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ص ٣٤ ـ ٥٢ ـ ٧٠.
(٣) لقد تحرك أوزون حسن على البلاد الحلبية عام ٨٧٥ هـ وأظهر العداوة للسلطان المملوكي انظر ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٥٤.
(٤) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ١٧. حول كسوة الكعبة وأهميتها انظر الحنفي: ص ٦٩ وما بعدها.
(٥) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٥٤.
(٦) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٤٩ ـ ٥٢ ـ ٥٣ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٨١. ذكر الغياثي في تاريخه، ص ٣١٧: «أن أوزون عبر الفرات يريد حلب فانكسرت بلاد الشام جميعها، وتوجهوا إلى مصر... فوصل حسن بيك قريب موضع يقال له الباب، ثم رجع بتقدير الله تعالى ولو سار لأخذ حلب... فرجع إلى البيرة... وحاصرها... فأما المدينة... أخذها وأخربها...».

عسكرية كبيرة وأرسل فرقة من جيشه إلى مدينة البيرة، وقبل وصوله إلى حلب وفدته أخبار تفيد بأن نائب البيرة قد قبض على جماعة من عسكر أوزون وكسر جيشه، ففر أوزون حسن منهزماً.[١] وما إن استقر يشبك في حلب في شوال ٨٧٧ هـ/ ١٤٧٣م، حتى أتاه قاصد من طرف أوزون حسن، وعلى يده مكاتبه يطلب منه فك أسر جماعته الذين أسروا وسجنوا بحلب مقابل إطلاق سراح ما عنده من الأسرى، فلم يلتفت الأمير يشبك إلى ذلك[٢].

من جهة السلطان محمد الثاني، فإنه وبينما كان يحضر جيشه لحملة عسكرية واسعة ضد زعيم «ألاق قوينلو»، سعى إلى إقامة تحالف مع المماليك ضد أوزون حسن، فأرسل قاصداً إلى الأمير يشبك عارضاً عليه بأن يكون عوناً للسلطان المملوكي على قتال أوزون حسن، فأكرم يشبك القاصد وأرسل بصحبته القاضي ابن أجا حاملاً هدية ومكاتبة تتضمن ضرورة التعاون بينهما. ووصل في الفترة نفسها قاصد عثماني آخر أتى من جهة البحر وأحضر بصحبته رسالة من أوزون حسن إلى ملوك الفرنج، بعد أن قبض على حاملها، وتتضمن بأن يمشوا على السلطان العثماني وسلطان مصر من البحر، وهو يمشي عليهم من البر.[٣]

ما إن تأكد قايتباي من حقيقة نوايا أوزون حسن ورغبة هذا الأخير في إزاحته عن عرش السلطنة المملوكية؛ وذلك عندما حاول أميراً الحج العراقي بأن يجعلا الخطبة في مكة باسم أوزون حسن[٤]؛ حتى أرسل موفد من جانبه إلى السلطان العثماني من أجل بحث تفاصيل التعاون المملوكي ـ العثماني[٥].

على أية حال، في شوال ٨٧٨ هـ/ ١٤٧٣م خرج السلطان محمد الثاني على رأس جيش قوامه مائة ألف مقاتل لمحاربة أوزون حسن، الذي كان قد عسكر على الضفة اليسرى لنهر الفرات. وفي ١٦ ربيع الأول ٨٧٨ هـ/ ١٤٧٣م، جرت معركة بين الطرفين أسفرت عن هزيمة جيش أوزون حسن وقتل ابنه[٦]،

(١) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٦٤ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٨١ ـ ٨٢.

(٢) الظاهري: المصدر نفسه،ص ٦٠ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٨٤ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٣) الظاهري: المصدر نفسه، ج٧، ص ٦٤ ـ ٦٥ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٨٧.حول تفاصيل تعاون أوزون حسن مع الفرنج انظر أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٤) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٦٦ وابن إياس: المصدر نفسه،ص ٩٠ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٦٨ ودائرة المعارف الإسلامية: ج٣، ص ١٤٧.

(٥) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٧٣ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٦) الغياثي: المصدر السابق، ص ٣٨٤ والظاهري: المصدر نفسه، ص ٧٣ ـ ٧٤ وابن إياس: =

وكانت البنادق التي استخدمها الجيش العثماني حاسمة في هذه المعركة[١].

على أثر هزيمة أوزون حسن، أطلق السلطان قايتباي سراح أميري الحج العراقي؛ اللذين ألقي القبض عليهما وأودعا سجن القاهرة في محرم ٨٧٧ هـ/ ١٤٧٣م ؛ فأخلع عليهما وبعث بهما إلى بلاد أوزون[٢]. وعلى الرغم من غرابة هذا التصرف إلّا أن القصد من ورائه قد يكون الإبقاء على أوزون حسن شوكة في جنب العثمانيين.

بدوره أكد أوزون حسن عن رغبته في تجديد أواصر وعرى الصداقة مع السلطان المملوكي، فأرسل إليه في محرم ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤م رسالة تتضمن الاعتذار عما بدر منه[٣].

ظاهرياً فإن توطيد الصداقة بين دولة المماليك ودولة «ألاق قوينلو» لم تزعج كثيراً السلطان العثماني الذي حرص على استمرار العلاقات الجيدة مع قايتباي، فأكرم وفادة القاصد المملوكي الأمير يشبك الجمالي، الذي كان توجه إليه في شهر ذي العقدة ٨٧٩ هـ/١٤٧٥م وأخلع عليه وسلّمه رسالة تتضمن التودّد بينه وبين السلطان المملوكي[٤]. وفي ربيع الآخر من نفس العام، أرسل السلطان محمد الثاني موفداً آخر له إلى قايتباي ومعه مكاتبة تتضمن الشفاعة في إينال الحكيم، الذي كان قد فر إليه، فقبل السلطان المملوكي شفاعته وأكرم ذلك القاصد وأخلع عليه[٥].

ولكن فيما يبدو، أن مظاهر العلاقات الحسنة هذه بين المماليك والعثمانيين لم تدم طويلا، وذلك أن المشكلة القرمانية ظلت دائماً عصب المواجهة بين الدولتين. فالأمير أحمد وشقيقه قاسم نجحا في إستعادة بعض القلاع في قرمان وخصوصاً في إيج ـ إيل، فما كان من السلطان محمد الثاني إلّا أن أرسل إليه جيشاً استطاع إلحاق الهزيمة بأحمد وإجباره على الفرار حيث توفي أثناء الطريق، وأخضع لنفوذه قوات

= المصدر نفسه، ص ٩١ والحنفي: المصدر السابق، ص ٢٣٢ والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٩٣ ودائرة المعارف الإسلامية: ج٣، ص ١٤٤ ـ ١٤٥. والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٥٨ ومابعدها.

(١) رافق: المرجع السابق، ص ٤٩.حول تفاصيل هذه المعركة انظر أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) الظاهري: المصدر السابق، ص ٧٧.

(٣) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٩٨ وابن إياس: المصدر السابق، ص ٩٥.

(٤) الظاهري: المصدر نفسه، ج٧، ص ٨٩ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٩٤ ـ ٩٨.

(٥) الظاهري: المصدر نفسه،ص ١٠٣ وابن إياس: المصدر نفسه،ص ٩٤ ـ ٩٨ ـ ٩٩.

الورسق وفرق تركمانية أخرى في طوروس، اما قاسم فقد التجأ إلى المماليك[١].

حاول السلطان العثماني استعادة قاسم من المماليك باعتباره الأمير القرماني الأخير الذي لا يزال حيًّا، فأرسل إلى قايتباي في ذي الحجة ٨٨١ هـ / ١٤٧٧ م رسالة يطلب منه فيها ضرورة تسليم قاسم[٢]، ولكن السلطان المملوكي رفض طلبه معتبراً ذلك تدخلاً في شؤون قرمان الداخلية. وفي هذا إشارة إلى أن قايتباي قد تخطى إتفاقية التعاون التي عقدت مع العثمانيين عام ٨٧٥ هـ / ١٤٧١م والتي تم بموجبها الاعتراف لهم بمطالبهم في إمارة قرمان.

على أية حال إن هذا التصرف المملوكي كان نذيراً بتوتر العلاقات مجدداً بين الدولتين، وممّا زاد الأمور تعقيداً فيما بعد، أن الأمير يعقوب ابن أوزون حسن[٣] كان في تلك الآونة عاجزاً عن مقاومة الجيش المملوكي، لذلك مال إلى الصلح مع المماليك واعتذر عن قتل الأمير يشبك[٤]، في إحدى المعارك التي خاضها المماليك ضده في الرها[٥]. كذلك التزم علاء الدولة، الذي دعمه السلطان العثماني في حكم الإمارة الدلغادرية، في هذه الفترة من جانبه الحرص في علاقته بدولة المماليك، وخاصة مع تفوق الجيش المملوكي على «ألاق قوينلو»، فطلب هذا الأخير ـ أي علاء الدولة ـ من الأمير أزبك، الذي فوض إليه أمور بلاد الشام، أن يتوسط بينه وبين السلطان قايتباي في طلب الصلح لقاء أن يسلم مفاتيح عدة قلاع في شمال بلاد الشام، فوافق قايتباي على طلبه وعفى عنه، وأخلع عليه واعترف به كحاكم على الإمارة[٦]. أما شاه بداق، الذي لم يشارك في الحملة المملوكية الأخيرة بقيادة أزبك على «ألاق قوينلو»، فقد قبض عليه عندما التجأ إلى حلب في محرم ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠م، وقيد في الحديد ورحل إلى القلعة، فسجن[٧].

(١) حليم: المرجع السابق، ص ٦٧.
(٢) الظاهري: المصدر السابق، ص ١٨٩ وابن إياس: المصدر السابق، ص ١٣٠.
(٣) لقد توفي أوزون عام ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧م انظر السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ٨٨٩ والضوء اللامع، ج٣، ص ١٢١.
(٤) الظاهري: المصدر السابق، ص ٢٩٤ وابن إياس: المصدر السابق، ص ١٨٠ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٧٧.
(٥) السيوطي: المصدر السابق، ص ٥٨٥ والظاهري: المصدر نفسه، ص ٢٧١ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ـ ١٧٥. لقد حصلت هذه المعركة عام ٨٨٥ هـ.
(٦) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٢٩٠.
(٧) الظاهري: المصدر نفسه وشمس الدين محمد ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٢، ج١، ص ٧ ـ ٣٢.

وهكذا فقد تسنى للمماليك في هذه المرحلة من ترجيح كفة ميزان القوة في الأناضول لصالحهم، وذلك بتحقيق هذين الإنجازين المهمين:

١ ـ الولاء من قبل علاء الدولة بن دلغادر للسلطة المملوكية.

٢ ـ تهدئة العلاقات مع دولة «ألاق قوينلو» الجديدة.

من جانب آخر، فإن التراجع السياسي والديبلوماسي العثماني في هذه الآونة وما رافق ذلك من أحداث، إثر وفاة السلطان محمد الثاني، كان نذيراً في ازدياد حدة التوتر بين الدولتين.

مقدمات الحرب الأولى

(٨٨٦هـ-٨٩٠هـ)(١٤٨١م-١٤٨٥م)

«إن أصل هذا الصراع، كان تعصب ابن عثمان لعلي دولات، وكان ابن عثمان متحملا على سلطان مصر في الباطن بسبب أشياء لم تظهر للناس»[١].



تدخل المماليك في الصراعات الداخلية العثمانية

شهدت الدولة العثمانية صراعاً داخلياً إثر وفاة السلطان محمد الفاتح[٢] في صفر سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١م، ذلك أنه عندما تولى بايزيد الثاني، الأكبر سناً الحكم، نازعه على السلطة أخوه جم وطالبه بتقسيم المملكة بينهما، على أن يختص جم بولايات آسيا الصغرى (الأناضول) وبايزيد بأوروبا. ولما رفض بايزيد الثاني طلبه، جمع جم جيشاً من الأناضوليين والقرمانيين وبعض القبائل التركمانية القاطنة في جبال طوروس المؤلفة من الورسق والترغود، وتوجه إلى بورصة واستولى عليها بعد قتال قصير، وأعلن نفسه سلطاناً. إلّا أنه لم يلبث فيها طويلا، إذ اضطر إلى إخلائها بعد ثمانية عشر يوما أمام جيوش بايزيد، وحلت به هزيمة منكرة عند «ينشهر» في ٢٦ ربيع الثاني عام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١م، فتفرق شمل جيشه، وفر جم بشق الأنفس هو وأمه ونساء بيته وولده إلى قونية ومنها عبر جبال طوروس، وقدم على طرسوس[٣]، حيث طلب من نائب حلب أزبك السماح له بدخول مدينة حلب، فاتصل أزبك بالسلطان قايتباي الذي أذن لجم بالحضور إلى القاهرة مع قليل من عسكره، وأمر باستقباله بحفاوة بالغة[٤]. دخل جم إلى حلب

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص٢١١.

(٢) انظر عن محمد الفاتح في السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص ٤٧ والحنفي: المصدر السابق، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧ وما بعدها والغزي: المصدر السابق، ج١، ص ١٢٢ ـ ١٢٤.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩١. والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٨٦.

(٤) السيوطي: المصدر السابق، ص ٥٨٦ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ١٨٣.

بفرقة مؤلفة من مائة عنصر[١]، وتوجه بعد ذلك إلى القاهرة في ٦ شعبان، فكان له يوم مشهود، وأقام له السلطان استقبالاً حافلاً وخلع عليه[٢].

اشتكى جم من الظلم الذي لحق به من قبل أخيه، ودافع عن حقه بالحصول على نصيب في حكم الدولة، وطلب من السلطان التوسط من أجل إيجاد حل لهذه المشكلة[٣]، فوعده قايتباي بالسعي في الصلح بينه وبين أخيه[٤]، وعلى هذا الأساس بدأت المفاوضات مع بايزيد الثاني. أثناء إقامة جم في القاهرة، سمح السلطان له بزيارة الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج، فانضم جم إلى قافلة الحج المصري، وتوجهوا إلى مكة والمدينة، وقد أكرمه السلطان إكراماً عظيماً وتكلف الأموال الكثيرة[٥] « وحج حجة عظيمة لم يحجها أحد من الملوك»[٦].

ممّا لا شك فيه، أن جم إضافة إلى تأديته فريضة الحج، هدف إلى كسب التأييد في نزاعه مع أخيه، على اعتبار أن هذا الأمر سوف يدعم حقه في المطالبة بإرثه[٧]. وعند عودته من الحج في ٢١محرم ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢م وصل إلى القاهرة الموفد المملوكي إلى إسطنبول، حاملاً معه أخباراً تفيد أن بايزيد وافق على الصلح بشرط إعطاء جم حصة في الأناضول.

فيما يبدو، أن قايتباي كان يأمل بحصول جم على حصة أكبر من الممتلكات إلّا أنه كوسيط أظهر عدم المبالاة ورأى أنه من الأفضل لجم قبول العرض، ربما لأنه لم يكن في نية السلطان في تلك المرحلة الاصطدام مع العثمانيين. أما فيما يتعلق بجم فقد رفض العرض، وأخبر السلطان أن الوضع لا يمكن معالجته إلّا بالقوة[٨]. في الوقت

---

(١) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٤٣.

(٢) الغياثي: المصدر السابق، ص ٣٦٧ والظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٢٩٥ وابن إياس: المصدر السابق، ص ١٩٠. والقرماني: المصدر السابق، ص ٣٨ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص١٨٦.

(٣) Knolles, Richard: The Turkish History from the Original of the Nation to the Growth of the Ottoman Empire, 6th ed, London, 1687, p299.

(٤) ابن طولون: المصدر السابق، ص ٥٣.

(٥) السيوطي: المصدر السابق، ص ٥٨٦ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ١٩٠ ـ ١٩١ وابن طولون: المصدر نفسه والحنفي: المصدر السابق، ص ٢٢٣ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٨٦.

(٦) ابن طولون: المصدر نفسه.

(٧) دهمان: المرجع السابق، ص ١٨١.

(٨) سعد الدين أفندي خوجة، تاج التواريخ، إسطنبول ١٨٦٣ ـ ١٨٧٢، ج٢، ص ٤٦ ـ ٤٨ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٨٦.

نفسه، أخذ قاسم بك ـ آخر ذرية أمراء قرمان ـ وغيره من أتباع جم يستحثونه على الرجوع إلى الأناضول ليجرب حظه مرة أخرى[(١)]. كان دافع قاسم بك بالانضمام إلى جم واضحاً وذلك بهدف استرجاع أراضي أجداده، وليحكم مقاطعة قرمان التي استولى عليها وأخذها منه محمد الثاني، والتي كان من الصعب استرجاعها من خليفته بايزيد الثاني[(٢)].

وافق جم على طلب قاسم بك، واستأذن السلطان بالتوجه إلى بلاده لمحاربة أخيه، عندها دعا قايتباي أمراءه إلى اجتماع طارئ، واستشارهم في هذا الأمر، وعلى الرغم من أن جم عرض وجهة نظره، وتكلم في ذلك كلاماً كثيراً، إلّا أن الأمراء وبعد مناقشة جادة وطويلة عارضوا فكرة عودة جم إلى الأناضول، نظراً لما يترتب عن ذلك من تطورات سلبية، ولكن قايتباي أمر بفض الاجتماع، وأذن لجم بالسفر[(٣)] «وجهزه السلطان وأيده بأمور على أخيه على أن يأخذ الملك منه»[(٤)] على حد تعبير ابن طولون، وفيما يبدو أن قايتباي قد سعى من خلال موقفه هذا إلى تحقيق هدفين:

الأول: أن يستعيد وبمساعدة قاسم بك مقاطعة قرمان وبالتالي إعادة التوازن بين الدولتين المملوكية والعثمانية.

الثاني: تولية أمير عثماني صديق حكم الأناضول المجاور، وبالتالي خلق فوضى داخلية تساعد على إرباك الصف الداخلي العثماني.

ومهما يكن من أمر، فسواء كانت هذه الخطوة التي أقدم عليها قايتباي من باب المروءة أو من باب الحساب السياسي، فإن سلوك سلطان مصر في تلك المناسبة كان عين الخطأ[(٥)].

وفيما يتعلق بالمساعدة المقدمة من السلطان قايتباي لجم، فعلى الرغم من أن المصادر المملوكية لم تأت على ذكر ذلك، وأيضاً ما أورده ابن طولون لا يحدد طبيعة هذه المساعدة، إلّا أن المصادر الإيطالية وحدها ذكرت أن السلطان قايتباي جهز جم بأربعين ألف قطعة ذهبية وعشرين ألف قطعة من السلاح وحصون متعددة

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ج ٧، ص ٩١. والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٨٦.
(٢) فريد بك: المرجع السابق، ص ٦٩. والبرجاوي: المرجع نفسه.
(٣) الغياثي: المصدر السابق، ص ٣٦٧ والظاهري: المصدر السابق،ج٧، ص ٣٠٩ وابن إياس: المصدر السابق،ج٣، ص ١٩٢ ووابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٥٣
(٤) ابن طولون: المصدر نفسه،ص ٤٧.
(٥) ابن إياس: المصدر السابق.

بالإضافة إلى أن حكام حلب ودمشق ساهموا بدفع عشرة آلاف قطعة ذهبية[١].

على أية حال، غادر جم القاهرة في صفر ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢م، وتوجه إلى مدينة دمشق ومنها إلى حلب حيث جمع قوة صغيرة والتقى فيها قاسم بك[٢]، ودخلوا بعد ذلك إلى كيليكيا فانضم إليهم أمراء التركمان الفارين من الورسق والترغود وبعض شاغلي إقطاعات الأناضول الذين جردهم بايزيد الثاني من إقطاعاتهم[٣]. فانطلقوا معاً حتى وصلوا إلى منطقة الحدود، حيث أغاروا على الأراضي العثمانية، إلّا أن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع[٤]، نظراً لعدم تنظيم هذه القوة المتعددة، إضافة إلى غياب القيادة الحكيمة. فاضطر عندئذ جم للفرار إلى مكان منيع في بلاد كيليكيا، حيث عاد ودخل مرة أخرى بمفاوضات مع أخيه، الذي وعده بأرض ممّا يقطع للأمراء إذا ما ارتد إلى بيت المقدس.

رفض جم العرض وأصر على تقسيم الدولة، وعندما شعر بعجزه عن المقاومة، أرسل موفداً له إلى جزيرة رودس من أجل الحصول على ملجأ سياسي[٥]. وافق صاحب الجزيرة على استقباله وأكرمه غاية الإكرام ووعده بالتوسط لكسب الأنصار له في أوروبا ضد أخيه[٦].

إن الخسارة التي لحقت بجم، أصابت قايتباي بخيبة أمل، وندم على أنه سمح له بترك مصر[٧]. بلا شك أن السلطان المملوكي قد أساء الحكم على قدرات جم العسكرية وبالتالي فقد كانت هذه الخطوة سبباً لحقد السلطان العثماني على سلطان مصر[٨].

---

(١) Quoted by Shai, Har - El: op. cit, p 110.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج٧، ص ٩١، وحليم: المرجع السابق، ص ٧١ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٨٦.

(٣) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠ ومصطفى: المرجع السابق، ص ٧٥.

(٤) الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٢٣ والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٨٦.

(٥) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٨٦. وكان جم قد تولى زمام المفاوضات مع صاحب رودس في الفترة التي سبقت حصار والده محمد الثاني للجزيرة انظر دائرة المعارف الإسلامية: ج ٧، ص٩٠ - ٩١ - ٩٢.

(٦) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٨.
Thuasne, Louis: Djem Sultan, Fils de Mohamed II frére de Bayezid II (1459 - 1495) étude sur la question d'Orient a la fin du XVéme siécle, Paris, 1982, p 56 - 58.

(٧) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ١٩٥.

(٨) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٤٧.

وبناءً على هذا، يمكن القول بأن سياسة إيواء السلطان قايتباي لجم ومساعدته في تلك الأثناء قد أثارت حفيظة العثمانيين، وسببت استياءاً شديداً لدى السلطان بايزيد الثاني، وسوف تكون أحد أسباب النزاع المسلح بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية[1].



تدخل المماليك في العلاقات العثمانية ـ البهمانية

حافظت ممالك الهند الإسلامية على علاقات الود والصداقة مع سلاطين المماليك، وذلك أن اتساع نفوذ مصر السياسي وهيبة سلطانها قد دفع الدول الإسلامية من شتى بقاع الأرض لأن تخطب ودّها وتكسب تأييدها. فالحكام المسلمون في الهند، إضافة إلى إرسالهم الهدايا والمساعدات المالية لمكة[2]، ولطلبة العلم[3]، كانوا يسعون للحصول على تأييد أو تقليد شرعي لحكمهم من سلطان المماليك. وكان سلاطين المماليك من جانبهم، كما أشارت المصادر العربية يحسنون استقبال السفارات الهندية ويردون على الهدايا والأعطيات بأحسن منها[4].

ففي سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢ م، وصل موفد من سلطان الهند إلى القاهرة وبيده هدية إلى السلطان وإلى الخليفة المستنجد بالله، وأرسل يطلب منه تقليداً بولايته على إقليم الهند عوضاً عمن كان قبله من ملوك الهند، فأكرمه السلطان وخلع عليه، وكتب له الخليفة تقليداً بما سأل[5]. ومنذ ذلك الوقت وحتى سنة ٨٨٧ هـ ـ وهي سنة الصراع المملوكي العثماني ـ فقد وصل إلى القاهرة موفدان من قبل الحاكم الهندي زارا البلاط المملوكي، أحدهما عام ٨٧٩ هـ/١٤٧٥م ويحمل للسلطان هدايا، من جملتها سبع عظيم وخيمة كبيرة فأكرمه السلطان وخلع عليه[6]، والآخر عام ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢م، يحمل هدايا كثيرة، فأثيب على هديته الواصل بها[7].

(١) The Appleid History Research Group: «The Islamic world to 1600», The University of Calgary, p1. and Boulos: op. cit, p537.

(٢) المقريزي: المصدر السابق: ج٧، ص ١٥٩ ـ ٢٧٤ والحنفي: المصدر السابق، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٣) السخاوي: وجيز الكلام: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٩٨.

(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج٧،ص ٢٧٤ والسيوطي: المصدر السابق، ص ٥٧٨ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٦٥.

(٥) ابن إياس: المصدر نفسه. خبر الخليفة عند السيوطي: ص ٥٨٣.

(٦) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٧) السخاوي: المصدر السابق: ج٣، ص ٩٤٠.

هذا فيما يتعلق بالعلاقة بين ملوك الهند المسلمين وبين سلطنة المماليك، أما فيما يتعلق بعلاقتهم مع العثمانيين، فقد انفرد البهمانيون دون سواهم بتبادل السفراء معهم، وحصل ذلك بين السلطان محمد الثاني قبل وفاته مباشرة والحاكم البهماني ـ في دولة داكان في الهند ـ محمد شاه الثالث.

إن البهمانيين قد وصلوا إلى شهرة عظيمة في العالم الإسلامي، وكانوا السلطة الوحيدة في الهند التي تبادلت السفراء مع العثمانيين، ويعود فضل هذه الصلة إلى الوزير البهماني القوي عماد الدين محمود غوان، الذي نجح في إقامة علاقات تجارية مع العثمانيين محفوظة في سجلات قاضي بورصة[1]. لقد أرسل السلطان محمد الثاني موفداً له إلى الهند، وعند عودته إلى بلاده رافقه مرسل من قبل غوان، فاستقبلا في مرفأ جدة، ولكن ما إن وصلت إلى مصر والحجاز أخبار وفاة السلطان محمد الثاني وتولي بايزيد الحكم، حتى اعتقل الموفدان والهدية الهندية المرسلة التي كانت بحوزتهما من قبل الحاكم المملوكي في جدة، وأرسلت إلى السلطان قايتباي بالقاهرة[2].

إن سبب هذا التصرف غير الديبلوماسي من جانب المماليك، يمكن إرجاعه إلى خشية مصر من الدور العالمي الجديد للدولة العثمانية، وللسياسة العظيمة التي انتهجها محمد الثاني منذ فتحه للقسطنطينية حيث بدأ على الأقل يدعي المساواة بحكام مصر[3]، إضافة إلى حذر السلطان المملوكي من العلاقة الوطيدة التي أقامها الحاكم الهندي محمد شاه الثالث مع كل من حاكم «ألاق قوينلو» أوزون حسن والسلطان محمد الثاني، وكلاهما يمكن اعتبارهما أعداء لقايتباي في العالم الإسلامي[4].

على أية حال، فإن اعتقال قايتباي لموفدي السلطان العثماني والحاكم البهماني، جاء في الوقت الذي قرر فيه السلطان أن يتجنب الاعتراف بأحد المطالبين بالعرش. ومن هذا المنطلق، يمكن أن يفهم موقف قايتباي بعدم إرسال التهنئة لبايزيد الثاني بعد استلامه العرش وعدم تعزيته في وفاة والده[5]، وقد يكون الطمع سبباً آخر لمصادرته الهدية الملكية الهندية.

(1) Inalçik, Halil: «Bursa and the commcere of the levant» JESHO 3 (1960) p141.

(2) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ٢١٥ ـ ٢١٦ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٤٧ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٨٩.

(3) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٥٤.

(4) Aubin, Jean: «les relations diplomatiques entre les Aq - qoyunlus et les Bahmanids» in Iran and Islam, Ed C.B. Bosworth, Edinburg 1971, p11 - 15.

(5) ابن طولون: المصدر السابق، ص ٤٧.

وبغض النظر عن دوافع قايتباي، فإن بايزيد من جانبه، اعتبر هذا الوضع بمجمله إهانة لأبيه ومهاجمة شخصية له «فتأكدت العداوة» على حد تعبير ابن طولون[١].



الصراع الأوروبي ـ المملوكي حول جم

إن حصول جم على تأييد القوة المسيحية في أوروبا، أدى إلى تغيير في مسار السياسة العثمانية، بحيث اضطر بايزيد الثاني إلى اعتماد سياسة خارجية مع أوروبا تراوحت بين السلم حيناً والتهديد بالحرب حيناً آخر، وذلك على مدى أربع عشرة سنة وحتى وفاة جم سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥م[٢].

لقد أصبح جم بعد حضوره إلى جزيرة رودس ومنحه حق اللجوء السياسي، رهينة ثمينة وورقة رابحة بيد أعداء الدولة العثمانية، وأضحى المؤثر الفعلي على مجرى الأحداث السياسية.

فالسلطان بايزيد الثاني بث الجواسيس لرصد تحركاته وللوقوف على أوضاعه، وقام بإرسال موفديه إلى أوروبا للتأكد من عدم مشاركته في الحملات الصليبية. ويبدو أن هذه الجهود الديبلوماسية، كانت ناجحة، بفضل حرص القوى الأوروبية على تهدئة الجبهة الحربية مع العثمانيين في تلك الفترة، خاصة في ظل انعدام وجود وحدة موقف داخل الصف الأوروبي[٣].

ولكن على الرغم من أن سياسة بايزيد الثاني كانت حذرة ومسالمة، إلّا أن الغارات الحدودية لم تتوقف بشكل نهائي لأسباب استراتيجية دفاعية، تقوم على صد هجمات المتاخمين للحدود ومجازاتهم على ما يرتكبونه، وذلك بهدف إبراز القوة العثمانية حتى لا يستخف بها أعداؤها[٤].

وهكذا فمنذ حضور جم إلى رودس ٨٨٧ هـ/ ١٤٧٥م، أصبحت الجزيرة المركز الديبلوماسي العالمي الأكثر نشاطاً، إذ سرعان ما بدأت المفاوضات بين

---

(١) ابن طولون: المصدر نفسه.

(٢) أثر وجود جم في أوروبا على السياسة الخارجية العثمانية ناقشه أحمد السيد دراج في مقالته «السلطان جم والديبلوماسية الدولية»، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٨، ١٩٥٩م، ص ٢٠١ ـ ٢٤٢.

(٣) Schwoebel, Robert: The shadow of the crescent, The renaissance image of the Turk (1453-1517), Newyork 1969, p202-204.

(٤) فريد بك: المرجع السابق، ص ٧٠ ـ ٧٣.

رئيس فرسان القديس يوحنا والسلطان العثماني، انتهت بتوقيع معاهدة صلح نصت على ضرورة إبعاد جم عن رودس لكيلا يسبب قلقاً لبايزيد الثاني، وذلك نظراً لقرب الجزيرة من أراضي الدولة العثمانية. وقد تعهد السلطان العثماني بدفع مبلغ سنوي من المال إليهم نظير قيامهم بمراقبة جم والمحافظة عليه(١)، إضافة إلى التعهد بالمحافظة على استقلال الجزيرة مدة حياته، وإعفائها من دفع الجزية والتعويض عن الخسائر والأضرار التي لحقت بها من جراء حصار محمد الثاني لها في عام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠م، والذي أدى إلى تهدم سورها(٢).

وبعد مضي أربع وأربعين يوما على وجود جم في جزيرة رودس، رُحل إلى فرنسا، حيث نزل في دير من أديرة فرسان القديس يوحنا الموجودة هناك. ولأسباب أمنية تم نقل جم إلى مكان آخر وتحت الحراسة المشددة، وهكذا جعلوه أسيراً. وكان الخوف الأساسي في إسطنبول يكمن في سقوط جم بيد ملك هنغاريا ـ العدو اللدود لبايزيد الثاني ـ الذي حاول إقناع جم بأن ينضم إليه لفتح الروملليي عن طريق المجر ومنها يستأنف جم القتال ضد أخيه(٣). وأمام هذا التهديد، أرسل بايزيد الثاني نهاية سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣م، موفداً له إلى ملك هنغاريا عارضاً عليه توقيع هدنة، فوافق الأخير على طلبه، نظراً لسوء الأوضاع الداخلية التي كانت تواجهها مملكته ولخيبة أمله في الحصول على مساعدة من البابا والانضمام إليه(٤)، فوقّع معه هدنة لمدة خمس سنوات. وبذلك يكون بايزيد الثاني قد أمّن جانبه من الخصم الأكثر خطورة في أوروبا، فحوّل نشاطه ضد مولدافيا بالرغم من معارضة ملك هنغاريا. ولم يكتف السلطان العثماني بذلك، بل صادق حاكم لورنتسو دي ميدتشي ـ حاكم فلورنسا ـ الذي كان لديه تأثير على بلاط فرنسا والبابوية، فأرسل إليه موفداً عارضاً عليه إقامة علاقات تجارية، فرد لورنتسو عليه، بأن زوده بمعلومات وافية عن تحركات جم في فرنسا(٥).

إن تهديد جم لبايزيد الثاني قد حرر البندقية ـ وهي المدينة الأكثر عرضة للقوة العثمانية ـ من دفع الجزية للسلطان العثماني، ولم تكتف من جانبها بذلك، بل حاولت توقيع معاهدة سلام جديدة تحضّ بايزيد الثاني على مساعدتها ضد

(١) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٨٦ ودائرة المعارف الإسلامية: ج ٧، ص ٩٢.
(٢) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ١٦ وفريد بك: المرجع السابق، ص ٦٦ ـ ٦٧.
(٣) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٨٧. يقال ان جم عقد عزمه على الدخول في النصرانية، أنظر دائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩٠ ـ ٩٢.
(٤) Thuasne: op. cit, p 127.
(٥) Ibid, p 117.

خصومها في الداخل[1]. وإرضاءً له، قام حاكم البندقية عام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤م، باعتقال رجل كان في طريقه إلى مصر، وفي حوزته رسائل موجهة من جم إلى والدته، فاستولى على الرسائل وأرسلها إلى السلطان العثماني[2]. ومهما يكن من أمر، فإن الاتصالات الديبلوماسية بين البندقية والعثمانيين قد استرعت انتباه البابا، فأرسل موفداً إلى رئيس فرسان القديس يوحنا، يحثهم على ضرورة إرسال تهديد لبايزيد الثاني، ينص على عدم قدرتهم بعد ذلك على الاحتفاظ بجم، والتأكيد على أن هذا الأخير سوف يترأس جيشاً مسيحيًا موجهاً ضد الدولة العثمانية إذا ما غادرت سفنها غاليبولي.

فيما يبدو، أن استخدام جم كسلاح كان ناجحاً للغاية، اذ أن السلطان العثماني أصدر الأوامر بإيقاف جميع التحضيرات العسكرية البحرية[3].

وبينما كان بايزيد يتابع جهوده الديبلوماسية لتأمين اعتقال جم، قام قايتباي كملوك أوروبا، بمحاولات جادة للحصول على جم، وحافظ على الاتصال به خلال فترة وجوده بالأسر. ففي العام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤م[4]، أرسل قايتباي موفداً له إلى رودس، عارضاً عليهم تجديد معاهدة سلام ٨٨٤ هـ/١٤٧٩م، كذلك وصل في صفر ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م موفد آخر، في محاولة لإقناع زعيمها بتسليم جم إلى مصر مقابل تأمين الحماية اللازمة للفرسان ضد بايزيد الثاني، إلّا أن حاكم رودس رفض العرض بحجة أنه لا يستطيع التخلي عنه دون إذن من البابا[5]. وفي هذا إشارة إلى سعي البابا لإحضار جم إلى روما، ولكن حاكم رودس اغتنم هذه الفرصة، وحاول الاستفادة بأكبر قدر ممكن من الوصاية على جم فحجزه عنده، وأرسل موفداً إلى القاهرة لمتابعة المفاوضات[6]. ويقال إن حاكم الجزيرة استخدم جم ليؤثر على كل من أمه وقايتباي، وحاول ابتزازهم بالحصول على عشرين ألف قطعة ذهبية مدعياً إحضاره إلى مصر، حتى يقال أنه كتب رسائل موقعة بختم جم، الذي حصل عليه مقابل رشوة مالية[7].

إن محاولات قايتباي التي قام بها لاسترجاع جم من فرسان القديس يوحنا،

(١) Shai, Har - El: op. cit, p119.

(٢) Thuasne: op. cit, p 12.

(٣) Shai, Har - El: op. cit, p 119.

(٤) دراج: المرجع السابق، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٥) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٨٦ ـ ١٨٧. Thuasne: op. cit, p 133 - 134.

(٦) Ibid.

(٧) Shai, Har - El: op. cit, p 129.

والتي كانت أخبارها تصل إلى بايزيد الثاني من خلال تقارير دقيقة من القاهرة، قد أثارت غضب السلطان العثماني وحركت حقده تجاه المماليك[١].



استمرار النزاع في الأراضي الحدودية

عندما ترك جم جزيرة رودس، شعر حليفه قاسم بك بن قرمان أنه غير قادر على مواجهة السلطان بايزيد الثاني، لذلك طلب العفو منه، فعفا عنه، وأعطاه جهة «إيج ـ إيل» المحاطة بالأراضي الكيليكية في ظل الحماية العثمانية. ولكن السلطان العثماني لم ينس المساعدة التي قدمها قاسم بك لأخيه جم، فانتظر الفرصة المؤاتية للتخلص وللأبد من القرمانيين، وقد تحقق له ذلك بوفاة قاسم بك في محرم ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣م، فاختار عندها القرمانيون وبموافقة السلطان بايزيد الثاني ترغود أغلو محمد بك من سلالته، وجاء السفراء من دول الإسلام ومن دولة المماليك للتهنئة[٢].

وفقاً لما أورده أحد المؤرخين القرمانيين، فإن قاسم بك وأبناءه الثلاثة وأخاه قد سمموا من قبل حاكم قرمان بإيعاز من العثمانيين[٣]، وهكذا فإن العائلة القرمانية، بوفاة قاسم بك، قد آلت إلى النهاية بعد حكم دام ما يقارب القرنيين من الزمن[٤]. وأصبح باستطاعة السلطان العثماني استرجاع «إيج ـ إيل»، وضمها إلى الإمارة القرمانية، ولكن أوضاع هذه الجهة بقي مضطرباً بسبب أن ترغود أغلو محمد بك، قرر عند توليه الحكم تحدي العثمانيين، فهاجم العاصمة القرمانية، ولكن بعد عدة أيام من حصارها، مني بهزيمة أجبرته على الانسحاب.

وقد تبين للعثمانيين تحالف المماليك مع قوات محمد بك ومشاركتهم في هذه المحاولة، وعلى الرغم من فشلها، إلّا أنها كانت إشارة واضحة إلى بداية التحرك العسكري ضدهم[٥].

هناك فريق آخر من القرمانيين «الورسق» أو تركمان طرسوس على حد تعبير القلقشندي[٦]، كانوا أصعب للخضوع، فقد سكنوا بداية المنطقة التي تقع في

(١) Thuasne: op. cit, p 118 - 119.
(٢) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ١٧ ـ ١٨. وحليم: المرجع السابق، ص ٧١ ـ ٧٢.
(٣) سعد الدين: المصدر نفسه. (٤) القرماني: المصدر السابق، ج٢، ص ٥١٦.
(٥) Shai, Har - El: op. cit, p 122.
(٦) القلقشندي: المصدر السابق، ج٧، ص ٣٠٥.

الأراضي الجبلية الطوروسية بين قرمان العثمانية وكيليكيا المملوكية. وبحكم انتقالهم من مكان إلى آخر، اتجه البعض منهم إلى الأراضي الكيليكية المملوكية وتحالفوا مع المماليك فانضموا سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢م إلى الأمير جم وقاسم بك. وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بهم في «ينشهر» عام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١م، إلّا أنهم عادوا واشتركوا معهما في الهجوم على الأراضي العثمانية[١]. ولم يلبثوا بعد وفاة قاسم بك أن تحالفوا مع خلفه محمد بك، فالتحقوا معاً في رجب ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣م إلى القوات المملوكية المتوجهة لقتال علاء الدولة، حليف العثمانيين.

إن الأمراء القرمانيين، ومن خلال صراعهم الطويل ضد محمد الفاتح وابنه بايزيد الثاني قد وجدوا ملجأ سهلاً لهم في المناطق الجبلية، وعند الضرورة يتجهون إلى الأراضي المملوكية الشمالية في كيليكيا. إن تحالف هؤلاء التركمان مع المماليك، قد أثّر على العلاقات المملوكية ـ العثمانية، لذلك اندفع العثمانيون إلى استمالة فريق منهم، فدعمته وأمدته بالمال والسلاح، الأمر الذي ولّد إنشقاقاً داخل الصف القرماني الواحد، اضطر معه القاطنون في الأراضي الكيليكية، للتوجه إلى دمشق عام ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م قاصدين السلطان المملوكي، وطالبين مساعدته وتدارك بلادهم من ابن عثمان[٢].

وعلى هذا، فإن استمرار النزاع بين المماليك والعثمانيين في الأراضي الحدودية، قد وجد مشجعاً له في موقع كيليكيا الاستراتيجي المهم، حيث أنها منطقة تزخر بثروتها الطبيعية، فهي غنية بالثروة الخشبية الموجودة بكثرة في جبال طوروس، والتي كانت بلاد الشام ومصر تستوردان حاجاتهما منها لاستخدامها في بناء السفن.

إن الرحالة المسلم ابن بطوطة، عندما حط في كيليكيا عام ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣م، وجد أن المرفأ في آياس كان مشغولاً بتصدير الخشب إلى مصر[٣]، وأيضاً خلال الأعوام التالية ٨١٦ هـ / ١٤١٤م و٨٨٣ هـ / ١٤٧٨م، زار فريق بحري مملوكي الجون ـ وهو على ساحل البحر المتوسط ببر التركية ـ لإحضار الأخشاب من هناك[٤]. وكان عبور الممرات الجبلية في كيليكيا يعتبر أهم من الثروة الخشبية، فقوافل المسافرين والتجار والحجاج كانت تتعرض باستمرار لغارات البدو المكلفة جداً ولعمليات السلب والنهب أما بعد سيطرة الترغود

(١) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٧.
(٢) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٧٣.
(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ١٠٩ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ١٤٥.

والورسق على هذه الممرات، أصبحت هذه القوافل تحت رحمة قطاع الطرق الجدد، الذين عمدوا إلى جباية الضرائب المتعلقة «بالترانزيت»، ممّا أضرّ بحركة التجارة ضرراً بالغاً أصبح معه وضع اليد على الممرات أمراً يعني كل من المماليك والعثمانيين على السواء، لذلك سعت كلتا الدولتان لأن تضع يدها على هذه المنطقة الحدودية.


٥

المساعدة العثمانية لإمارة دلغادر وبدء المواجهة

إن تعاون المماليك مع تركمان الترغود والورسق، قد أثار استياءً شديداً لدى السلطان العثماني، ومع رفض قايتباي طلب بايزيد الثاني السماح له بالقيام ببعض الاصلاحات في مكة[١]؛ مثلما رفض سلاطين المماليك في السابق طلب تيمورلنك كسوة الكعبة؛ لم يسع بايزيد الثاني سوى أن يتحرش بسلطنة المماليك، فاتخذ إمارة دلغادر مسرحاً لذلك التحرش[٢]، على اعتبار أن علاء الدولة حاكم هذه الإمارة قد ترامى على ابن عثمان واشتكى له من أفعال السلطان وما يصدر منه من مضايقات اتجاهه[٣].

ونتيجة للأسباب التي أدت إلى توتر العلاقات المملوكية ـ العثمانية والتي سبق التعرض لها وشرحها، فقد تجمعت لدى السلطان العثماني العوامل التي جعلته يتخذ موقفاً عدائياً صريحاً من السلطنة المملوكية، فتصرف على محورين:

الأول: أنه ساند عسكرياً، عام ٨٨٨ هـ/١٤٨٣م، علاء الدولة الذي هاجم ملطية التابعة للمماليك[٤].

الثاني: أنه أحكم سيطرته على الطرق التجارية وعلى مصدر الخام البالغة الحيوية للمماليك كأخشاب السفن مثلاً، وبذل جميع المحاولات لإضعاف طاقتهم

---

(١) لقد حصل لأهل مكة ضرراً كبيراً من جراء عطل عين عرفات التي أجراها السلطان قايتباي حول هذا الأمر انظر السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ٩٥٠ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٩.

(٢) زيادة، محمد مصطفى: «نهاية السلاطين المماليك في مصر»، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥١ م، ص ٢٠٥.

(٣) الغيائي: المصدر السابق، ص ٣٦٨ والظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٣٢٣ والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠٢.

(٤) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٣٥٠ وابن إياس: المصدر السابق، ص ٢٠٢.

العسكرية، كما عرقل شراء الفتيان من أسواق البحر الأسود لنقلهم إلى مصر[1].

فيما يتعلق بالخطوة التي أقدم عليها علاء الدولة، فهي إضافة إلى أنها تعتبر خروج عن طاعة سلطان مصر، فقد كانت بمثابة تصدع لأهم الدعائم الدفاعية المملوكية في جنوب شرقي الأناضول. لذلك وحرصاً من قايتباي على عدم تكرار قضية شاه سوار ـ شقيق علاء الدولة ـ أرسل في رجب ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣م حملة عسكرية إلى حلب لتأديب حاكم دلغادر[2]، وبها عدد من الأمراء ونحو خمسمائة عنصر من الجند وأنفق عليها أكثر من سبعين ألف دينار[3].

انطلقت الحملة العسكرية من حلب وهاجمت الأراضي الدلغادرية، وعاثت فيها دماراً وخراباً، فاستنجد علاء الدولة بالسلطان العثماني وطلب منه دعماً عسكرياً.

إن أخبار حشود الجند المملوكي في حلب، وتحرك العناصر التركمانية ـ الترغود والورسق ـ الموجودة في الأراضي الكيليكية، كانت قد وصلت إلى بلاط بايزيد الثاني عبر تقرير من الحاكم العثماني في قرمان[4]، لذلك لبى السلطان العثماني نداء علاء الدولة وأمده بعساكر كثيرة[5]، تضمنت إضافة إلى العناصر العثمانية، أخرى تركمانية انشقت عن قوات محمد بك المتحالف مع المماليك وتعاونت مع بايزيد الثاني[6].

لقد اعتبر المؤرخان الظاهري وابن إياس أن التدخل العسكري العثماني هو بداية تحولية في الصراع المملوكي ـ العثماني، «فهو أول تحرك لابن عثمان على بلاد السلطان واستمرت الفتن من بعد ذلك تتزايد»[7].

---

(١) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٣٥٣ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٣) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٣٥٤ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٢٠٣ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٦١.

(٤) TKS. Doc. No 5972.

Military communication to the imperial council (1483) on Turgud's rebellion and Mamluk army concentration in Allepo. Published by S. Tansel and I. H. Ertaylan. Quoted by Shai, Har - El: op. cit, p125.

(٥) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٣٦٢ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠٦.

(٦) ابن طولون: المصدر السابق، ص ٧٣.

(٧) الظاهري: المصدر السابق وابن إياس: المصدر السابق.

وكرد مملوكي على المساعدة العثمانية لعلاء الدولة، أرسل قايتباي حملة عسكرية ثانية في محرم ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤م تقوية للحملة الأولى، وضع عليها تمراز الشمسي[(١)] أمير السلاح، وصحبته عدد من الأمراء ومن مماليك السلطان ما يزيد على الألف عنصر[(٢)].

وأسفرت المناوشة الأولى التي جرت بين المماليك وعلاء الدولة في صفر من العام نفسه عن خسارة العسكر المملوكي، ذلك أن علاء الدولة كان قد قام بنصب الكمائن وفرّ بعد ذلك من أرض المعركة[(٣)]، الأمر الذي أدى إلى قتل جماعة كثيرة من الجند[(٤)]. وجهزت عدة رؤوس من أعيان العساكر المملوكية إلى السلطان العثماني[(٥)].

ونتيجة لذلك عين قايتباي حملة جديدة مدداً لما سبقها، فخرجت في جمادى الأولى، تحت إمرة تمراز، وبلغ عدد الجند نحو ألف مملوك، ولكن نائب حلب، وقبل وصول هذه الحملة، خرج في جمع من العساكر، واتقع مع قوات علاء الدولة المدعومة من السلطان العثماني، فانكسر العسكر الحلبي وقتل نائب حلب وجماعة كثيرة من الجند[(٦)] «ولولا اللطف لفنوا عن آخرهم»[(٧)] على حد تعبير السخاوي.

لما حلّت هذه الهزيمة، توجه الأمير تمراز بحملته نحو الأراضي الدلغادرية بعد أن انضمت إليه القوات الدمشقية وقوات أزدمير الصيفي[(٨)]، وفي شهر رمضان اصطدموا بقوات علاء الدولة، وانتهت هذه المعركة بهزيمة عسكر علاء الدولة وعسكر ابن عثمان بالإضافة إلى أنه قتل عدداً كبيراً من أمراء حلب واعتقل آخرون[(٩)].

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص ٣٦.
(٢) البصروي: المصدر السابق، ص ٩٤ وشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمربن الحمصي: حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٩٩٠م، ج١، ص ٢٩١ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٦١ ـ ٦٢.
(٣) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ٩٤٩.
(٤) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠٦ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٠.
(٥) السخاوي: المصدر السابق، ، ص ٣، ص ٩٤٩
(٦) السخاوي: المصدر نفسه، ص ٩٤٩ والظاهري: المصدر السابق، ص ٣٨٨ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ٢١١.
(٧) السخاوي: المصدر نفسه، ص ٩٥٠.
(٨) البصروي: المصدر السابق، ص ٩٤.
(٩) البصروي: المصدر نفسه، ص ٩٨ والظاهري: المصدر السابق، ص ٣٩٠ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٣.

إن المؤرخ البدليسي لام علاء الدولة على هربه من أرض المعركة وحمّله مسؤولية هزيمة العثمانيين[١].

ومهما يكن من أمر فإن علاء الدولة الذي نجح في إقناع العثمانيين بمشاركته عسكرياً في صراعه ضد المماليك، وقع في الشرك الذي نصبه، وعاد العسكر المملوكي المنتصر إلى حلب حاملاً معه رايات العثمانيين المنكسة[٢]. وخوفاً من هجوم مضاد، بقي العسكر في حلب ما يقارب أربعة أشهر. وفي محرم ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م، عاد إلى قواعده في دمشق والقاهرة، كما عاد إلى القاهرة الأمراء والمماليك الذين أطلق سراحهم علاء الدولة[٣].



مبادرة السلام المملوكية والإجراءات الدفاعية

على الرغم من المناوشات العسكرية التي جرت بين المماليك والعثمانيين والتي كان سببها المباشر علاء الدولة، إلّا أن السلطان قايتباي كان يؤثر السلامة على الحرب، لذلك حرص جاهداً على إخراج حاكم الإمارة الدلغادرية من دائرة الصراع بينهما.

وبناءً على هذا، جمع السلطان الأمراء في ذي الحجة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤م وتشاور معهم في أمر السلطان العثماني وتعصبه لعلاء الدولة، فتقرر إرسال موفد إلى إسطنبول لإجراء مباحثات من أجل إزالة أسباب العداء بين الدولتين. فعين السلطان قايتباي لهذه المهمة الديبلوماسي البارع الأمير جاني بك حبيب، أمير آخور ثاني[٤]، وكان حلو اللسان سيوساً، سبق أن توجه إلى يعقوب بن حسن الطويل سنة ٨٨٦ هـ ـ ١٤٨١م، ونجح في مهمته[٥].

في صفر ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م سافر الموفد بحراً من الإسكندرية حاملاً معه

---

(١) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٠. إن المؤرخ سعد الدين استقى معلوماته من إدريس البدليسي الذي كان معاصراً للاحداث. خبر البدليسي عند الغزي في الكواكب السائرة، ج١، ص ١٦٠.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٣.

(٣) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٤٠٢ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢١٣ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٦٥ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٠.

(٤) أمير آخور ثاني: من أرباب الوظائف من الأمراء أرباب الطبول انظر محمد بن عيسى ابن كنان: حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين تحقيق عباس صباغ، دار النفائس ط١، ١٩٩١م، ص ١٢٦.

(٥) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٤٠٢ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٣، ـ ٢١٥.

هدية ملك الهند الخاصة بالسلطان العثماني[١]، مع رسالة اعتذار من السلطان قايتباي بسبب حجزها في القاهرة، وهدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار ومصحف هائل[٢]، بالإضافة إلى تقليد من الخليفة إلى بايزيد الثاني بأن يقوم مقام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحه الله على يده من البلاد الكفرية، ورسالة شخصية تتضمن الحث على إخماد الفتنة التي نشأت بين الدولتين والعمل على تجنب الحرب بينهما، وفيها بعض ترقق له[٣].

لقد حرص الخليفة من خلال التقليد الذي أرسله إلى بايزيد الثاني، على إظهار موقع سلطان المماليك ومكانته في العالم الإسلامي، والتأكيد على أن السلطان العثماني هو سلطان الروم فقط وبأن انتصاراته وتوسعاته هي خارج نطاق الدولة الإسلامية.

على أنه مهما يكن من أمر، فإن السلطان قايتباي الذي قام بالمبادرة السلمية، حرص في الوقت نفسه على اتخاذ إجراءات عسكرية دفاعية. ففي ربيع الأول ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥م، عين قايتباي حملة عسكرية أخرى لمقاتلة علاء الدولة[٤] وعلى رأسها برسباي رأس نوبة النواب[٥]، وتاني بك الجمالي أحد المقدمين[٦]، ورسم لهم أن يتقدموا القوة العسكرية إلى أن يخرج الأتابكي[٧] أزبك، وبلغت النفقة على هذه الحملة أكثر من مائة ألف دينار، وخرجت من القاهرة في ربيع الآخر[٨].

في هذه الأثناء أمر نائب دمشق بإطلاق سراح شاه بداق ـ شقيق علاء الدولة ـ من سجن قلعة دمشق[٩]، بغير أذن السلطان، وأخذه معه لقتال أخيه وأعطاه ما

(١) الظاهري: المصدر نفسه، ص ٤٠٥ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٢١٥ وطقوش: تاريخ المماليك، ص ٤٨٩.
(٢) السخاوي: المصدر السابق، ج٣، ص ٩٥٨ وابن إياس: المصدر نفسه.
(٣) ابن إياس: المصدر نفسه. الخليفة هو المتوكل على الله أبو العز انظر السيوطي: المصدر السابق، ص ٥٨٤.
(٤) السخاوي: المصدر السابق وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢١٦.
(٥) من أرباب الوظائف بالحضرة الشريفة ومن أرباب السيوف والمقدمين انظر ابن كنان: المصدر السابق، ص ١١٨.
(٦) المقدم في العسكر على ألف من الفرسان انظر ابن كنان: المصدر نفسه، ص ٢٤٣.
(٧) أتابك أصله بالتركية أطابك، أي أب أمير، وهو غالباً لا يكون إلا مع النائب الكافل والكافل هو من ينوب عن السلطان في عامة أموره انظر ابن كنان: المصدر نفسه، ص ١١٣.
(٨) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٦.
(٩) اعتقل شاه بداق، وسجن في قلعة دمشق على أثر فراره من أخيه علاء الدولة الذي انتزع منه الحكم. انظر ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٧ ـ ٣٢.

يحتاج إليه «خيلاً ومالاً وقماشاً وزاداً» على حد تعبير ابن طولون. ولكنه بعد فترة وجيزة عدل نائب دمشق عن رأيه وأعاد شاه بداق إلى السجن وأخذ منه جميع ما كان أجازه له[١]، وذلك بسبب ورود خبر مفاده أن التركمان الطائعين حصل بينهم خلاف نتيجة إطلاق سراح شاه بداق، وأرادوا العصيان مع علاء الدولة[٢].

في جمادي الأولى، ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م وصلت الحملة العسكرية المصرية إلى دمشق ثم انضمت بعد ذلك إلى فرقة الجنود الشامية[٣].

وفيما يتعلق بقوة الأتابكي أزبك فإنها لم تشارك في هذه الحملة ـ كما خطط سابقاً ـ ولعل عدم جهوزيتها الكافية قد يكون وراء ذلك.

في الطرف العثماني وبالعودة إلى المفاوضات الديبلوماسية، فإن بايزيد الثاني استقبل جاني بك حبيب أسوأ استقبال، وأخبره بأنه غير راجع عن أذاه لعسكر مصر[٤].

فعلى الرغم من اعتذار قايتباي ورده للهدية التي احتجزها سابقا، إلّا أن بايزيد الثاني فيما يبدو لم يغب عن باله السبب الأساسي للعداء وهو المساعدة التي قدّمها قايتباي ولا يزال لأخيه جم.

(١) البصروي: المصدر السابق، ص ١٠٢ وابن طولون المصدر نفسه، ص ٦٧.
(٢) البصروي: المصدر نفسه وابن الحمصي: المصدر السابق، . ج١، ص ٢٩٧.
(٣) ابن الحمصي: المصدر نفسه، ص ٢٩٨ وابن طولون: المصدر نفسه، ص ٦٧ ـ ٦٨.
(٤) البصروي: المصدر السابق، ص ١٠٥ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢١.

الباب الثاني

الحرب العثمانية ـ المملوكية الأولى

٨٨٩ ـ ٨٩٦هـ/ ١٤٨٤ ـ ١٤٩١م

ـ **الفصل الأول**: الاحتلال العثماني لكيليكيا.
٨٨٩ ـ ٨٩١ هـ/ ١٤٨٤ ـ ١٤٨٦ م.

ـ **الفصل الثاني**: الصراع في المجال الديبلوماسي.
٨٩١ ـ ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٦ ـ ١٤٨٩ م.

ـ **الفصل الثالث**: معركة آغا ـ جايري.
٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨ م.

ـ **الفصل الرابع**: نهاية الحرب ومعاهدة السلام.
٨٩٤ ـ ٨٩٧ هـ/ ١٤٨٩ ـ ١٤٩٢ م.

الإحتلال العثماني لكيليكيا

٨٨٩-٨٩١هـ/ ١٤٨٤-١٤٨٦



الإحتلال العثماني الأول لمنطقة أدنة وطرسوس

بين الهدوء النسبي الذي شهدته الجبهة العثمانية ـ الأوروبية وخاصة بعد توقيع العثمانيين معاهدتي سلام مع الملك الهنغاري ماتياس كورفينوس(١) والبندقية(٢)، وبين التوتر الحاصل داخل أراضي الدولة المملوكية نتيجة الثورات وعمليات الشغب التي قام بها عرب مصر وبلاد الشام(٣)، وعجز السلطة عن ردعهم وصدهم(٤)؛ فإن السلطان بايزيد الثاني رأى نفسه في وضع جيد يسمح له بالتدخل في شؤون الدولة المملوكية للتمدد على حسابها «والزحف على هذه المملكة» على حد تعبير ابن طولون(٥). فالفرصة أضحت مؤاتية للتحرك العسكري والإستيلاء على باقي إمارات آسيا الصغرى، وخاصة مع وصول رسالة من قبل الجاسوس العثماني الموجود في بلاد المماليك، والذي يدعى أياس، إلى السلطان بايزيد الثاني على يد قاصد يدعى مصطفى، يصف له فيها الاضطراب الذي يسود مصر والشام ويستحثه على أن يقتنص هذه الفرصة ويهاجم المماليك ويرسل بعض السفن إلى طرابلس الشام والإسكندرون لكي يتمكن من إدخال الدولة في طاعته(٦).

وبناءً على ما تقدم، فقد استعد بايزيد الثاني للتحرك العسكري ومواجهة

(١) Thuasne: op. cit, p 127.
(٢) Ibid, p 121.
(٣) لمزيد من المعلومات عن عرب مصر وبلاد الشام انظر عبد المنعم ماجد: طومان باي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨، ص ٦٢ ومابعدها.
(٤) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٦٦ - ٧١.
(٥) المصدر نفسه: ص ٧٠.
(٦) متولي، د. أحمد فؤاد: الفتح العثماني للشام، ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة، مصر ١٩٧٦ م، ص ٣٦.

المماليك، فقام بتجهيز حملة عسكرية ضخمة تحددت أهدافها بالأمور التالية:

ـ دمج أدنة، وطرسوس على طول الحدود الطوروسية.

ـ إخضاع الرمضانيين ـ الحلفاء الأكثر وفاءً للمماليك ـ للسيطرة العثمانية المباشرة.

وكخطوة تنفيذية، فوّض السلطان العثماني قيادة هذه الحملة العسكرية إلى أمير أمراء قرمان، محمد باشا كراكوز، وأوعز إليه بضرورة الانضمام والتعاون مع حاكم إمارة دلغادر، علاء الدولة، وحاكم منطقة «إيج ـ إيل»، لتنفيذ الخطة العسكرية الهجومية(١).

في جمادي الأول ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م وبدون إنذار مسبق، انطلق الجيش العثماني من مواقعه، فاجتاز الحدود المملوكية وحاصر قلعة كولك ـ إلى الشمال من طرسوس ـ وكان بها شخص من مماليك السلطان قايتباي اسمه طوغان الساعي، لم يبد أية مقاومة في وجه القوة العسكرية العثمانية، فتسلم الجيش القلعة بالأمان(٢).

ومع أخبار اقتراب الجيش العثماني باتجاه الجنوب من الأراضي الكيليكية، فإن نائب طرسوس قانصوه الغوري مع جماعة من المماليك تركوا مواقعهم هرباً وتوجهوا باتجاه حلب(٣)، تاركين مهمة الدفاع عن المدينة للتركمان الموجودين في المنطقة(٤).

تابع الجيش العثماني مهمته بنجاح كبير، فعبر جبال طوروس، واستولى على عدة مدن من مملكة السلطان المملوكي(٥) فأخذ طرسوس، أدنة، والمصيصة، وشيّع النواب الذين كانوا فيها من جهة السلطان قايتباي وبقية الأمراء التركمانيين وعدد كبير من مماليك السلطان المملوكي(٦).

على الرغم من سقوط هذه المدن الواحدة تلو الأخرى بسهولة بيد الجيش العثماني، وبدون مقاومة تذكر، إلّا أن هذه الحملة العسكرية اقتصرت فقط على احتلال أطراف بلاد السلطان المملوكي(٧)، ولم تصل إلى آياس وسيس.

---

(١) حليم: المرجع السابق، ص ٧٢.

(٢) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٤٢١ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٨.

(٣) الغزي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٩٤ وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ج٨، ص ١١٣ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٨.

(٤) عن أماكن سكن التركمان في كيليكيا انظر القلقشندي: المصدر السابق، ج٤، ص ١٤١ ـ ١٤٢.

(٥) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٧٠.

(٦) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٢ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٩.

(٧) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٩.

إن الأمير عمر بك بن رمضان الذي جلا عن أدنة ـ وهي مقعد الحاكم الرمضاني ـ قبل دخول العثمانيين، قد فضل فيما يبدو مقابلة الجيش العثماني في أراض مفتوحة على أن يحارب في معركة خاسرة تحت شدة الحصار(١).

ونتيجة لما حققه من نجاح في كيليكيا، انتهج السلطان العثماني سياسة ذات اتجاهين، فإلى جانب استعداداته العسكرية الدفاعية للبقاء في المنطقة، فإنه أراد أن يبرهن للمماليك بأن حملته العسكرية التي قام بها كانت وفقاً لتعاليم الشرع الإسلامي، فأرسل موفداً له إلى القاهرة حاملاً رسالة رسمية مرفقة بفتوى شرعية نصت على ضرورة معاقبة تركمان الترغود والورسق، بسبب ارتكابهم المستمر لأعمال السلب والنهب وقطع طريق الحج وتهديد طرق التجارة والتعرض لأمن إمارة قرمان، بالإضافة إلى معاقبة الأرمن(٢)، وذلك نظراً لتهديدهم التجارة عن طريق فرض ضرائب المرور واعتدائهم على قوافل المسافرين ورفضهم دفع الجزية والخراج(٣).

لقد أكدت الرسالة بأن هدف الجيش العثماني، من وراء احتلاله أطراف بلاد السلطان المملوكي ولا سيما طرسوس وأدنة، هو إخضاع التركمان لنفوذ العثمانيين على اعتبار أن المماليك قد تخلفوا عن مواقعهم الدفاعية في كيليكيا لصالح هؤلاء التركمان، وقد طالب موفد السلطان العثماني بضرورة تسليم أم جم وعائلته الذين كانوا يقطنون في البلاط المملوكي(٤).

من الجانب المملوكي وكرد فعل متوقع، رفض السلطان قايتباي طلب السلطان العثماني المتعلق بتسليم عائلة جم، وأبى الاعتراف بحكم بايزيد الثاني على كيليكيا، وعامل الموفد العثماني بقليل من الاحترام، وسافر القاصد وحده(٥).

أمام الرفض المملوكي، وجد بايزيد الثاني نفسه مضطراً للبقاء في كيليكيا، فقام بتحضيرات عسكرية دفاعية وإدارية، فأمر بترميم وتحصين القلاع، وعين فرهاد بك

---

(١) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٩.

(٢) على الرغم من الدمار الشامل الذي أصاب بلاد الأرمن خلال الاحتلال المملوكي والتركماني لأرمينيا الصغرى، في القرنين السابع والثامن الهجريين، والهجرة الهائلة من هذه المنطقة، إلا أن قسم من الأرمن استمر بالعيش في كيليكيا دون ضرر، وكان للأرمن حرية ممارسة عقائدهم الدينية ولهم كنائس استمر وجودها حتى بعد العصور الحديثة انظر دائرة المعارف الإسلامية: ج١٢، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.

(٣) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٩.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٧ ـ ٣٩٠.

(٥) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٨٩. Shai, Har - El: op. cit, p 137.

وموسى بك ـ حاكم أنقرة ـ ومصطفى بك ـ حاكم قيصرية ـ وعلي بك ـ حاكم طرابزون ـ لإدارة شؤون هذه المنطقة ومحمد باشا كراكوز لحماية ممر طرسوس(١).



المماليك يردون القوات العثمانية المحتلة

عقب توسع السلطان العثماني في أطراف بلاد السلطان المملوكي، أرسل أزدمر الصيفي ـ نائب حلب ـ في شعبان ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م، تقريراً إلى القاهرة يتضمن ما جرى من أحداث ويستحث فيه السلطان قايتباي على خروج حملة عسكرية ثقيلة أو يخرج السلطان بنفسه.(٢)

وأمام طلب عمر بك بن رمضان ـ الذي ترك أدنة عند الهجوم العثماني ـ المساعدة العسكرية بسبب انضمام الأمراء التركمان إلى العثمانيين الواحد تلو الاخر، وجد قايتباي نفسه مضطراً للدفاع عن أراضيه بوجه الاعتداءات العثمانية. فالسلطان المملوكي قد أدرك حقيقةً بأن المدن التي استولى عليها بايزيد الثاني هي مفتاح أراضي بلاد الشام ومصر وأن خسارته لها سوف تعرض سلطته لخطر الزوال(٣).

وبناءً على ذلك فقد نادى العسكر للعرض(٤)، وفي الوقت نفسه أرسل نجدة لأمراء رمضان والترغود والورسق، واستحثهم على مواجهة الجيش العثماني واعداً إياهم بالدعم العسكري القريب(٥).

عند نهر جيحان بالقرب من سيس، وفي معركة غير متكافئة، انهزمت القوات التركمانية أمام القوات العثمانية، وقتل فيها أمير الترغود وأسر عمر بك بن رمضان، وعقب ذلك قام الجيش العثماني المنتصر بحركة تطهير واسعة شملت الأراضي الكيليكية، وذلك لتعقب الفرق التركمانية، ثم عاد إلى أدنة(٦).

من الجانب المملوكي وبعد تحضيرات طويلة، خرجت الحملة العسكرية في

---

(١) سعدالدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥١.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٩، ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٥.
(٣) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥١.
(٤) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٢٤٢ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٩، ودهمان: المرجع السابق، ١٨٥.
(٥) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٢١٩، ٢٢٠.
(٦) shai. Har - El: op. cit, p 138.

شوال ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م، وعلى رأسها الأتابك أزبك ومعه قانصوه خمسمائة[١] أميرآخور كبير[٢]، وتاني بك قرا حاجب الحجاب[٣]، وتغري بردي ططر[٤] أحد المقدمين الألوف[٥]، إضافة إلى مقدمين أخر. وبلغ جملة الأمراء المقدمين تسعة وعدد الجنود ثلاثة آلاف مملوك[٦]، وقد انضمت هذه القوة إلى الجيش الدمشقي بقيادة، قجماس الأسحاقي[٧]، وتوجهوا جميعاً باتجاه الشمال[٨]، حيث وصلوا إلى حلب والتحقوا بجيشها.

فيما يبدو أن ضخامة هذه القوة العسكرية قد أخافت علاء الدولة وأثرت عل قراره السياسي، ففي ذي الحجة ٨٩٠ هـ ١٤٨٥م، جاءت الأخبار إلى القاهرة من نائب حلب تفيد أن حاكم دلغادر يسأل الصلح[٩].

في هذه الأثناء وعندما أرسل السلطان بايزيد الثاني موفداً إلى علاء الدولة طالباً منه العون والمساعدة والانضمام إلى الجيش العثماني عند الضرورة، ردّ عليه حاكم دلغادر برسالة تضمنت أخبار تحركات الجيش المملوكي في حلب، وعبّر عن جهوزيته التامة للوقوف إلى جانب الجيش العثماني، وذكر أيضاً بأن موفد مملوكي كان قد زاره وأشار إليه برغبة المماليك بالسلام[١٠].

في الواقع، إن علاء الدولة رأى نفسه واقعاً بين فكي الكماشة المملوكية والعثمانية، وأدرك أنه لن يسلم من تعديات السلطان العثماني ومحاولاته الحثيثة للسيطرة على المنطقة، لذلك فقد التمس سياسة حذرة أمام السلطانين القويين،

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص ١٩٩.
(٢) أمير آخور: هو المتكلم على ارباب الاسطبلات انظر ابن كنان: المصدر السابق، ص ١١٥.
(٣) حاجب الحجاب: عادته ان يكون مقدم ألف، وهو يلي النائب في المرتبة انظر ابن كنان: المصدر نفسه، ص ٤٨.
(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص ٢٨.
(٥) مقدم الألف يكون أمير على ألف من العسكر انظر ابن كنان: المصدر السابق.
(٦) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٤٢٩ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢٠ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥١، ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٥.
(٧) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص ٢١٤.
(٨) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٧١ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥١.
(٩) الظاهري: المصدر السابق، ج٧، ص ٤٣٦ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢١ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٥.
(١٠) Shai, Har-El: op. cit, p 139.

وضمنياً تردد في الهجوم على القوات المملوكية إلّا إذا كان تحركهم العسكري موجهاً ضده مباشرة.

مهما يكن من أمر فإن الجيش المملوكي، المؤلف من القوات المصرية والدمشقية والحلبية المشتركة، انطلق في ذي القعدة من حلب باتجاه كيليكيا، وبعد أن اجتاز ممرات بلاد الشام، وصل إلى آياس، حيث باشر القيام بمناوشات عسكرية. ولأسباب «لوجستية» ابتدأ بقذف المدافع من آياس كمقدمة لمحاصرة مدن أدنة وطرسوس[(١)]، ثم قام بعبور جسري المصيصة ـ فوق نهر جيحان، والذي تم إصلاحه في تلك الفترة ـ وأدنة ـ فوق نهر سيحان ـ حيث التقى بالجيش العثماني في معركة حامية الوطيس، انكسر فيها العثمانيون.[(٢)]

إن موسى بك وفرهاد بك، اللذين توليا مهمة الدفاع عن كيليكيا من قبل السلطان العثماني، قد غفلا عن الاحتياط، فقتلا مع كثير ممن كان معهما من العساكر[(٣)]. أما الأتابكي أزبك فقد تابع مهمته العسكرية وحاصر أدنة ودمر سورها بالمنجنيق[(٤)].

وأمام هذا الانتصار المملوكي، فإن السلطان بايزيد الثاني، الذي ساءته أخبار هذه الهزيمة، أمر بتحضير حملة عسكرية جديدة أوكل أمر قيادتها إلى صهره أحمد باشا ابن هرسك ـ حاكم الأناضول ـ وطلب منه الانضمام إلى محمد باشا كراكوز[(٥)]؛ الموكول إليه مهمة حماية ممرات كيليكيا ومراقبة تحركات الجيش المملوكي، والذي كان في تلك الفترة يقوم بمهمة عسكرية استطلاعية.

وبناءً على طلب السلطان العثماني فقد ترك ابن هرسك قلعة كولك وعبر طرسوس وأخضع الفرق التركمانية المؤيدة للمماليك، ثم أغار على أدنة. ولكنه لم يلبث في مهمته هذه طويلاً حتى عاد أدراجه من حيث أتى وذلك بناءً على طلب من علاء الدولة الذي استمهله بعض الوقت قبل الهجوم على الجيش المملوكي، فضلاً عن بلوغه أخبار من الجانب العثماني ذات أهمية استدعت رجوعه[(٦)].

بعد فترة قصيرة، التحق الجيش العثماني، بقيادة ابن هرسك، بقوات محمد

(١) الصيرفي: إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(٢) الغيائي: المصدر السابق، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.
(٣) حليم: المرجع السابق، ص ٧٢ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٩٠.
(٤) الغيائي: المصدر السابق، ص ٣٦٩ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥١.
(٥) سعد الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص ٥١ وحليم: المرجع السابق، ص ٧٣.
(٦) حليم: المرجع نفسه.

باشا كراكوز وتقدموا جميعاً باتجاه أدنة[١]، حيث التقت العساكر المملوكية والعثمانية في صفر ٨٩١ هـ/ ١٤٨٦ م، في معركة حامية الوطيس، كان الظفر للأولين مع أنه قتل بينهما جماعة، فمن المماليك العدد اليسير ومن العثمانيين الجم الغفير، وأحيط بابن هرسك بعد أن قطعت جملة من أصابعه، وبولدي سوار اللذين كانا بقلعة أدنة[٢].

لقد ألقي اللوم على محمد باشا كراكوز، واتهمه السلطان بايزيد الثاني بالخيانة، لأنه هرب في بداية المعركة وترك ابن هرسك يواجه مصيره وحيداً[٣]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن محمد باشا كراكوز عند بدء المعركة ترك ابن هرسك ولم يقدم له أية مساعدة على أمل أن يصاب فيأخذ وظيفته، توهما منه أن يقلدها، فانهزم الجيش العثماني وحصل ما حصل[٤].

في ربيع الأول ٨٩١ هـ/ ١٤٨٦م، وصلت إلى القاهرة أخبار أفادت بأن الجيش المملوكي قد ظفر بكثير من السلاح والدواب والسناجق وبخلق كثيرين جداً، منهم بعض مماليك سلطانية ممن تسحب قبل إليهم[٥]، وقد قطعت عدة رؤوس من عسكر السلطان العثماني وألقي القبض على ابن هرسك[٦]، وإن الجيش المملوكي قد استرجع معظم المدن والقلاع التي أخذت منه[٧] ـ والمتقدم ذكرها سابقا.

على أثر انتصار الجيش المملوكي في أدنة، أعيد ترتيب الأوضاع الإدارية في كيليكيا، وعين قانصوه الغوري من جديد حاكماً على طرسوس[٨]، وداوود بن رمضان

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٠.
(٢) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ٩٧٠ والبصروي: المصدر السابق، ص ١١٠ ـ ١١١ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٨ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢٦ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٦.
(٣) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٢ ـ ٥٣.
(٤) سعد الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص ٥١ ـ ٥٢، وحليم: المرجع السابق، ص ٧٣.
(٥) الغيائي: المصدر السابق، ص ٣٦٩ والسخاوي: وجيز الكلام.ج٣، ص ٩٧٠ والبصروي: المصدر السابق، ص ١١٠ ـ ١١١ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٨ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢٦، وابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٦.
(٦) البصروي: المصدر نفسه، ص ١١٠ والظاهري: المصدر نفسه، ج٨، ص ١٨ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٢١ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٩٠.
(٧) السخاوي: المصدر السابق، ص ٩٧٠ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٦ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٣.
(٨) الغزي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٩٥.

مكان أخيه عمر ـ الذي أسر وأرسل إلى إسطنبول ـ في إمارة رمضان. وفي ربيع الثاني، وصل إلى القاهرة قيت الساقي[١]، ومعه ما يزيد على مائتي رأس عثماني مقطوعة ومحمولة على الرماح[٢]، تلقتها رجال الدولة، ودخلوا بها على الأخشاب محمولة على الرماح تحملها أهل الذمة[٣]. وقد زينت القاهرة زينة حافلة واصطف الناس للمشاهدة وذهب قيت الساقي إلى القلعة وضربت له البشائر[٤].

إن هذا النصر المملوكي قد دوّن من قبل يعقوب شاه المهمندار، الذي زار من في جند القوس والرمي، وتعرف إلى فنون الرمح علماً وعملاً، والصراع، وترتيب العساكر، بحيث انفرد وعمل درجاً في ترتيب خروج المماليك وعساكرها إلى الأسفار من تجاريد وغيرها[٥].



اضطرابات أحوال مصر ومسعى المماليك الثاني للسلام

إن نشوة النصر التي عمت مصر وبلاد الشام لم تدم طويلا، فالسلطان بايزيد الثاني لم يركن إلى الهدوء وقام ليثأر للهزيمة التي حلت بقواته.

ففي جمادي الآخرة ٨٩١ هـ/ ١٤٨٦م، جاءت الأخبار إلى مصر بأن العسكر العثماني بعد أن حصل له تلك الهزيمة، تجمع جيشاً كثيفاً وعاد للحرب ثانية[٦]، ممّا اضطر عسكر السلطان قايتباي للعودة مجدداً إلى كولك، بعد أن قدم إلى حلب[٧]. لقد انزعج السلطان لهذا الخبر ونادى بالجيش المملوكي للعرض فعرض عليه، وعين جماعة من الأمراء المقدمين والجند، فكانوا نحو خمسمائة مملوك

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص ٢٢٥.
(٢) البصروي: المصدر السابق، ص ١١١ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٢٣ وابن اياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢٨.
(٣) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٦.
(٤) البصروي: المصدر السابق، ص ١١١ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٢٣ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢٨ ودهمان المرجع السابق، ص ١٨٦.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع ج١٠، ص ٢٨١
(٦) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ٩٧١ والبصروي: المصدر السابق، ص ١١٢ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٢٨ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص٢٣٠.
(٧) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٣٠.

وعليهم يشبك الجمالي الزردكاش الكبير(١)، أحد المقدمين، ثم أنفق عليهم واستحثهم على الخروج إلى حلب(٢).

وقد ضاق الأمر بالسلطان حتى قصد أن يخرج إلى الحملة العسكرية بنفسه، وأرسل إلى كرتباي الأحمر، كاشف البحيرة، بأن يجمع له من طائفة العربان الذين بالبحيرة ما يستطيع، لا بل أنه عرض على الزعر أن ينفق على كل واحد منهم ثلاثين ديناراً ليخرجوا صحبته(٣).

وقد أشيع في هذه الأثناء خبر مفاده أن بايزيد الثاني قد أرسل إلى أهل دمشق نحو ثلاثين اتفاقية مع النصارى، الذين استجاروا به، ووضع عنهم جزية ثلاث سنين لقتال أهلها، وكل إشاعة من هذا القبيل كانت تفتح السبيل لنائب دمشق فيجمع من أهلها مالاً(٤).

في شوال من السنة نفسها، جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر المملوكي قد ثار على الأتابكي أزبك وقصد العودة إلى القاهرة، فتشوش السلطان وأرسل يطلب من أزبك بأن ينفق على كل مملوك خمسين ديناراً(٥). في هذه الأثناء أرسل علاء الدولة ولده إلى الأتابكي ازبك مظهراً الإذعان للطاعة، ولكنه لم يقابل(٦).

في ذي القعدة، حضرت جماعة من الجند من حلب دون إذن من السلطان، وكانوا قد قصدوا الإخراق بالأتابكي أزبك وهو بحلب فقال لهم: «الذي يقصد الرواح إلى مصر فليذهب ويقابل أستاذه»، فأخذوا يتسللون وتزايدت الإشاعة بوقوع فتنة كبيرة، وأخذت جماعة من المماليك الجلبان يعترضون الأمراء، طالبين منهم أن ينفق السلطان عليهم لنصرهم على الجيش العثماني، مهددين بالفتنة ومغلظين بالقول(٧). وأمام رفض قايتباي، تهيأ الجلبان للحرب وأشهروا السلاح، فاضطربت الأحوال وأغلقت الأسواق وجاء الزعر واستمر الأمر على هذا الحال حتى ذي

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص ٢٧٦. الزردكاش هو صانع الاسلحة.
(٢) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ٩٧١ والبصروي: المصدر السابق، ص ١١٢ ـ ١١٣ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٠.
(٣) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٣٠.
(٤) كردعلي، محمد: خطط الشام، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، ج٢، ص١٩٦.
(٥) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٣٣ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٣٣ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٧.
(٦) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ٩٧١.
(٧) السخاوي: المصدر نفسه والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٤٨ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٧.

الحجة، وبعد توسط الأمير أزبك لدى السلطان، تقرر صرف خمسين دينار لكل مملوك في أول السنة الجديدة، فهدأت الفتنة إلى حين بسبب رضوخ السلطان لمطالبهم، وتم توزيع النفقة مع الجامكية ـ الراتب ـ بمعدل خمسين ديناراً للمماليك الجلبان وخمسة وعشرين دينار للقرانصة ومن لم يخرج للحملة لم ينل شيئاً[١].

إن هذه الأحداث أظهرت الضعف العام الذي أصيب به النظام المملوكي، وأشارت إلى تقهقر حكم قايتباي بشكل خاص والجراكسة بشكل عام.

ومع حلول عام ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م استمرت الأحوال مضطربة في مصر، فقد تضاءل الخبز والطعام وغلت الأسعار وتضاعفت وتضاءلت قيمة العملة بسبب الغش في الدرهم الفضي، وزاد طغيان المماليك وكثر ضرر العربان البدو على حدود الصحراء[٢]، وأخبار السلطان العثماني تتوارد بتحركه نحو البلاد الحلبية واستعداداته البرية والبحرية، ممّا أكثر من المصادرات لتجريد حملة جديدة[٣]، وانقسم المماليك الجلبان إلى فرقتين: فرقة مع قانصوه خمسمائة وفرقة مع أقبردي الدوادار[٤].

وفيما يبدو أن السلطان قايتباي عزم على الصلح مع بايزيد الثاني، فأمام هذه الأحوال المضطربه لم يعد من السهل إخراج حملة جديدة، لذلك انتهج السلطان المملوكي سياسة من شقين، فإلى جانب استعداداته العسكرية في ظل الأجواء المشحونة بالفوضى، فإنه ظل يتمسك بأهداب السلام وتقدم بخطوة ديبلوماسية برهن من خلالها على ميوله السلمية، فأمر بفك قيد أحمد بن هرسك والكاتب العثماني وبقية الأسرى وتجهيزهم للسفر إلى بلادهم[٥].

عند وصول أحمد بن هرسك إلى دمشق خُلع عليه خلعة معظمة، وخرج نائب المدينة في وداعه لسفره إلى بلاده[٦] معززاً مكرماً، وسافر ومن معه في أول

---

(١) السخاوي: المصدر نفسه، ص ٩٧٢ والظاهري: المصدر نفسه وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٢) السخاوي: المصدر نفسه،ج٣، ص ٩٧١ وابن إياس: ج٣، ص ٢٣٧ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٣) السخاوي: المصدر نفسه، ج٣، ص ٩٩٤ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٥٥ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٣٧.

(٤) دهمان: المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٥) السخاوي: المصدر السابق، ج٨، ص ٩٧٠ والبصروي: المصدر السابق، ص١١٧ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٥٦ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٧ وابن طولون: ج١، ص ٧٤.

(٦) البصروي: المصدر نفسه، ص ١١٧ ـ ١١٨ والظاهري: المصدر نفسه وابن إياس: المصدر نفسه وابن طولون: المصدر نفسه، ج١، ص ٧٥.

صفر ٨٩٢ هـ[١]، حاملاً رسالة شفوية من السلطان قايتباي تنم عن رغبته الأكيدة في تحقيق الصلح بين الدولتين[٢].

على الرغم من الخطوة السلمية التي أقدم عليها قايتباي إلّا أنه بالمقابل وكما يبدو، أن الاتجاه الصدامي قد تغلب في النهاية، فالتحضيرات العسكرية العثمانية ضد المماليك كانت في مرحلة متقدمة.



الاحتلال العثماني الثاني

كان لاختلاف قادة الجيش العثماني وتفرق كلمتهم وتنازع الأهواء فيما بينهم أثره البالغ في انتصار الجيش المملوكي بسهولة ويسر[٣].

لذلك سرعان ما ظهرت الحاجة ملحة إلى تنظيم أكثر تماسكاً وإحكاماً. فخيانة محمد باشا كراكوز ـ أمير أمراء قرمان ـ قد دفعت بايزيد الثاني للقيام بترتيبات إدارية جديدة. فعزل وولى الحكام في كل من قرمان والروملِلي والأناضول وتابع من جهة أخرى الاستعدادات العسكرية واهتم بالتجهيزات الحربية[٤].

إن هدوء الجبهة العثمانية ـ الأوروبية[٥]، أتاح للسلطان العثماني فرصة تقوية جيشه والقيام بالتدريبات العسكرية فزاد من عدد المشاة الإنكشارية المنظمة ـ التي تعتبر العمود الفقري للجيش العثماني ـ وعدد الخيالة[٦]، وزودهم بأحدث الأسلحة النارية. ولم يكتف بايزيد الثاني بالقوات البرية، بل اهتم أيضاً بتعزيز القوات البحرية[٧]، ففرض ضريبة خاصة على إسطنبول ومدن أخرى للانفاق على بناء السفن[٨].

---

(١) السخاوي: المصدر السابق، ج٣، ص ٩٩٢.
(٢) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٥٦ وحليم: المرجع السابق، ص ٧٣.
(٣) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥١.
(٤) حليم: المرجع السابق، ص ٧٣.
(٥) بروكلمان: المرجع السابق، ص ٤٤٤. كان للرهينة جم الذي استولت عليه الدولة الغربية فترة طويلة من الزمن أثر فعال في اتجاه بايزيد الثاني نحو سياسة سلم معهم.
(٦) جودت: تاريخ جودت، ترجمة عبدالقادر أفندي الدنا، مطبعة جريدة، بيروت، ١٣٠٨ هـ، ص ٤٢.
(٧) أوزتونا: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٢٢ وجودت: المرجع نفسه، ص ٢٤٥
(٨) الشناوي، د. عبد العزيز محمد: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ج٢، ص ٨٨٦.

عند بداية عام ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م، كان الجيش العثماني على أهبة الاستعداد بانتظار الأوامر للهجوم على المماليك، ومع وصول أخبار الاضطرابات الحاصلة داخل الأراضي المملوكية بالإضافة إلى انسحاب جيش الأتابكي أزبك إلى القاهرة، أيقن السلطان بايزيد الثاني بأن الفرصة قد أصبحت مؤاتية للتحرك العسكري، فعزم على بدء المواجهة.

لقد أشار أحد القادة العسكريين على السلطان بايزيد الثاني بضرورة الهجوم على بلاد الشام من الجهة الشمالية، مروراً بأراضي إمارة دلغادر وذلك تجنباً للمواجهة مع القرمانيين (الترغود والورسق) الموجودين في طوروس وما حولها[(١)].
وتبنى هذه التوصية القائد العام لهذه الحملة العسكرية الوزير الكبير داوود باشا وأضاف عليها ملاحظته بعدم أخذ الجانب القريب من الطريق المواجهة لبغراس والابتعاد عنها قدر الإمكان نظراً للصعوبة الكبيرة التي قد يواجهها الجيش العثماني عند اجتياز حافة ممرات بلاد الشام، وخاصة مع انتشار السفن الحربية المملوكية المجهزة بالمدافع عند مرفأ آياس، والتحصينات الكبيرة في قلعة كوارة[(٢)]، التي تحمي المدخل الشمالي لممرات بلاد الشام.

على هذا الأساس أي بموجب هذه الخطة العسكرية، وبعد أن انضم إلى داوود باشا الجيش القرماني في قونية، انطلقت القوات العثمانية المجهزة بأحدث الأسلحة النارية، وتقدمت براً نحو آسيا الصغرى (الأناضول). وعند وصول الجيش العثماني إلى الحدود المملوكية[(٣)]، قابل داوود باشا علاء الدولة في ٢٢رجب، وتباحث معه بشأن الخطة العسكرية التي تقتضي المرور بأراضي إمارته. ولما كان الأمر يشكل خطراً مباشراً على إمارته فيما لو فشلت القوات العثمانية بتحقيق أهدافها، فإن علاء الدولة والتي كانت مساعدته ضرورية للعثمانيين، نصح بالتريث قبل الدخول في قتال مباشر مع المماليك، واقترح عليهم البدء

(١) TKS. Doc. No 6397.
- Intelligence report from syria 1486, informing of Mamluk army withdrawal to cairo, general deterioration and internal conflicts in the Mamluk state, and offering a recommendation for a military attak. Quoted by:
- Shai, Har El: op. cit, p148.

(٢) TKS. Doc. No 8599.
- Military communication from Grand Vezir Davud pasa to Bayezid (1487) on Mamluk military movements in Syria and Cilicia, ottoman moves against turgud - Oglu and Ala-l-Dawla's request of tarsus as his sanjak. Quoted by:
Shai, Har - El: ibid.

(٣) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٣.

بمهاجمة أراضي القرمانيين لتأديب ترغود أغلو محمد بك[١].

وبينما كانت الاستعدادات الهجومية على قدم وساق وفق الخطة العسكرية العثمانية السابقة، حدث في الساعات الأخيرة التي سبقت الهجوم ما قلب الأوضاع رأساً على عقب، فالسلطان بايزيد الثاني بدل رأيه فجأة بشأن الخطة المزمع تنفيذها، وهي المرور كما ذكرنا بأراضي إمارة دلغادر، وأمر بشن غارات ضد تركمان الورسق والترغود.

فيما يبدو أن السلطان العثماني كان غير مقتنع بالخطة العسكرية، وقد عزز عدم اقتناعه بها اختلافات الرأي حولها، لذلك شعر بأنه ليس هناك حاجة لتسريع عملية الهجوم على أراضي المماليك، واعتبر خطة داوود باشا ليست سابقة لأوانها فحسب بل ومجازف فيها. لذلك ارتأى بدايةً، وكما أشار علاء الدولة، تأديب التركمان الموجودين في طوروس لتأمين خطوط المواصلات وحماية خلفية الجيش العثماني.

وتنفيذاً لأوامر السلطان بايزيد الثاني، قام داوود باشا بتقسيم الجيش العثماني إلى ثلاثة أقسام وذلك لكي يتولى كل قسم منه القتال في اتجاه معين:

- قسم من الجيش العثماني، والذي انضم إليه علاء الدولة وقواته، تحرك باتجاه الترغود.
- قسم ثاني تقدم نحو الورسق.
- قسم ثالث توجه إلى طرسوس[٢].

وأمام الهجوم العثماني الضخم، ارتعدت فرائص أمراء الورسق وخاصة حين رأوا أن الجيش العثماني مجدّ في تعقبهم، فسارعوا في الحال وأقسموا ولاء الطاعة للسلطان العثماني. وهرب أمراء الترغود، خوفاً من القضاء عليهم، وتوجهوا إلى دمشق قاصدين مصر وأخبروا بأنهم أتوا إلى السلطان المملوكي يطلبون منه تدارك البلاد[٣].

وعند دخول الجيش العثماني إلى مدينة طرسوس، هرب حاكمها قانصوه الغوري مرة جديدة إلى حلب[٤].

وهكذا وبعد ما أتم الجيش العثماني المهمة العسكرية الموكول إليه تنفيذها على أكمل وجه، عاد أدراجه وتوجه نحو الأراضي العثمانية. وهنا تجدر الإشارة

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٤.
(٣) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٧٣ وسعد الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٤.
(٤) الغزي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

إلى أن المصادر التاريخية المملوكية لم تأت على ذكر هذه العمليات العسكرية العثمانية، ولعل مرد ذلك أن هذه العمليات كانت محصورة في الجبال الطوروسية.

من الجانب المملوكي، استدعى قايتباي في رجب ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م، جميع أعيان التجار وطلب مساعدتهم على خروج حملة عسكرية بمبلغ أربعين ألف دينار، إلّا أنهم ضجوا وأبدوا عجزهم عن تأمين المطلوب، ولم يزل السلطان يخفض منه حتى بلغ اثني عشر ألف دينار ينفقها التجار إذا خرجت الحملة[1].

وتزايدت الأحوال سوءاً داخل الدولة المملوكية، ففي شوال من السنة نفسها جاءت الأخبار بفرار شاه بداق شقيق علاء الدولة ـ وكان مسجوناً بقلعة دمشق، فلما بلغ السلطان ذلك أمر بشنق نائب القلعة[2]. وفي ذي الحجة قويت الإشاعات في القاهرة بقيام فتنة بين المماليك الجلبان فنقل غالب الأمراء وأرباب الدولة أمتعتهم من الدور خوفاً من نهبها عند وقوع الفتنة وعزم السلطان على مجابهة الأمر فخرج من صلاة الجمعة، ثم جلس بالحوش وأحضر أعيان المماليك وكلمهم كثيراً ووبخهم وممّا قاله: «إذا كان قصدكم قتلي فدونكم ذلك»، فاستغفروا له، ثم آل الأمر إلى صلحهم مع السلطان، إلّا أنهم لما خرجوا من عنده عادوا لما كانوا عليه من الفتنة، حتى أشيع بين الناس أن السلطان قد تهيأ للفرار بنفسه[3].

في ظل هذه الأحوال الممتلئة بالمشاحنات والاضطرابات بدأت التحضيرات العسكرية في القاهرة لمواجهة عسكرية مرتقبة مع الدولة العثمانية.

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٤٢، ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٢) البصروي: المصدر السابق، ص ١٢٠ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٨٢ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٢٤٤ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٧٩ ـ ٨٦.

(٣) الظاهري: المصدر نفسه، ج٨، ص ٩١ وابن إياس: المصدر نفسه، ص ٢٤٦، ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٩.

الصراع في المجال الديبلوماسي

٨٩١ـ٨٩٤هـ/ ١٤٨٦ـ١٤٨٩م



النشاط الديبلوماسي في أوروبا حول الأمير جم

من أجل دفع بايزيد الثاني نحو السلام، حاول السلطان قايتباي مجدداً استعادة الأمير جم ـ شقيق السلطان بايزيد الثاني ـ من فرسان القديس يوحنا وملك فرنسا لكي يتخذ منه وسيلة ضغط، إلّا أن أيًّا من ملك فرنسا ورئيس الفرسان لم يجبه إلى طلبه[١].

كان العثمانيون يتهددون ماتياس كورفينوس ـ ملك هنغاريا ـ وفرديناند الثاني ـ ملك نابلي ـ فسعى هؤلاء الأمراء بخطوة مشابهة لما قام بها السلطان قايتباي، فحاولوا مراراً وتكراراً تسلم جم من ملك فرنسا ومن فرسان القديس يوحنا والتوسل به في الضغط على بايزيد الثاني، إلّا أنه وكما يبدو فإن جميع محاولاتهم باءت بالفشل[٢].

وأمام هذا الضغط، صمم شارل الثامن ملك فرنسا آخر الأمر، بالاتفاق مع رئيس فرسان القديس يوحنا على تسليم جم إلى البابا، الذي سعى سعياً حثيثاً للحصول على جم على اعتبار أنه كان يعد العدة لشن حملة صليبية على العثمانيين ولاعتقاده أن جم سوف يساهم في توحيد القوات الأوروبية ضدهم[٣].

من جهة قايتباي ومن أجل الحصول على جم، فقد استأنف في القاهرة المفاوضات التجارية مع فلورنسا، والتي كانت قد جرت عام ٨٨٩ هـ/ ١٤٨٤م، تولاها عن فلورنسا باولوكوللي، وقد أظهر فيها السلطان كل اعتبار وود. وكانت

---

(١) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٤٩٠، ودائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩٢.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩٢، ورافق: بلاد الشام ومصر، ص ٤٨

Thuasne: op. cit, p 146 - 148, 166 - 170.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩٢، ومصطفى: المرجع السابق، ص ٧٥.

الشروط قد وضعت حين توفي كوللي فجأة، ولما لم يتسع الوقت لقايتباي لإبلاغ رئاسة فلورنسا بشروط المعاهدة، فإنه أرسل من جديد موفداً له يدعى «ملفوتة» في مهمة خاصة إلى فلورنسا ليعرض على حكومتها المزايا التي منحها مولاه للتجارة. ووصل المبعوث المصري في شهر تشرين الثاني ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧م ومعه من الأشياء الثمينة التي كان عليه أن يسلمها هناك باسم السلطان، زرافة وأسد مستأنس، وفي صحبته مترجم صقلي كلف بأن يبلغ شفاهة الالتزامات التي يعرضها سيده[١]. وإضافة إلى البحث في شروط المعاهدة، طلب قايتباي من لورنتسو دي ميدتشي - حاكم فلورنسا - السعي لإقناع البابا بتحرير جم والسماح له بالانضمام إلى عائلته في مصر. [٢] على الرغم من أن لورنتسو قد وافق على طلب قايتباي للتوسط مع بابا روما من أجل الحصول على امتيازات تجارية مع دولة المماليك، إلّا أنه في الوقت نفسه فقد أراد أن يتجنب تعريض نفسه لأية شبهات أو مخاطر مع الدولة العثمانية، فكلف قنصله في إسطنبول بأن يقابل باسمه السلطان بايزيد الثاني ليوضح له الاستياء من وجود مبعوث لقايتباي في فلورنسا وأكد له بأن رئاسة فلورنسا لن تناقشه البتة في أي شيء خلاف المسائل التجارية البحتة[٣].

وكرد عثماني على المساعي المملوكية الحثيثة لاستعادة جم والتي تبينت لبايزيد الثاني من خلال الإيضاح الذي عرضه قنصل فلورنسا، قرر السلطان العثماني انتهاج سياسة ديبلوماسية تحافظ على علاقاته بعدة بلاطات أوروبية، ليتسنى له التحرك العسكري ضد المماليك، فأرسل موفداه إلى هنغاريا بهدف تمديد معاهدة ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣م، الموقعة مع ماتياس كورفينوس. ولكن على الرغم من فشل هذا الموفد في مهمته إلّا أن السلطان العثماني عاود المحاولة مرةً أخرى، فأرسل موفداً آخر وحمّله رسالة تتضمن الاعتذار بسبب مقتل موفد هنغاري عام ٨٩١ هـ / ١٤٨٦م كان في طريقه من القاهرة عائداً إلى بلاده، الأمر الذي ولد في تلك الفترة تأزما في العلاقات العثمانية - الهنغارية[٤].

من جهة أخرى فقد حاول بايزيد الثاني الاتصال برئيس فرسان القديس يوحنا ليمنع أخاه من العودة إلى منازعته الملك، فحثه هذا الأخير على أن يهدي إلى البابا

---

(١) هايد، ف تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج٣، ص ٣٦.

(٢) Thuasne: op. cit, p 173 - 176.

(٣) هايد: المرجع السابق، ج٣، ص ٣٦٤.

(٤) Shai, Har - El: op. cit, p 156.

إينوست الثامن الحربة المقدسة التي كانت بحوزته، والتي كان استولى عليها محمد الفاتح عند فتحه القسطنطينية[١].

في محرم ٨٩٣ هـ/١٤٨٨م، وعقب وصول أخبار إلى القاهرة تفيد بأن السلطان بايزيد قد أرسل جيشاً عظيماً وقصد محاربة عسكر مصر[٢]، أرسل قايتباي من طرفه وفداً جديداً إلى رودس وذلك محاولة منه لإقناع الفرسان بنقل جم إلى الأراضي المملوكية، وكذلك أجرى اتصالاً مع فرديناند الثاني ـ ملك نابلي ـ الذي طلب مقابل مساعدته السلطان المملوكي، الحصول على الدعم من أجل إعطاء عرش قبرص إلى ابنه الدوق الفانسو.

وفيما يبدو أن موافقة قايتباي على القيام بهذه الخطوة كان يعني التضحية بصداقة المماليك للبندقية[٣]، التي طالما طمعت في وضع يدها على الجزيرة[٤].

ولكن على أية حال فإن رئيس فرسان القديس يوحنا، رفض وساطة ملك نابلي في ذلك الحين بحجة أنه لا يستطيع تسليم جم دون أذن البابا[٥].

في تلك الأثناء وصل إلى جزيرة رودس موفد هنغاري، بمهمة ديبلوماسية للحصول على جم، فمتياس كورفينوس على الرغم من توقيعه معاهدة هدنة مع العثمانيين، إلّا أنه استمر على سياسته العدائية القديمة لهم ورغبته الدائمة في الحصول على جم، والتقى الموفد الهنغاري بموفد نابلي كان في الجزيرة وجرت مباحثات ومناقشات في إمكانية التعاون مع المماليك. وفي رجب ٨٩٣ هـ/١٤٨٨م، انطلق الموفدان الهنغاري والنابلي إلى القاهرة حيث استقبلا بحفاوة بالغة[٦].

وفيما كانت الاتصالات الديبلوماسية ناشطةبين مختلف الأطراف، كان الجيش العثماني قد وصل إلى باب الملك[٧].

---

(١) الدبس: المطران يوسف: تاريخ سورية الدنيوي والديني، المطبعة العمومية، بيروت، ١٩٠٣، ج٦، ص ٢٦.

(٢) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١٠٣١ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٩٦ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص٢٤٧.

(٣) دراج: «جم والديبلوماسية الدولية»، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

(٤) هايد: المرجع السابق، ج٣، ص ٢٩٥.

(٥) Thuasne: op. cit, p198 - 199.

(٦) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٢٦.

(٧) الظاهري: المصدر نفسه، ج٨، ص ١١٦ ـ ١١٧ ـ ١١٨ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٤.



محاولات المماليك تحريض «ألاق قوينلو»

لمواجهة التوسع العثماني في كيليكيا ولإعادة ميزان القوى في الأناضول لصالح المماليك، حاول قايتباي تكوين جبهة معارضة للعثمانيين تضم يعقوب بن أوزون حسن ـ زعيم «ألاق قوينلو» ـ على اعتبار أنه كان على عداء معهم.

فما إن وصل الأمير قيت الساقي الحساكي إلى القاهرة قادما من حلب في ربيع الثاني عام ٨٩١ هـ / ١٤٨٦م ومعه أخبار نصر المماليك على العثمانيين في موقعة أدنة التي جرت في صفر من العام نفسه[١]، حتى جهزه السلطان قايتباي بهدية[٢]، وأوفده بمهمة سياسية قاصداً يعقوب بن أوزون حسن، وذلك للبحث في مشروع تحالف بين دولة المماليك ودولة «ألاق قوينلو».

وفيما يبدو أن القاصد المذكور لم يلبث طويلاً في بلاط «ألاق قوينلو» حتى عاد أدراجه على جناح السرعة ومعه مكاتبة بإظهار التودد وصدق المحبة للسلطان المملوكي[٣]، وطلب بكف الفريقين عن القتال[٤].

ولإظهار نفسه راعياً للسلام، أرسل يعقوب موفداً خاصاً يقال له « أخو فرج» وصل إلى القاهرة في شعبان ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م، ومعه مكاتبة[٥]، تتضمن سؤال السلطان قايتباي بالعطف على السلطان بايزيد الثاني وبضرورة إحلال السلام بينهما[٦].

ولكن قايتباي الذي أدرك أن السياسة السلمية، التي انتهجها سابقاً إزاء السلطان العثماني؛ والتي ترجمها بإطلاق سراح ابن هرسك والأسرى العثمانيين، ثم بالسماح بعد ذلك لأم جم بالتوجه إلى بلادها[٧] ؛ سوف تفشل، فإنه حمل

---

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٢٢٨، ٢٣٣.
(٢) السخاوي: وجيز الكلام ج٣، ص ٩٧١ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٢٧.
(٣) الظاهري: المصدر نفسه، ج٨، ص ٤٤ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٣ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٧.
(٤) السخاوي: المصدر السابق، ص ٩٧١.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٠١٠ والظاهري: المصدر السابق، ص ٧٧ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٨٠.
(٦) ابن طولون: المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه، ص ٧٦.

الموفد هدايا وجواباً لأستاذه يعقوب بك مضمونها إن أراد أبو يزيد ذلك فليسلم إلينا. . . طرسوس وقرمان وإن أراد المحاربة فأنا أنزل إليه بالعسكر بنفسي»[(١)] على حد تعبير ابن طولون.

إن القاصد الذي ألبس، ونحو عشرين ممن معه، خلع السفر في رمضان وأعطي من الكسوة تبركاً[(٢)]، توجه إلى دمشق. وبعد أن صلى بالجامع، سافر في شوال من عام ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧م بجماعته إلى بلاده[(٣)].

والجدير بالذكر أن قايتباي قد حاول الاتصال مجدداً بيعقوب بك عارضاً عليه طلب مساعدة عسكرية، لكنه فشل في تحقيق غايته هذه، لأن هذا الأخير الذي اتجه بسياسته نحو الشرق، رفض الدخول في الصراع الدائر في كبادوكيا[(٤)] وكيليكيا.

ففي عام ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨م، كان يعقوب يستعد لحرب السلطان حيدر الصفوي، والد الشاه إسماعيل[(٥)]، لذلك اكتفى بالإجابة على قايتباي كما في السابق بالتودد وصدق المحبة له.

إن سبب فشل المماليك بإشراك «ألاق قوينلو» في الحرب ضد العثمانيين يعود إلى السياسة الحيادية التي انتهجها يعقوب بك أمام القوتين الكبيرتين المتحاربتين، وذلك بهدف الحفاظ على الأسس الاقتصادية لإيران بشكل عام وتجارة الحرير بشكل خاص[(٦)].



تركيز البنادقة حول قبرص

كان لانتشار مجموعة من الجزر في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وفي جنوب الأناضول دافعاً لاهتمام العثمانيين بتعزيز قواتهم البحرية وتقويتها.

فعقب المناوشات العسكرية العثمانية ـ المملوكية التي وقعت في كيليكيا عام

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٠. (٢) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١٠١٠.
(٣) ابن طولون: المصدر السابق، ص ٨١.
(٤) كبادوكيا: كورة بإقليم أرمينيا به ثغر ملطية وقيصرية خلف جبال طوروس انظر: أمين واصف، معجم الخريطة التاريخية، مصر ١٩١٦، ص١٠٣.
(٥) إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام ترجمة علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة: ١٩٩٠ ص ٦٣٦.
(٦) Woods, John E: The Aqquyunlu: Clan, Confederation, Empire. Minneapolis and Chicago 1976, p146 - 147 - 149 - 159.

٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥م، أصدر بايزيد الثاني أوامره بأن تبذل عناية فائقة لتدعيم وزيادة عدد قطع الأسطول البحري وأفراد طاقمه، وذلك من أجل مشاركة عسكرية بحرية فعالة في الحرب المرتقب حصولها ضد المماليك.

وعلى الرغم من علاقات الصداقة التي حافظ عليها العثمانيون مع البنادقة إلّا أنّ التحضيرات والاستعدادات العسكرية البحرية العثمانية قد أثارت حفيظتهم.

فالبندقية؛ التي تعتبر الأسبق من العثمانيين في مجال القوة البحرية والأساطيل الحربية بل والأساطيل التجارية التي كانت تتحول عند الحاجة إلى أساطيل حربية[١]، والتي تسللت إلى عدة مناطق في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، كان لها مراكز ومحطات بحرية في عدة جزر، ومرافئ استراتيجية أمنت لها مراقبة الشاطىء على طول الأراضي العثمانية؛ كانت تريد الاحتفاظ بما استحوذت عليه من قواعد وما بلغته من نفوذ وقوة وهيبة[٢]، لذلك فالنشاط البحري العثماني في تلك الآونة، قد أخافها لأنها كانت شديدة الاهتمام بقبرص على اعتبار أنها لم تكن ولا يمكن أن تكون بنظرها سوى محطة لها تخدم مصالحها وأعمالها التجارية[٣]، وذلك بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بين شواطىء المسلمين في مصر والشام وآسيا الصغرى، ولأهميتها كثغر تجاري عالمي تنتهي عنده طرق التجارة الشرقية لتبدأ منه الطرق التجارية المتجهة إلى الغرب[٤].

لقد صادفت تجارة البندقية رواجاً كبيراً في جزيرة قبرص نتج عن التعاون الوثيق بين السلطات الحاكمة في كل منها، وقد ثبّت هذا التعاون تقارب أسري تمثل بزواج جيمس الثاني من سيدة بندقية هي كاترين كورونا التي تولت حكم الجزيرة بعد وفاة زوجها ٨٧٩ ـ ٨٩٤ هـ/ ١٤٧٤ ـ ١٤٨٩م. ونتيجة لتأخر هذه السيدة عن إرسال الجزية في مواعيدها إلى مصر، فكر السلطان المملوكي في إرسال حملة إلى الجزيرة يسترد بها حقوق السلطنة. ولكن البندقية انتهزت هذه الفرصة وأقنعت الملكة بالتنازل لها عن السلطة في الجزيرة.

ومنذ ذلك الوقت، أصبحت الجزيرة تستخدم كقاعدة بحرية أساسية للبندقية، في شرق البحر المتوسط، وجسر للشرق[٥].

---

(١) أوزتونا: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٢٢ والشناوي: المرجع السابق، ج٢، ص ٨٦٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ٨٦٨ والخادم: المرجع السابق، ص ١٢٧ ـ ١٢٩.
(٣) هايد: المرجع السابق، ج٣، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.
(٤) العبادي، وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، في مصر والشام القسم الثاني، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.
(٥) هايد: المرجع السابق، ج٣، ص ٢٩٥.

وبناءً على ذلك وكردة فعل على التحضيرات العسكرية البحرية العثمانية وخوفاً من أن تكون قبرص الهدف الجديد للتوسع العثماني، فإن البنادقة باشروا بتقوية دفاعات فماغوستا ـ المرفأ الرئيسي على الجزيرة ـ وأصدر مجلس الشيوخ البندقي، الذي كان على علم بالتحضيرات العسكرية العثمانية، الأوامر للأسطول البندقي بالتحرك نحو قبرص لحمايتها والدفاع عنها بوجه التهديد العثماني، واشترط عدم مباشرة الهجوم وذلك نظراً للعلاقات السلمية التي سادت بين الدولتين إلّا في حال هدد العثمانيون بالدخول إلى ميناء فماغوستا[1].

من جهته، فإن بايزيد الثاني حافظ على علاقاته السلمية مع البنادقة غير ملق بالاً على وضع يدهم على قبرص[2]. ففي عام ٨٩٢/١٤٨٧م، أرسل السلطان العثماني موفداً له إلى البندقية بهدف الحصول على إذن بإرساء أسطوله البحري في فماغوستا، كمحطة متوسطية قبل الهجوم العثماني على المماليك[3].

إن هذه الخطوة الديبلوماسية التي أقدم عليها بايزيد الثاني لم تكن مصادفة، وإنّما كانت وفقاً لمعطيات وظروف دفعته للاستفادة منها. فعلى أثر هزيمة العثمانيين في أدنة وأسر القائد العام ابن هرسك، حضر السلطان بايزيد لحملة عسكرية على المماليك من جهة البحر، آخذاً بعين الاعتبار ضعف القوة البحرية المملوكية التي تركت دفاعات بلاد الشام معرضة لخطر الهجوم الخارجي[4]، وقد عزّز هذا الاعتقاد التقرير الذي أرسله اليه في السابق الجاسوس العثماني أياس من القاهرة، وفيه يحض بايزيد على مهاجمة المماليك وإرسال السفن البحرية إلى طرابلس والإسكندرون حتى يتمكن من إدخال الدولة في طاعته.

وانطلاقاً من ذلك فقد ارتأى السلطان العثماني ضرورة أن يكون لهم مركز ثابت في البحر المتوسط قبالة الشواطئ المملوكية فتطلع نحو جزيرة قبرص، التي كانت خاضعة لسلطة البنادقة، والتي تتيح لهم ملجأ قريباً من ساحة أعمالهم العسكرية، وتشكل الموقع الاستراتيجي الأفضل لإطلاق حملتهم العسكرية[5].

من الجانب الآخر، فقد رفض البنادقة طلب العثمانيين في السماح لهم

---

(١) Hill, George: A history of Cyprus, Cambridge 1948, v3, p736.
(٢) بروكلمان: المرجع السابق، ص ٤٤٥.
(٣) knolles: op. cit, p 305.
(٤) حول تاريخ البحرية المملوكية انظر د. سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٦٧، ص ١١٣ ـ ١٣٣.
(٥) Hill: op. cit, p 244 - 352.

بالإرساء في فماغوستا، وتموين الأسطول من قبرص(١)، لأنهم اعتبروا أن الموافقة على هذا الأمر يشكل تحدياً سافراً لدولة المماليك، التي كانت تربطهم معها علاقات جيدة (٢).

لا شك أن البندقية قد أدركت بأن تقديم الدعم للعثمانيين سوف يضر بمصالحها التجارية مع دولة المماليك في مصر وبلاد الشام، وفوق ذلك فهي تخشى في حال سمحت للأسطول العثماني بالإرساء في ميناء قبرص من احتلال الجزيرة. وبناءً على ذلك وكخطوة احترازية، فقد جهزت البندقية قوة جديدة من أجل حماية قبرص وتقوية دفاعات مرافئها(٣).

إن هذه السياسة التي انتهجتها البندقية إزاء الدولة العثمانية قد وافقت رغبة السلطان قايتباي فأرسل بدوره طلباً إلى الملكة كاترينا يحضها على ضرورة متابعة الاستعدادات الدفاعية عن الجزيرة، ويعدها مقابل ذلك إعفاء الجزيرة من دفع الجزية لمدة سنتين(٤).

ولكن على الرغم من التطمينات المملوكية، فقد أدرك البنادقة بأن الخطر قد أصبح محدقاً بهم لأن رفضهم السماح للأسطول العثماني في الإرساء في قبرص سوف يكون ذريعة للهجوم العثماني على الجزيرة والاستيلاء عليها بالقوة(٥).

---

(١) عبد التواب: المرجع السابق، ص ١٧٠.
(٢) knolles: op. cit, p 305 and Hil: op. cit, p736.
(٣) Hill: ibid, p 737 - 738.
(٤) Ibid, p 737.
(٥) Knolles: op. cit, p 305.

معركة آغا - جايري
٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م



إعادة احتلال كيليكيا من قبل العثمانيين

بعد حوالى شهرين على وصول شاه بداق - أخي علاء الدولة - الهارب من سجن القلعة بدمشق، وتوجهه إلى السلطان العثماني الذي أكرمه وأنزله بضيافته[١]، قرر بايزيد الثاني مع بداية عام ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨ م، تجديد الأعمال الحربية ضد دولة المماليك بنشاط أكبر ودرجة أوسع. فأمر السلطان العثماني هذه المرة بالهجوم براً وبحراً، وأوكل أمر قيادة الجيش البري إلى علي باشا، الذي نجح في الحملة العثمانية على كيليكيا عام ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧م، وقيادة الجيش البحري إلى أحمد باشا ابن هرسك، الذي رقي إلى رتبة قبودان[٢] إثر عودته من الأسر في القاهرة[٣].

وما إن انتهت التحضيرات والاستعدادات الحربية، حتى انطلق الجيش العثماني البري في ربيع الثاني ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨م نحو إسكوادار - على الشاطئ الآسيوي - ومنها تابع تقدمه فوصل إلى قونية، حيث انضمت إليه القوات القرمانية، وتوجهوا جميعاً نحو «أركلي» الحدودية، ومنها عبروا الممرات الكيليكية بسهولة فائقة، على اعتبار أن «كولك» وما حولها كانت بأيدي العثمانيين. وبعد أن استولى الجيش العثماني على قلعة نمرون جنوباً[٤]، دخل طرسوس التي كانت بأيديهم منذ

(١) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٨٢ وابن إياس: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٤.
(٢) إن القائد العام للأسطول كان يطلق عليه قبودان باشي ومعناها رئيس قباطنة السفن الحربية. وكان القبودان باشي يجمع خلال القرون الأولى لنشأة الأسطول بين منصبين: القائد العام للأسطول وحاكم ولاية. انظر أوزتونا: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٢٤ - ٤٢٥ والشناوي: المرجع السابق، ج٢، ص ٨٧٠ - ٨٧١.
(٣) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٥ وحليم: المرجع السابق، ص ٧٣.
(٤) سعد الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٥.

عام ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧م، ومنها توجهوا إلى أدنه[١]، حيث اصطدموا بالقوات الرمضانية والترغوديه وهزموهم، وتابع الجيش العثماني مهمته العسكرية فدخل آياس واستولى على قلعتها من غير قتال ولا مانع[٢]، ونجح في أخذ قلعة «كوارة» الحصينة المشرفة على المدخل الشمالي لممرات بلاد الشام[٣].

من جهة أخرى فقد توجهت فرقة من الجيش العثماني إلى «مصيصة» حيث اجتاحتها وأخذت قلعة «ناورزا» المعروفة بعين زربة[٤]، وتابعت المسير نحو الشمال فوصلت إلى سيس المدينة المحصنة واستولت عليها بعد حصار استمر لمدة قصيرة نتج عنه هدم سورها بالمدافع الثقيلة[٥].

عندما أتم الجيش العثماني مهمته في كيليكيا، باشر بترميم ما تهدم وأعاد بناء جسر أدنه باعتباره الممر الوحيد الذي يسمح للقوات العثمانية بعبور نهر سيحان والانتقال بسهولة ويسر من مكان إلى آخر[٦].

من الجانب المملوكي، وعندما جاءت الأخبار في جمادى الأول عام٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨م، من حلب إلى دمشق والقاهرة عن الاحتلال العثماني لكيليكيا[٧]، اضطربت أحوال السلطان قايتباي وعزم على تجهيز حملة عسكرية جديدة، فأمر بمصادرة أموال الناس ونادى للعسكر بالعرض، فحضر الأتابكي أزبك فكتب بحضرته من الجند نحو أربعة آلاف مملوك وعين من الأمراء المقدمين أحد عشر أميراً ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات زيادة على ستين أميراً، وأرسل السلطان ثلاثة من الخاصكية على وجه السرعة لكشف أخبار الجيش العثماني، وأمرهم بإرسال الأخبار بمنتهى السرعة[٨]، ثم عين آقبردي الدوادار وكاتب السر ابن مزهر وطلب منهما أن يتوجها إلى جبل نابلس وما حولها لجمع العشير والمال[٩]. وكان

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٠ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٩.
(٢) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١١٦ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٥١ ودهمان: المرجع نفسه، ص ١٨٩.
(٣) Shai, Har - El: op. cit, p164.
(٤) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٥. عين زربة: مدينة من نواحي المصيصة انظر اليعقوبي: المصدر السابق، ص ٢٠٥.
(٥) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١١٧. وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٠.
(٦) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٥.
(٧) البصروي: المصدر السابق، ص ١٢٨.
(٨) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٠ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٩.
(٩) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١٠٣٢ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٥٠ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٩٤.

السلطان قد استدعى بطريرك النصارى ورئيس اليهود وفرض عليهم مالاً لتموين هذه الحملة، وقد ارتكب قايتباي مظلمة شنيعة بهدف جمع المال وهي أنه أرسل لكاشف الشرقية بأن يأخذ من البلاد الخمس من خراج المقطعين، بسبب تجهيز خيالة من فرسان عربان الشرقية ويتوجهون إلى العسكر عوناً له، «فحصل للمقطعين غاية الضرر من كبس البلاد والقبض على الفلاحين»(١).

في ظل ظروف اقتصادية صعبة ومتدهورة وخاصة مع ارتفاع الأسعار وتوقف حال الناس(٢)، فإن السلطان قايتباي بعث نفقات الأمراء والمقدمين والعشرات «فبلغت النفقة على الأمراء خاصة دون الجند مائة ألف دينار وثلاثة آلاف دينار»، ثم أنفق على الجند فأعطى لكل مملوك «مائة دينار وجامكيه أربعة أشهر وثمانية آلاف درهم وثمن جمل سبعة أشرفية»، فكان جملة النفقة على الأمراء والجند نحو من ألف ألف دينار ـ مليون دينار(٣) ـ وأمام هذه النفقة الهائلة التي أنفقها السلطان على هذه الحملة العسكرية، فقد اندهش المؤرخ الظاهري وعدّها «من نوادر التجاريد التي لم يسمع بمثلها»(٤).

في مدينة دمشق، جرت أيضاً تحضيرات مماثلة للمشاركة في هذه الحملة العسكرية، فبعد أن أنفق نائب دمشق قانصوه اليحياوي(٥) المال على الجند، خرج وعسكره في جمادى الأول إلى مسطبة السلطان باللبس الكامل والخيول الملبسة بالعدة الكاملة(٦)، وتوجه نحو حلب(٧).

في هذه الأثناء وعند الانتهاء من إتمام التحضيرات العسكرية ودفع النفقة والرواتب للجنود، خرجت فرق الجيش المصري في جمادى الآخرة بقيادة الاتابك أزبك ووصلت إلى مدينة دمشق الواحدة تلو الأخرى، وذلك بين جمادى الأخرة ورجب، ومنها توجهوا نحو حلب حيث انضموا إلى الجيش الدمشقي، بانتظار الإشارة ببدء الهجوم(٨).

---

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٥٣.
(٢) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٩٠.
(٣) السخاوي: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠٣٣ وابن اياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥١.
(٤) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١١١. وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٥٠.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص ١٩٩.
(٦) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٩٠ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٨.
(٧) ابن طولون: المصدر نفسه، ج١، ص ٩١ ـ ٩٤ وابن الحمصي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣١٠ ـ ٣١١.
(٨) ابن طولون: المصدر نفسه، ج١، ص ٩٥ ـ ٩٦.



الحصار البحري لشمال بلاد الشام

على الرغم من رفض البندقية تموين قطع الأسطول العثماني من قبرص التابعة لها، إلّا أن الأسطول أبحر في بداية عام ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨ م، من قاعدته التي تجمع فيها في البحر الإيجي، بقيادة أحمد بن هرسك[1]، باتجاه ميناء الإسكندرون من أجل قطع الطريق على الجيش المملوكي الزاحف باتجاه الشمال، ولدعم القوات العثمانية البرية الموجودة في أدنه بقيادة علي باشا[2].

فيما يتعلق بحجم الأسطول العثماني فقد ذكر المؤرخ الظاهري بأنه كان مؤلفاً من ستين مركباً مشحونة بالمقاتلين والسلاح[3].

وإزاء المعلومات التي وصلت إلى المعسكر العثماني في أدنه حول التجمع العسكري المملوكي في حلب، قرر علي باشا التحرك من أدنه على رأس قواته البرية لمحاربة المماليك، وباشر في الوقت نفسه ابن هرسك بفرض حصار على مرفأي آياس وطرابلس[4]، على اعتبار أن المرفأ الأول هو الوحيد الذي يمكن المماليك من الوصول إلى البر الكيليكي، والثاني هو الأقرب لهم للانطلاق من شاطئ بلاد الشام فهو على مسافة قصيرة من حلب. لقد هدفت هذه الخطوة، التي أقدم عليها ابن هرسك، إلى إغلاق المنافذ البحرية الهامة بوجه المماليك، ولإجبارهم على استخدام الطريق التقليدية البرية القديمة التي كانت تمر بشاطئ البحر عند حافة جبال بغراس، الأمر الذي يسهل على العثمانيين عملية محاصرتهم[5].

إن خطة العثمانيين العسكرية هذه كانت تنم عن معرفتهم الجغرافية للمنطقة، وتشير إلى براعتهم وذكائهم العسكري في الخطط الحربية. فعزل كيليكيا عن بلاد الشام كان الهدف من ورائه قطع خطوط الإمدادات الأساسية بين المنطقتين

(١) Knolles: op. cit, p 305.

(٢) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١١٨ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٤ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥.

(٣) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٥٥. وحول مرتبات السفن الحربية العثمانية وتجهيز كل منها انظر الشناوي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٨٧٤ ـ ٨٧٣.

(٤) Shai Har - El: op. cit, p176 - 177.

(٥) Ibid, p178.

بالإضافة إلى تقوية وتدعيم المراكز العسكرية العثمانية في المنطقة المحتلة حديثاً.

وحول حصار الجيش العثماني للمماليك، فقد ذكر الظاهري أن السلطان بايزيد الثاني قد بعث عدة مراكب من جهة البحر وهي مشحونة بالعساكر، وقد وصلت إلى جهة باب الملك ليقاطع بها على العسكر المصري[1]. أما المؤرخ سعد الدين الذي استقى معلوماته من إدريس البدليسي[2] المعاصر للأحداث فقد ذكر بأن المماليك عندما وصلوا إلى ممر باب الملك عند حافة جبل بغراس، رأوا السفن العثمانية راسية على مقربة من الشاطئ الأمر الذي اربكهم وتركهم في حالة من الضياع[3].

لقد ورد كثيراً «باب الملك» في المصادر المملوكية كمحطة متوسطية للجيش المملوكي على الطريق العسكرية بين قلعة بغراس وآياس في الأراضي الكيليكية. ومن خلال نظرة متأنية على هذا الدليل المختصر تتبين حقيقة هذا الأمر بوضوح:

- ابن الجيعان: أنطاكية ـ بغراس ـ باب الملك ـ كيليكيا[4].
- ابن اجا: أنطاكية ـ ممر بغراس ـ باب الملك ـ آياس[5].
- الصيرفي: أنطاكية ـ بغراس ـ باب الملك ـ آياس[6].

إن أهمية باب الملك هذا، تكمن في موقعه الجغرافي الاستراتيجي على الطريق الشاطئية الضيقة، التي وصفها المؤرخ ابن الجيعان بأنها طريق صعبة جداً لا يمر بها إلّا الواحد[7].

على أنه مهما يكن من أمر، فإن المناوشات العسكرية الأولى التي حصلت بين المماليك والعثمانيين عند باب الملك، انفرد بتدوينها ابن طولون المؤرخ الدمشقي حيث ذكر بأنه في الحادي عشر من شعبان ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨ م، «هجم أوائل المشاة ومعهم ابن إسماعيل شيخ نابلس وأوائل العسكر إلى داخل باب الملك من طريق دلّوا عليه، فخرج عليهم من خلفهم كمين ابن عثمان من البحر وغيره وذهب خلفهم جانب عظيم من العسكر وأخذوهم وسطاً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً

---

(١) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١١٨ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٤.
(٢) حول إدريس البدليسي انظر: الغزي: في الكواكب السائرة، ج١، ص ١٦٠.
(٣) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٦.
(٤) ابن الجيعان، القاضي بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى: القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، تحقيق د. عمر تدمري، جروس برس، ط١، ١٩٨٤م، ص ٦١ ـ ٦٢.
(٥) ابن أجا: المصدر السابق، ص ١٢٤.
(٦) الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص ٣٠.
(٧) ابن الجيعان: المصدر السابق، ص ٦٢.

وغرق من الفريقين آخرون منهم شد الشون، ونائب حماه سيباي»[١].

وأمام هذه الهزيمة التي حلت بالقوة المملوكية، قرر الأتابكي أزبك الخروج بنفسه من حلب للانتقام من العثمانيين، فوصل في أول رمضان إلى قلعة بغراس، حيث انضمت إليه فرق تركمانية من بلاد الشام وكيليكيا[٢]، ثم تابع زحفه شمالاً، وما إن وصل إلى باب الملك حتى نشب القتال بين الفريقين، ولكن القصف الشديد الذي فرضه الأسطول العثماني أثار القلق في صفوف جنود المماليك «وانقطعت قلوب المقاتلين وظنوا أنهم مأخوذون لا محالة ولولا تدخل العناية الإلهية لفنوا عن آخرهم»[٣].

وتفسير ذلك أنه وبينما كان جنود المماليك على ذلك الخوف، إذ برياح عاصفة هبت من جهة خليج الإسكندرون، فأغرقت غالب مراكب العثمانيين[٤]، وقتل عدد كبير من جنودهم، والذي استطاع أن يفر منهم ويصل إلى البر قتلهم العسكر المملوكي، وكانت النصرة لهم على العثمانيين: «وهذا على غير القياس»[٥] على حد تعبير ابن إياس.



هزيمة العثمانيين

في الخامس من رمضان ٨٩٣ هـ/١٤٨٨م، وبعد استخلاصه لباب الملك من أيدي الجنود العثمانيين، تابع أزبك مهمته العسكرية الموكول إليه تنفيذها. فبعد أن ترك فرقة مملوكية على قلعة كوارة، لتدعيم مقاومتها في وجه الحامية العثمانية، عبرت القوات المملوكية نهري جيحان وسيحان، ووصلت إلى «آغا - جايري» - وهو سهل يقع بين أدنه وطرطوس - حيث عسكرت فيه[٦].

فيما يبدو أن علي باشا الذي كان معسكره على بعد ميلين من أدنه، قد علم

(١) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٩٧.
(٢) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٦.
(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٥.
(٤) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٢١ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٥٥ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٦.
(٥) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٥٥.
(٦) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٦.

بأنباء التجمع العسكري المملوكي في «آغا ـ جايري»، فأصدر أوامره إلى الجيش العثماني بالتحرك استعداداً للمواجهة مع المماليك.

من جانبه، ما إن شاهد أزبك الجيش العثماني، حتى راعه منظره لكثرة عدده وعدته[١]، وبدا له أن الغلبة ستكون للعثمانيين. وإزاء هذا الواقع، تم وضع خطة عسكرية تقتضي الهجوم فوراً وأخذ المبادرة، ظناً منهم أن القوات العثمانية كانت منهوكة القوى من جراء هزيمتها السابقة عند باب الملك وبالتالي يستطيع الجيش المملوكي أن يوازن تفوقهم العددي وأسلحتهم الضخمة[٢].

كان الجيش المملوكي مقسماً إلى خمسة كراديس أو أقسام رئيسية: القلب، المقدمة، الجناح الأيمن أو الميمنة، الجناح الأيسر أو الميسرة، الساقة أو المؤخرة، والجدير بالذكر أن هذا التقسيم استمر على ما كان عليه في صدر الإسلام[٣]. كان القلب وهو الأقوى من بين هذه الأقسام بقيادة القائد العام الأتابكي أزبك، المقدمة وتضم أربعة آلاف جندي من المماليك السلطانية أو الجلبان وعليها تمراز الشمسي، الجناح الأيمن وعليه حاكم دمشق قانصوه اليحياوي، الجناح الأيسر وعليه نائب حلب الأمير أزدمير، الساقة أو المؤخرة أخذت مواقعها وراء خط الهجوم وهي تحمل الزاد والعتاد ويجرون دواب النقل والآلات الثقيلة. وإلى جانب الجناح الأيمن والأيسر كانت هناك القوات الاحتياطية، فمن جهة اليمين كانت فرق التركمان التابعين لبلاد الشام، ومن جهة اليسار الفرق التركمانية التابعة لكيليكيا (رمضان ـ الترغود) أما في الصفوف الأمامية فقد شكل المشاة الذين أحضروا من جبل نابلس وأقسام أخرى من بلاد الشام، خطاً أمامياً للمواجهة[٤].

من الجانب العثماني، فقد قسم الجيش إلى تقسيمات متشابهة، القلب بيد علي باشا، المقدمة وتضم ألفي جندي إنكشاري وهم العمود الفقري للجيش العثماني بقيادة كومندان آغا، الميمنة وعليها حاكم الأناضول سنان باشا وحاكم قرمان يعقوب باشا، الميسرة عليها حاكم الروملي، وبين القلب والجناحان هناك الفرق الاحتياطية بقيادة قادة عسكريين ثانويين، أما المشاة فقد أعطيت مهام المدافع والآلات الثقيلة أمام عناصر الإنكشارية والقوات العسكرية الأخرى[٥].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) Shai, Har - El: op. cit, 184.

(٣) نجا، د. فاطمة هدى، محاضرات الحضارة العربية، مكتبة الإيمان، ص ٦٣.

(٤) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٧.

(٥) سعد الدين: المصدر نفسه، ص ٥٦ ـ ٥٧.

وما إن أعلنت ساعة البدء من صبيحة يوم السبت الموافق الثامن من رمضان٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م، حتى نشب القتال والتحم الجند (مقدمة بالمقدمة، قلب بالقلب، ميمنة بالميمنة . . .)

وأمام دوي المدافع العثمانية ـ والتي بلغ عددها ثمانماية عجلة ـ ورصاص البنادق[(١)]، ارتبك المماليك، وهرب ابن إسماعيل شيخ نابلس وابن الحنش وأستادار الغور، وكاد تمراز الشمسي أن يقتل[(٢)]، وانكسرت ميمنة الجيش المملوكي بقيادة نائب الشام، فاضطر هذا الأخير إلى الهروب من موقعه، ولكنه نجح في الانضمام إلى لواء نائب حلب[(٣)]، حيث استطاعا معاً تشكيل ضغط قوي على ميمنة الجيش العثماني، وتمكنا بمساعدة التركمان الرمضانيين والترغوديين من تشكيل فجوة داخل خط الهجوم العثماني أدى إلى انهزام الجيش القرماني والجيش الأناضولي وهروبهما باتجاه قرمان[(٤)].

لم يكتف المماليك بما حصل، بل اندفعت القوات السلطانية بقيادة تمراز وراءهم، ولما وصلت إلى معسكرهم ولم تجد فيه أحداً، غنمت منه غنيمة[(٥)] كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك[(٦)]. في هذه الأثناء حدث ما قلب الأوضاع رأساً على عقب، فالجيش الروم‌للي الذي شكل ميسرة الجيش العثماني، نجح في إحداث فجوة داخل قلب الجيش المملوكي، مستغلاً فرصة انشغال المماليك السلطانية بجمع الغنيمة، الأمر الذي أدى إلى تقهقر أزبك وجنوده وتراجعهم نحو معسكرهم الذي وجدوه مسروقاً، فاضطروا عندئذ إلى قضاء الليل عند تلة صغيرة وراء نهر سيحان. ولمّا عادت المماليك السلطانية إلى المعسكر المملوكي ولم تجد أثراً لأحد ظنت أن الجيش المملوكي قد هزم، فهربوا باتجاه حلب، ولكن عند مرورهم بباب الملك تعرضوا لهجوم عثماني من جهة البحر أدى إلى قتل عدد كبير منهم، فيما نجح الباقون في الهرب ولكن بصعوبة، بعد أن تركوا غنائمهم وراء ظهورهم[(٧)].

(١) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣١٢.
(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص ٣٧.
(٣) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٩٨ وسعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٦ ـ ٥٧. Knolles: op. cit, p305 - 306.
(٤) Shai, Har - El: op. cit, p188.
(٥) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣١٢.
(٦) ابن اياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٦.
(٧) Shai, Har - El: op. cit, p190.

على الرغم من إصرار الجيش الروملي على ملاحقة أزبك وجنوده، إلّا أن علي باشا قرر الرجوع إلى معسكره للتزود بالزاد والعتاد، ولما وجده مسروقاً من قبل العناصر القرمانية، باشر بتحصينه وحمايته خوفاً من هجوم مملوكي مفاجئ[١]. ولكنه وأمام الخسارة الرهيبة التي مُني بها الجيش العثماني والتي كانت كبيرة جداً بالقياس إلى خسارة المماليك[٢]، ارتأى الرحيل والتوجه إلى «أركلي»، وقد تعرض هذا الجيش أثناء انسحابه لهجوم مباغت من قبل تركمان الورسق عند عبورهم جبال طوروس.

إن أخبار هذا الهجوم الذي تعرض له العثمانيون والتي وصلت إلى أزبك عن طريق موفد إمارة دلغادر، كانت حافزاً للقائد المملوكي بأن يتوجه إلى أدنه، حيث باشر بفرض حصار على المدينة[٣]. وبعد مضي حوالى ثلاثة أشهر[٤] على الحصار، وفي رواية أربعة أشهر[٥]، حيث قتل خلالها من الفريقين ما لا يحصى، أخذها الجيش المملوكي بالأمان[٦]، وغنموا منها سلاحاً وأموالاً[٧]. كذلك استسلمت طرسوس إلى القوات المملوكية، وعين قانصوه الغوري مجدداً وللمرة الثالثة حاكماً عليها[٨].

إن أخبار انتصار المماليك استقبلت في القاهرة بفرح عظيم، ودُقت البشائر بالقلعة لسبعة أيام، وخلع على المبشرين[٩]. ولما وصلت إلى دمشق رؤوس العساكر العثمانية وسناجقهم تلقاها الناس بفرح وسرور، وزينت المدينة زينة عظيمة لأجل هذا النصر، فكان يوماً عظيماً[١٠].

---

(١) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠.

(٢) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١٠٣٤ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣١٢.

(٣) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠.

(٤) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١١٤ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ وسعد الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٠.

(٥) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣١٤.

(٦) السخاوي: وجيزالكلام، ج٣، ص ١٠٧٨ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٢٤ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ وابن الحمصي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣١٢ والدبس: المرجع السابق، ج٦، ص ٥٠٤.

(٧) ابن الحمصي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣١٤.

(٨) الغزي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٩٥.

(٩) السخاوي: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠٣٤ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٢٣ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٦ وابن الحمصي: ج١، ص ٣١١ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٩٨.

(١٠) ابن الحمصي: المصدر نفسه، ج١، ص ٣١١ وابن طولون: المصدر نفسه، ج١، ص ٩٨.

أمام التقرير الذي أرسله أحمد باشا بن هرسك إلى السلطان العثماني حول الهزيمة التي لحقت بالجيش العثماني، أصدر بايزيد الثاني أوامره باعتقال جميع القادة العسكريين الذين هربوا من ساحة المعركة، حتى أنه كان ينوي قتلهم جميعاً لولا أنه خاف حصول فوضى داخل الفرق الإنكشارية، فاكتفى بإزاحتهم من مناصبهم ونفيهم إلى أماكن بعيدة[١].

بالمقابل عاقب المماليك بشدة الذين هربوا من ساحة المعركة، ففي شهر محرم ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٩م، قام الأمير آقبردي الدوادار وحاكم القدس الأمير دقماق بملاحقة بني اسماعيل ـ مشايخ جبل نابلس ورجالهم ـ بسبب هروبهم من ساحة المعركة، واسترجعوا منهم النفقة[٢].

ولقد أسفرت هذه المعركة عن قتل اثنين من كبار الأمراء المماليك وهما برسباي قرا[٣] وتغري بردى ططر[٤].

---

(١) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٦١.

(٢) العليمي، مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق محمود الكعابنة، مؤسسة الكتب الثقافية ط١، ١٩٩٩، ج٢، ص ٤٧٢، وكرد علي: المرجع السابق، ج٢، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص ١٠.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٤.

نهاية الحرب ومعاهدة السلام
٨٩٤ـ٨٩٧هـ/ ١٤٨٩ـ١٤٩٢م



عودة الاضطرابات الداخلية في مصر

على الرغم من انتصار المماليك في معركة «آغا ـ جايري» وظهورهم مجدداً بمظهر قادة العالم الإسلامي، إلّا أن الفتنة عادت لتظهر في صفوف المماليك الجلبان، فقد أثبت هؤلاء أكثر من مرة أنهم لا يقدرون خطورة الوضع السياسي التي كانت تتعرض له الدولة بين الحين والآخر، ولا الضائقات الاقتصادية التي كانت تمر بها، ولم يكن لهم من هدف سوى الحصول على النفقات دون النظر إلى حالة الدولة المالية أو التزاماتها الحيوية[1].

ففي ربيع الأول ٨٩٤ هـ/١٤٨٩م، بلغ السلطان أن المماليك الذين حضروا من الحملة العسكرية قصدوا إثارة فتنة كبيرة ويريدون نفقة بسبب نصرتهم، وبلغ قايتباي أيضاً أنهم قالوا: «إذا لم يعطنا السلطان نفقة قتلنا الأمراء والمماليك الذين كانوا بمصر ولم يسافروا».

ولما عيل قايتباي صبراً وأعيته وسائل الإقناع، ضاق بهم ذرعاً فدعا إلى عقد مجلس للمشورة ضم القضاة والأمراء للنظر في سوء تصرفهم ومعالجة الحالة المادية المتردية، وشرح السلطان للحاضرين ما أصاب البلاد والعباد من سلوك الجلبان السيء، وبيّن لهم خطورة الموقف، وأفاض في شرح ما تكبدته الدولة من نفقات، وممّا قال لهم: «هؤلاء يرومون مني نفقة وقد نفد جميع ما كان في الخزائن من مال على التجاريد ولم يبق بها شيء من المال»[2]. فاتفق في الحال على أن يفرضوا على أرباب الأملاك والأوقاف التي بمصر والقاهرة أجرة شهرين مساعدة للسلطان على النفقة، فانفض المجلس على ذلك، ثم أمر السلطان بجباية

(١) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٤٧٠.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٠.

المال، وبعد أيام دخل الأتابكي أزبك ومن كان مسافراً في الحملة العسكرية من الأمراء وبقية العسكر وجماعة كثيرة من عسكر العثمانيين. وعقب دخولهم إلى القاهرة، أشيع بين الناس عودتهم إلى حلب عن قريب، ذلك أن الجيش العثماني عاد واستولى على أدنة، سيس، طرسوس وغير ذلك من البلاد الحلبية. ثم قويت الإشاعات بوقوع فتنة كبيرة وأن المماليك قد طمعوا بأخذ النفقة لكل واحد منهم مائة دينار، فقلق السلطان واشتد عليه الأمر، فاستدعى في الرابع من ربيع الآخر الخليفة المتوكل على الله أبي العز والقضاة الأربعة وسائر الأمراء، وأقسم بالله أنه نفد منه على هذه الحملات، من حين ولي السلطنة إلى ذلك الوقت، سبعة ملايين ومائة وخمسة وستون ألف دينار، ثم أمر من يُبلغ المماليك ما هو فيه من الكلف وأنه ليس عنده ما يعطيهم ويأمرهم بالصبر، فامتنعوا وأصروا على الامتناع مرة بعد أخرى بحيث أن تمراز أمير سلاح، وأمير آخور، وحاجب الحجاب كلموهم في آخر الممرات وهم مصممون على المئة، فحينئذٍ اشتد غضبه وهم بخلع نفسه ليضع الجميع أمام مسؤولياتهم. واعترف الجميع في هذا الاجتماع بسوء الأوضاع الداخلية لكنهم كانوا عاجزين عن ردع الجلبان، لذلك قرروا التمني على السلطان البقاء في منصبه، ثم تكرر تردد الأمراء بينه وبينهم، حتى تقرر الحال بعد جهد كبير على أن ينفق السلطان قايتباي على الجلبان خمسين ديناراً لكل منهم، يدفع أربعين معجلاً، وينفق عليهم عشرة دنانير بعد شهرين، كما ينفق على القرانصة[1] خمسة وعشرين ديناراً[2]، ثم فرق عليهم ثمن الخيل التي تلفت منهم في الموقعة أو في الطريق. ولم ينفق السلطان على من لم يحضرها بل استرجع من أكثر أولاد الناس ما كانوا أخذوه من الثلاثين ورسم بأخذ عشرين ديناراً من كل من له في الديوان من غير المماليك ألف درهم فما فوقها، وبأربعين ممن له ألفان، وبستين ممن له ثلاثة، ولم يتركوا أحداً حتى الخوندات، وقطعوا للخدام والبيوتات ونحوهم: شهرين شهرين[3].

إن هذه الأحوال المضطربة التي واجهتها الدولة المملوكية في تلك الفترة لهي إشارة واضحة ومهمة إلى مدى تصدع بنيان وأساس النظام السياسي المملوكي وتدهوره.

---

(١) القرانصة هم مماليك السلاطين السابقين.

(٢) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١٠٧٨ ـ ١٠٧٩ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ١٤٨ والعليمي: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٧٣ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩١.

(٣) السخاوي: المصدر نفسه، ص ١٠٧٩.



إعادة تحالف المماليك مع إمارة دلغادر

عقب الهزيمة التي حلت بالعثمانيين في معركة «آغا ـ جايري»، أدرك علاء الدولة أنه لن يسلم من تعديات المماليك ومن أنه سوف يكون في المرحلة اللاحقة محط أنظارهم والهدف الرئيسي لانتقامهم، لذلك التزم جانب الحرص في علاقاته معهم وانتهج سياسة ديبلوماسية تقوم على التقرب والتودد بهدف إعادة العلاقات السياسية إلى مجراها الطبيعي، فأقدم على تزويج ابنته من ابن القائد المملوكي أزبك المنتصر(١).

في الواقع إن موقع إمارة دلغادر على حدود دولة المماليك، لطالما دفع أمراءها في كثير من الأحيان إلى استرضاء خاطر سلاطين المماليك وإلى عدم المجازفة في الدخول في حرب مباشرة ضدهم. وقد تجلى هذا الأمر بوضوح في الأعوام التالية: ففي عام ٨٨٩ هـ/ ١٤٨٤م، على أثر الهزيمة التي لحقت بقوات علاء الدولة وحلفائه العثمانيين وخوفاً من توجيه حملة عسكرية مملوكية ضده، أطلق حاكم دلغادر سراح جماعة من المماليك المأسورين لديه، وكذلك في عام ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥م، لمّا وصل الجيش المملوكي إلى حلب، توطئة للهجوم على كيليكيا، أرسل علاء الدولة يسأل الصلح، وعلى الرغم من أن طلبه رُفض إلّا أنه أبى الانضمام في العامين التاليين ٨٩١ هـ ـ ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٦م ـ ١٤٨٧م إلى الجيش العثماني في حملته المقررة ضد المماليك وأصر على تجنب الدخول في مواجهة عسكرية مباشرة ضدهم بالرغم من استمرار تحالفه مع العثمانيين.

ظاهرياً وفيما يبدو أن مواقف علاء الدولة هذه حيال دولة المماليك قد أثارت ريبة السلطان بايزيد الثاني تجاهه، ودفعته إلى تقديم الدعم والمساعدة العسكرية لأخيه المنافس له على الحكم شاه بداق الهارب في شوال ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧م من سجن القلعة في دمشق.

ففي شهر ربيع الآخر٨٩٦ هـ/ ١٤٩١م، جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن شاه بداق حضر إلى البستان ومعه طائفة من عسكر السلطان العثماني وكبس على أخيه علاء الدولة وقبض على اثنين من أولاده(٢). وبعد فترة وجيزة، وصلت رسالة

---

(١) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٤٨ ـ ١٥٠ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٤ وسعد الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٣ ـ ٦٤ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٨٢.
Knolles: op. cit, p304.

مستعجلة من نائب حلب تفيد أن العسكر العثماني قد طمع في أخذ البلاد الحلبية واستولى على العديد من القلاع(١)، ولمّا بلغ السلطان ذلك عرض العسكر، وعين حملة عسكرية جعل القائد عليها قانصوه الشامي(٢) أحد المقدمين، وضم إليهم عدد من الأمراء، وأنفق عليهم وعلى الجند، وأمرهم بسرعة الخروج(٣) مدداً لعلاء الدولة في محاربة أخيه شاه بداق(٤). وكان قبل ذلك ولتمتين أواصر التعاون مع حاكم دلغادر، أن أرسل قايتباي خلعة إلى عبد الرزاق شقيق علاء الدولة وقرره في أتابكية حماه عوضاً عن ابن طرغل الذي نقل إلى نيابة طرسوس(٥).

في جمادى الآخرة، خرجت الحملة العسكرية من القاهرة وقد بلغت النفقة عليها مائة وخمسين ألف دينار غير جامكية أربعة أشهر وثمن الجمال(٦)، وكانت وصلت إلى دمشق في رجب، حيث دخلها قانصوه الشامي مدخلاً حافلاً، وقد تقدمه غالب العسكر إلى حلب فوقع بها فتنة في ذلك الوقت بسبب المماليك السلطانية ممّا اضطر إلى إخراجهم من ظاهر حلب(٧). في هذه الأثناء، شنّ علاء الدولة هجوماً مفاجئاً على شاه بداق وجماعة من أعيان أمراء السلطان العثماني وانتصر عليهم وقتل غالبهم وأسر إسكندر بن ميخال(٨)، أحد باشات السلطان العثماني(٩)، ونهب كثيراً في تلك الجهات من القرى ونحوها، ثم جهزه في الحديد إلى القاهرة مع نحو مئتين رأس علقت بحلب والشام وغيرهما(١٠). ولما دخل إسكندر الشام في شعبان ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٩م طرحه نائبها عنه. وكان دخوله

---

(١) الظاهري: المصدر نفسه، ج٨، ص ١٤٢ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٦١ ـ ٢٦٥.
(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص ١٩٩.
(٣) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١٠٧٩ ـ ١٠٨٠ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٥١ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦.
(٤) السخاوي: المصدر نفسه.
(٥) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٥١ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ١٠٦ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٦) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١٠٧٩ ـ ١٠٨٠.
(٧) ابن طولون: المصدر السابق.
(٨) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٥٧ وابن إياس: ج٣، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٧ وابن طولون: المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٧ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٣.
(٩) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣١٦.
(١٠) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ١٠٧ ودهمان: المرجع السابق.

الشام والقاهرة وعلى رأسه الطرطور بالدائر الأحمر على عادة بلادهم، وصحبتهم سناجق منكوسة[1].

ولم تمض عدة أشهر حتى عاد شاه بداق إلى القاهرة في محرم ٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠م، بسبب وقوع فتنة بينه وبين السلطان العثماني وصحبته قاصد من عند حاكم «ألاق قوينلو» يعقوب أرسله ليشفع له، فخلع عليه النائب وأكرمه وأنزله بحارة العسكر[2].



المساعي الديبلوماسية

شهدت القاهرة نشاطاً ديبلوماسياً ملحوظاً عقب معركة «آغا ـ جايري»، وأصبحت المركز الأكثر ديناميكية في تلك الفترة.

فقايتباي مال مجدداً إلى الديبلوماسية من أجل استعادة الأمير جم إلى مصر، وأرسل مندوباً عنه إلى جزيرة رودس في محاولة لإقناع زعيمها بالتوسط لدى شارل الثامن ـ ملك فرنسا ـ بشأن تسليم جم لقايتباي لقاء أن يدفع السلطان مقابل ذلك مبلغ مئة ألف دوقية[3].

ولاحقاً وصل إلى القاهرة قاصد من قبل رئاسة فلورنسا ـ التي قبلت المزايا التي منحها السلطان لتجارتها ـ يدعى لويجي ديللا ستوفاً بمهمة ديبلوماسية حاملاً للسلطان شكرها للهدايا التي تلقتها منه، وليعرض عليه في الوقت نفسه مواداً تجارية إضافية برجاء إقرارها[4].

وفيما كانت التحضيرات على قدم وساق لنقل جم إلى روما، أرسل السلطان بايزيد الثاني موفداً له إلى باريس من أجل إقناع الملك شارل الثامن بضرورة إبقاء جم في فرنسا مقابل أن يقدم السلطان العثماني جميع الآثار المقدسة، التي كان والده محمد الفاتح استولى عليها عند فتحه القسطنطينية، بالإضافة إلى دفع راتب سنوي قدره خمسون ألف دوقية، وهدّد في الوقت نفسه بأنه سوف يصلح علاقاته

(١) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١٠٨٠.
(٢) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٧٢ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ـ ٢٦٨ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ١١٤.
(٣) Thuasne: op. cit, p 192.
(٤) هايد: المرجع السابق، ج٣، ص ٣٦٥.

بالمماليك إذا ما تم ترحيل جم إلى الخارج أو تسليمه لأحد أعداء العثمانيين المطالبين به[١].

فيما يبدو أن الموفد العثماني الذي وصل متأخراً، قد فشل في تحقيق المهمة التي كان ينوي إنجازها بسبب ترحيل جم إلى روما. فجم كان قد أبحر من طولون في ٢١ شباط ١٤٨٩ ودخل روما في العاشر من آذار حيث استقبله البابا استقبالاً رسمياً حافلاً، وذلك لأنه كان يتوقع حرباً صليبية جديدة[٢]، فأنزله في الفاتيكان حيناً وفي كنيسة القديس أنجلو حيناً آخر، وكان فيها محروساً حراسة روعيت فيها مكانته[٣].

مهما يكن من أمر، فإن جم ما إن أصبح حبيساً في روما، حتى طلب حاكم هنغاريا ونابلي من البابا تسلمه، وكذلك أرسل قايتباي قاصداً له من أجل هذه الغاية[٤].

أما بايزيد الثاني الذي أزعجه انتقال أخيه من مكان إلى آخر ومن دعوة البابا إلى القيام بحملة صليبية أوروبية ضده، ارتأى في تلك الآونة إصلاح علاقاته بدولة المماليك؛ مغتنماً فرصة الاضطرابات الداخلية والأوضاع المالية المتردية التي كان يواجهها قايتباي، والتي وصلته أخبارها عن طريق رسالة أرسلها له شخص يدعى أحمد بن الديوان من أعيان الرؤساء في حلب ومن المقربين للسلطان المملوكي[٥]؛ فأرسل مبعوثاً إلى القاهرة ليعرض الصلح على أساس الاحتفاظ بمفاتيح أدنه وطرسوس وكولك وكواره، معتقداً أن قايتباي تحت عبء هذه الظروف الضاغطة سوف يكف عن متابعة الحرب ويوافق على شروط الصلح.

ولكن الأحداث أخذت منحى آخر لم يكن بالحسبان، فالقاصد العثماني الذي وصل في الوقت الذي خرجت فيه القوات العسكرية المملوكية لمساعدة علاء الدولة، رفض طلبه، ذلك أن قايتباي، الذي شعر بموقع القوة بعد انتصاره في «آغا ـ جايري» والذي كان يحاول في تلك الفترة إقامة علاقات ديبلوماسية مع الدول الأوروبية، قد رفض الطرح العثماني واعتبره محاولة لكسب الوقت، وأصرّ على الانسحاب غير المشروط من كيليكيا وردّ على القاصد: «إذا أطلق تجار المماليك الذين عنده وبعث

(١) Thuasne: op. cit, p 216 - 223.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩٢ وزقلمة: المرجع السابق، ص ٩٦ وموير: المرجع السابق، ص ١٧٣.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩٢.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩٣.
(٥) لقد انكشف أمر أحمد بن الديوان فرسم السلطان قايتباي بسلخه في جمادى الآخر، عام ٨٩٤هـ انظر ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٦.

مفاتيح القلاع التي أخذها كاتبناه في أمر الصلح، وأرسلنا له قاصداً»[١].

ومن جانب آخر، وصل موفد عثماني إلى جزيرة رودس بشأن تقديم اعتراض رسمي على نقل جم من فرنسا إلى روما، والتحذير من حصول تحالف مملوكي ـ بابوي في تلك الفترة، ولكن زعيم فرسان القديس يوحنا طمأن السلطان بايزيد الثاني، وأكد للمبعوث العثماني بأن ترحيل جم من فرنسا إلى روما كان تحت رعايتهم ولم يكن مخالفاً لاتفاقية عام ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٢م، واقترح على السلطان بايزيد أن يستأنف المفاوضات مع البابا ويرسل له موفداً بهدف شل الاتصالات الديبلوماسية الجارية مع المماليك.

في هذه الأثناء وصل إلى القاهرة مبعوث بابوي وآخر بندقي، الأول من أجل تقديم التهنئة بالنصر المملوكي في «آغا ـ جايري» ومن اجل التشاور في قضية جم، والثاني بهدف التباحث في قضية قبرص، فالبندقية كانت ـ كما سبق وأشرنا ـ قد انتهزت فرصة تأخر الملكة كاترينا عن دفع الجزية للسلطان المملوكي وأقنعت الملكة بالتنازل لها عن السلطة في الجزيرة، فأوضح الموفد من خلال زيارته للسلطان أن هذا التصرف إنّما جاء نتيجة عدم قدرة الملكة على الوفاء بالتزاماتها وضماناً لوصول الجزية في موعدها، وأكّد أن هذا الإجراء لا يمس سيادة السلطان على الجزيرة[٢].

إن قرار البندقية بضم الجزيرة إلى نفوذها قد ارتكز على عاملين أساسيين:

١ ـ العزم على أن تجمع في يدها القوية كل مواقع بلاد الشرق الأدنى التي لم يزل العنصر الغربي والمسيحي متفوقاً فيها.

٢ ـ لتشكل على هذا النحو سداً منيعاً قادراً على صد غزوات العثمانيين، لأنها كانت ترى هؤلاء أخطر أعدائها فتكفلت بقتالهم، ولم يكن احتلال قبرص سوى مرحلة في تحقيق هذا المشروع الكبير[٣].

ونجحت البندقية في الحصول على اتفاقية من السلطان، اعترف فيها هذا الأخير بإشرافها على حكم الجزيرة[٤].

من جانبه استقبل قايتباي المبعوث الفلورنسي بحفاوة بالغة، وبادر بقبول كل

---

(١) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١٠٨٠ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٥٣ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٦٦ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٣.

(٢) هايد: المرجع السابق، ج٣، ص ٢٩٥.

(٣) هايد: المرجع نفسه، ج٣، ص ٢٩٦.

(٤) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٥٣٣.

طلبات الحكومة الفلورنسية وأخذ كل الدلائل على الرعاية والمودة، ولم يغادر المبعوث الفلورنسي القاهرة إلّا بعد أن أبرمت اتفاقية جديدة نالت بموجبها فلورنسا حق توسيع تجارتها[1].

إن توقيع المعاهدات مع كل من البندقية وفلورنسا قد جعلت قايتباي يتوقع الدعم الكافي لمطالبه في مباحثاته مع البابا، على اعتبار أن هذا الأخير كان ابتدأ بتجهيز حملة صليبية أوروبية ضد العثمانيين، لذلك أراد السلطان المملوكي مجدداً أن يكون رده الأمير جم ورغب بأن يسترده إلى مصر فأظهر استعداده للتنازل عن كثير للبابا ـ فعرض عروض جمة مقابل حصوله على هذا الأمير[2]، حتى أن البعض ذهب بعيداً وزعم بأن قايتباي عرض تسليم بيت المقدس[3].



الحملة المشتركة بين المماليك وإمارة دلغادر على قرمان

وجد علاء الدولة نفسه عقب انتصاره على أخيه شاه بداق وحلفائه العثمانيين بموقع يسمح له مجدداً في بسط سيطرته على قيصريه الحدودية؛ التي استولى عليها القرمانيون عام ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م، ثم العثمانيون عام ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٤م، والتي طالما طمح أسلافه بضمها إلى ممتلكاتهم.

فإثر تحرك الجيش العثماني وتوسيع دائرة الحرب فيما وراء حدود كيليكيا، أرسل علاء الدولة رسالة إلى السلطان قايتباي، يستحثه فيها على متابعة القتال ضد العثمانيين الذين حشدوا قواتهم قرب قيصرية بآسيا الصغرى[4]، ووصلت طلائع عسكرهم إلى كولك[5].

وأمام هذه الأخبار التي وصلت إلى القاهرة في ربيع الأول ٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠م، تنكد السلطان المملوكي ودعا فوراً إلى الاستعداد لتجهيز حملة عسكرية

---

(١) هايد: المرجع السابق، ج٣، ص ٣٦٥.

(٢) Depping, G.B: Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe depuis les croisades jusqu'a la fondation des colonies d'Amerique, Paris 1865, p 480.

(٣) زقلمة: المرجع السابق، ص ٩٦ وموير: المرجع السابق، ص ٧٣
Thuasne: op. cit, p 265 - 268.

(٤) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٧٥ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٩ وعبد التواب: المرجع السابق، ص ١٧١.

(٥) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٦٩ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٤.

جديدة كان لا جدوى منها في ظل الاضطرابات الداخلية والصعوبات المالية التي كانت تواجهها دولة المماليك في تلك الفترة[1]، ولم يكن لها نتيجة تذكر سوى إيغار صدر السلطان العثماني، وتحريك الرغبة في الانتقام[2].

على أية حال، باشر السلطان قايتباي بجمع الخمس من ضواحي الشرقية، كما فعل عند خروج الحملة العسكرية الماضية من اجل جمع فرسان العرب، فحصل للمقطعين غاية الضرر والأذى بسبب قطع الجيش من خراجهم مرتين. . ولما عرض السلطان العسكر وبادر إلى تفرقة النفقة، وقعت في ذلك اليوم بعض الاضطرابات في صفوف المماليك الجلبان، فهدد قايتباي مجدداً بالتخلي عن السلطنة وبالذهاب إلى مكة، ولم تهدأ الثورة إلّا بعد أن أنفق على كل مملوك مئة دينار كالعادة وجامكية أربعة أشهر وثمن عجل وأنفق على الأمراء والمقدمين والطبلخانات والعشرات.

ولتخفيف عبء التكاليف المادية، اضطر السلطان لأول مرة من إشراك أولاد الناس في هذه الحملة فأمرهم ان يتعلموا رمي البنادق الرصاص، وأنفق على كل واحد ثلاثين ديناراً أي ما يعادل أقل من ثلث ما أنفق على أي مملوك، وأشرك كل اثنين في جمل[3].

على الرغم من أن المماليك قد عرفوا الأسلحة النارية مثل العثمانيين إلّا أنهم لم يستغلوا معرفتهم هذه ليحولوها إلى أسلحة حاسمة في ميدان القتال[4]، بل وعندما قرر المماليك بعد معركة «آغا ـ جايري» استخدام بنادق الرصاص بشكل واسع، وأسوة بالعثمانيين، أظهر قرارهم هذا قلة الخبرة في هذا المضمار، وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال سوء اختيار الطبقة الاجتماعية التي وليت مهامها بسبب افتقارها إلى الأهلية والخبرة العسكرية.

في الواقع يمكن القول بأن التحضيرات والاستعدادات العسكرية التي جرت لإخراج هذه الحملة كانت تحمل في طيّاتها مجدداً إشارة واضحة وتأكيد صريح إلى مدى الضعف الرهيب الذي وصلت إليه بنية المجتمع العسكري المملوكي في تلك الآونة.

---

(١) Boulos: op. cit, v4, p 538.

(٢) عاشور: مصر والشام، ص ٣٨٩.

(٣) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٧٦ وما بعدها وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٩ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٤.

(٤) Ayalon: op. cit, p 61.

على أية حال ففي٢٢ربيع الثاني٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠م، خرج الأمير أزبك على رأس هذه الحملة من القاهرة قاصداً البلاد الحلبية، وصحبته الأمراء وكانت عدتهم عشرة، وأما الأمراء العشرات والطبلخانات فكانوا زيادة على الخمسين أميراً، والمماليك السلطانية كانوا أكثر من أربعة آلاف مملوك، وبلغت النفقة على الأمراء والجند نحو خمسمائة ألف دينار، ولم يبق بمصر سوى آقبردي الدوادار وأزدمر تمساح. وعلى الرغم من أن السلطان قد أمر العسكر بأن لا يخرج منهم أحد قبل الأمير أزبك إلا أنهم لم يسمعوا له شيئاً[١]، وفي هذا إشارة أخرى إلى ضعف الانضباط العسكري لديهم. كان لخروجهم يوم مشهود واستمرت الأطلاب تنسحب من إشراق الشمس إلى قريب الظهر، وخرج الأمراء ومماليكهم باللبس الكامل وآلة السلاح[٢]، وقد انضم إليهم في فلسطين الرجال من قبل نابلس والقدس وجبل الخليل وغيرها[٣].

في جمادى الأول، دخلت فرق الجيش المملوكي إلى دمشق الواحدة تلو الأخرى[٤]، وأثناء إقامتهم في المدينة وصل قاصد عثماني أرسله شيخ عرب من كبار علماء بلاد الروم، اسمه أبو بكر، ذكر أن شيخه والعلماء وأرباب الوجوه قد ساءهم ما حصل بين الدولتين من حروب، وأن الكفار طغوا حيث رأوا المسلمين يقاتل بعضهم بعضاً، وأشاروا بالصلح وأن مفاتيح القلاع واصلة، فأجاب الأمير أزبك والأمراء «إنا نحن متوجهون حيث رسم لنا السلطان وأنت اذهب إليه، فإن رسم بالصلح فيكون ونحن هناك مجتمعون عليه». فتوجه القاصد إلى مصر بصحبة أحد الأمراء، وسار الأمير أزبك والعساكر إلى نحو حلب مجدين[٥]، حيث كان دخولهم إليها في أوائل جمادى الأخرة، وداموا بها بقيته، ثم ارتحلوا منها أول رجب، لمجيء المرسوم باستحثاثهم على المسير إعراضاً عن اعتماد القاصد الذي لقيهم في أثناء الطريق، إلى عينتاب[٦].

استهل أزبك حملته بالوقوف على نوايا العثمانيين الحقيقية، فأرسل ماماي الخاصكي في عشرة من مماليك السلطان إلى المعسكر العثماني ليحصل الكف

(١) كانت هذه الحملة العسكرية آخر حملات الأشرف قايتباي إلى السلطان العثماني ولم يجرد بعدها أبداً. ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧٠ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٢) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٧٠ ودهمان: المرجع نفسه، ص ١٩٥.
(٣) العليمي: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٧٦.
(٤) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ١٢٠ ـ ١٢٣.
(٥) البصروي: المصدر السابق، ص ١٤٠ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٨٧ وابن طولون: المصدر نفسه، ص ١٢٢.
(٦) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١١٢٧.

ونحو هذا[١]. ولما استبطأ أزبك عودته، تحرك بجيشه فارتحلوا من عينتاب ونزلوا في مكان يسمى «سلطان بلي»، ونودي لهم بإقامة اثني عشر يوماً استعرض أزبك فيها سائر العساكر المصرية والشامية والفلسطينية ما عدا كبار الأمراء بالعدة الكاملة، ثم ارتحلوا «الرأس العين»[٢] فنزلوا «يرمك» وهو نهر أدنه، ثم «الزمنطو» حيث نزلوا بها في مرجة هائلة ابتهج العسكر بها، ثم لآخر مملكة السلطان وهي آخر بلاد علاء الدولة حيث أمدهم هذا الأخير بقوات إضافية، ثم ارتحلوا لأول مملكة السلطان العثماني بعد أن عبروا ممر «درب الحدث»، فخرقوا قيصرية ونكدة ونهبوا وقتلوا، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة أماكن أخرى من بلاد السلطان العثماني[٣].

وانقسم الجيش إلى فرقتين فرقة رجعت أدراجها إلى «دارندة» حيث عسكرت فيها وذلك لمنع العثمانيين من التوجه إلى إمارة دلغادر، وفرقة بقيادة أزبك توجهت جنوباً نحو «أركلي»، وهموا بالكف عنها لكونها من أوقاف المدينة النبوية، ثم بدا لهم تركه بإشارة من ابن طرغل نائب طرسوس[٤]. ثم تابعوا مسيرهم على الرغم من مطالبة العسكر بالعودة إلى مصر فاجتازوا الممرات الكيليكية، وقاموا بمحاصرة «قلعة كولك» ثم بدا لهم ترك ذلك بسبب نقص المؤن والعليق[٥]، واتجهوا نحو «كواره» فحاصروها أزيد من شهر ثم أخذوها بالأمان[٦]، وانطلقوا نحو حلب فكان تكامل العساكر بها في أواخر شوال. ولم يستمر نائب الشام ومن معه من المشاة معهم حتى دخلوها، بل فارقهم من أنطاكية إلى محل كفالته، وليم من السلطان على مفارقتهم. ولما قصدوا الإقامة بحلب لم يوفق المماليك الجلبان[٧] على الرغم من أن السلطان أرسل عدة مراسيم للأمراء بالإقامة بها «فما سمعوا له شيئاً» على حد تعبير إياس[٨]. واضطربت الأوضاع وزادت المشاغبات، حتى أنه ورد

---

(١) المصدر نفسه: ص ١١٢٨ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ١٣٩.

(٢) رأس العين: مدينة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودنيسر انظر السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١١٢٨.

(٣) السخاوي: المصدر نفسه والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٩٢ ـ ١٩٤ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧٣ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٥.

(٤) السخاوي: المصدر نفسه، ص ١١٢٨ ـ ١١٢٩ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٧٣.

(٥) السخاوي: المصدر نفسه،ص ١١٢٩ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٧٣.

(٦) السخاوي: المصدر نفسه، ص ١١٢٩ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣،ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٧) السخاوي: المصدر نفسه.

(٨) ابن إياس: المصدر السابق ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٦.

على السلطان قايتباي تقرير من الحاج الحلبي، وهم على ما قيل نحو أربعة آلاف جمل بخلق كثير خرجوا من حلب ومعاملتها هاربين من الفتن وظلم العسكر، الذي خرب بلاد السلطان العثماني وفسق في نسائها وقتل خلائق منها وحرّقها وذلك لأجل أسر قاصدهم الأمير ماماي[1]. فتنكد السلطان لهذه الأخبار وعتب على الجند حيث جاءوا ولم يعملوا شيئاً بل غلثوا الخواطر بينه وبين السلطان بايزيد الثاني بلا فائدة[2].

ثم جاءت الأخبار، بأن أزبك دخل إلى الشام، وكذلك الأمراء والنواب والعسكر قاصدين الدخول إلى القاهرة من غير إذن، وقد جاءوا بنية وقوع فتنة وصرّحوا بذلك[3].



الأسباب وراء سعي الطرفين نحو السلام

وكان نتيجة التوسع المملوكي في قرمان والمجازر الرهيبة التي ارتكبت بحق السكان المدنيين، أن قرر السلطان بايزيد الثاني إعداد حملة عسكرية جديدة، فباشر الاهتمام بالتجهيزات الحربية ليذهب بنفسه لمحاربتهم[4].

وفي أثناء التحضيرات العسكرية، وصل إلى إسطنبول قادماً من مصر قاصد سلطان الغرب وهو متولي القضاء بتونس اسمه محمد الحلفاوي، بقصد الصلح بين السلطانين المملوكي والعثماني[5]، ومحاولة إقناعهما بترك الوضع على حاله كما كان قبل بداية الاحتكاك[6].

فيما يبدو أن هذه المهمة الدبلوماسية التي قام بها سلطان تونس الحمصي المتوكل على الله عثمان (٨٣٩ ـ ٨٩٩ هـ/ ١٤٣٥ ـ ١٤٩٤م) لحل النزاع بين الدولتين المسلمتين بطريقة سلمية، قد جاءت في الوقت الذي كانت فيه الكيانات

---

(١) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ١٢٩.
(٢) ابن طولون: المصدر نفسه، ص ١٣٠. خبر دخول العساكر أطراف مملكة السلطان العثماني عند الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٣) الظاهري: المصدر نفسه، ج٨، ص ٢٠٦ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧٥ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٦.
(٤) حليم: المرجع السابق، ص ٧٣.
(٥) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٢٧.
(٦) طقوش: العثمانيون، ص ١٢٣.

المسيحية في الأندلس تضغط ضغطاً لا هوادة فيه على ما تبقى للمسلمين من معاقل ومراكز. فجيوش فرديناند الخامس وزوجته الملكة إيزابيلا الأولى، المتعصبة للمذهب الكاثوليكي والتي عرفت في التاريخ باسم «الملكة إيزابيلا الأولى الكاثوليكية»[١]، ما انفكت تحاول بشتى الوسائل انتزاع غرناطة ـ آخر معاقل المسلمين في الأندلس ـ من أبي عبد الله بن أبي الحسن[٢]. لذلك فقد كان من الطبيعي أن يخشى سكان الأندلس وأهالي شمالي أفريقيا من حصول الانشقاق الداخلي في صفوف المسلمين في العالم الإسلامي، نظراً لما يترتب عن ذلك من إضعاف المجتمع الإسلامي تجاه العدو الخارجي، في الوقت الذي كانت أنظارهم تتجه إلى الدولتين المملوكية والعثمانية بصفتهما أكبر دولتين إسلاميتين ينشدون مساعدتهما عسكرياً في الصراع الذي احتدم بين الإسلام والمسيحية في تلك الأقاليم وهو صراع اتخذ الطابع الصليبي العتيق[٣]. وعلى الرغم من أن ملوك غرناطة كثيراً ما لجأوا إلى طلب العون من المماليك[٤]، إلا أن العبء الأساسي في المواجهة العسكرية قد وقع على عاتق الدولة العثمانية التي لعبت في المغرب دوراً عسكرياً وسياسياً فعالاً للمرة الأولى عام ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧م، عندما وصل أسطول كمال رئيس بأمر من بايزيد الثاني لمساعدة المسلمين الإسبان[٥]، بناءً على طلب من حاكم غرناطة الذي أرسل قصيدة غراء شكا بها للدولة العثمانية إعتداء الإسبان على المسلمين في الأندلس والتمس فيها النجدة والإمداد لإنقاذها من أيدي الأعداء[٦]. ومنذ ذلك الحين ظلت السفن العثمانية راسية بصورة دائمة في مياه غرب البحر المتوسط تقوم بالقرصنة ضد السفن التجارية الأوروبية وتنقل الأسلحة إلى المورسكيين وأحياناً تدافع عن الموانئ الأفريقية الشمالية ضد هجمات الغزاة الأوروبيين[٧].

على أية حال فإن مهمة القاصد التونسي الإصلاحية لم تكن بالسهلة، نظراً لانقسامات الرأي في صفوف العثمانيين ولا سيما العلماء، حول العلاقة مع المماليك في تلك الآونة، بين أغلبية مؤيدة للحرب وداعية لها بناءً على التقارير

(١) الشناوي: المرجع السابق، ج٢، ص ٨٩٩.
(٢) حول حصار غرناطة عام ٨٩٥ هـ انظر السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١١٤٩.
(٣) الشناوي: المرجع السابق، ج٢، ص ٨٩٨ ـ ٨٩٩.
(٤) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٢٩ ـ ١٣٠
(٥) أوزتونا: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٢٢ وإيفانوف: المرجع السابق، ص ٩٥.
(٦) تاريخ جودت: المرجع السابق، ص ١٤٣.
(٧) أوزتونا: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ وإيفانوف: المرجع السابق، ص ٩٥.

المأساوية الواردة من قرمان[١]، وبين فئة رافضة لها وتسعى إلى إقامة الصلح مخافة أن يقتنص الأعداء هذه الفرصة فتتعرض ممتلكات الدولة العثمانية في أوروبا إلى الخطر[٢]، وخاصة بعد وفاة ماتياس كورفينوس ـ ملك هنغاريا ـ عام٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠م، بلا وريث ومحاولة ملك بولونيا العصيان على الدولة وتوسيع ملكيته على حساب هنغاريا[٣].

مهما يكن من أمر، فإنه على الرغم من أن الاتجاه الصدامي قد غلب في النهاية، إلّا أن أموراً قد استجدت لم تكن بالحسبان قلبت الأوضاع رأساً على عقب.

ففي٢٢شعبان٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠م، لما جهز بايزيد الثاني الجيش لمحاربة المماليك وانطلق إلى الإسكوادار[٤]، وكان قد عزم على سلخ ماماي ـ القاصد المملوكي ـ وعدد من الخاصكية، هاج السحاب فجأة وأظلم الجو بريح عاصف ثم تكاثر المطر مثل الطوفان، ونزلت صاعقة في معمل البارود بإسطنبول فالتهب بسببها. ولشدتها جعلت أعالي المعمل سافله فانهدم ثلثمائة منزل واختل أربعمائة، ومات فوق ألفي نفس حتى أن السلطان كاد أن يهلك[٥]. فلما رأى بايزيد ذلك، استدعى القاصد التونسي في الحال وأحسن وفادته وقبل كلامه بالصلح[٦]، منعاً للحرب التي كان العثمانيون في شاغل عنها لاهتمامهم بالتوغل في أوروبا وحصار بلغراد[٧].

من جهة أخرى وأمام فشل مساعي قايتباي الدبلوماسية في أوروبا مع تراجع البابا عن القيام بحملته الصليبية الموجهة ضد العثمانيين نتيجة وفاة ملك هنغاريا والانشقاقات الحاصلة في روما[٨]، وما رافق ذلك من تقدم ديبلوماسي ملموس لبايزيد الثاني الذي استفاد من هذه الأجواء وأوفد مصطفى بك إلى روما٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠م، ليدبر الأمر مع البابا بشأن أخيه جم[٩]؛ وجد السلطان المملوكي نفسه مضطراً في تلك الفترة لإصلاح علاقته مع العثمانيين ومستعداً لإنهاء الحرب معهم،

(١) Shai, Har - El: op. cit, p 206.
(٢) Ibid, p 205.
(٣) حليم: المرجع السابق، ص ٧٣.
(٤) إسكوادار: الجزء الشرقي من إسطنبول انظر جاويش: تاريخ القسطنطينية، ص ٣٩ ـ ٤٠.
(٥) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ١٣٧ ـ ١٣٩ وحليم: المرجع السابق، ص ٧٣.
(٦) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٢٧.
(٧) موير: المرجع السابق، ص ١٧٤ وزقلمة: المرجع السابق، ص ٩٧ وفريد بك: المرجع السابق، ص ٧٠.
(٨) Thuasne: op. cit, p 270 - 282.
(٩) دائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩٣.

خاصة في ظل تدهور أوضاع بلاده الداخلية عقب الحملة العسكرية الأخيرة التي تركت أثراً سلبياً على الاقتصاد المملوكي.

ففي محرم ٨٩٦ هـ/ ١٤٩١م، ما إن دخل الجيش المصري إلى القاهرة من حملته الأخيرة، حتى ثار المماليك الجُلبان مجدداً وطالبوا بالإنفاق عليهم بسبب النصرة التي وقعت لهم[١]. ولما كان قايتباي لا يزال خائفاً جدّ الخوف لئلا ينتقم منه بايزيد الثاني، وكانت خزائنه خاوية جداً والمماليك يطلبون منه مطالب باهظة، فقد أرسل في ربيع الأول خلف القضاة الأربعة للتباحث معهم والتشاور بشأن جمع المال من مختلف قطاعات المجتمع. وعند تكامل المجلس شرع السلطان في التكلم معهم فذكر لهم «أن ابن عثمان ليس براجع عن محاربة عسكر مصر وأن أحوال البلاد الحلبية قد فسدت وآلت إلى الخراب، وأن التجار منعوا ما كان يجلب إلى مصر من الأصناف، وأن المماليك الجلبان يرومون مني نفقة، وإن لم أنفق عليهم شيئاً نهبوا مصر والقاهرة وحرقوا البيوت، ومتى رجع عسكر ابن عثمان إلى البلاد الحلبية لا يخرج العسكر من مصر حتى أنفق عليهم» ثم شرع يقسم بالله تعالى «أنه ما بقي في الخزائن شيء من المال لا كثير ولا قليل، والقصد أن أفرض على الأوقاف والأملاك التي بمصر والقاهرة. أجرة سنة كاملة أستعين بها على خروج التجريدة. . . »[٢].

إن خطاب قايتباي هذا، شكّل صدّى صريحاً وإشارة واضحة إلى سوء الأوضاع التي آلت إليها بلاد الشام ومصر في نهاية القرن التاسع الهجري الموافق الخامس عشر ميلادي. فحلب كادت أن تخرب على آخرها وضاق الأمر بالناس لأن المماليك أو سلاطينهم كانوا كلما أرادوا إرسال تجريدة على عدو لهم يفرضون الضرائب الفاحشة على الناس ويسلبون أموال التجار[٣]، وكذلك دمشق التي شكلت قاعدة أساسية لانطلاق الجيش المصري نحو الجبهة الشمالية والتي تحملت عبء تكاليف الحملات العسكرية قد تقهقرت وفسدت أحوالها وآلت إلى الخراب. فالجنود المماليك العائدين من الحملة العسكرية الأخيرة قد دخلوا المدينة وأمعنوا فيها فساداً ودماراً فسرقوا ونهبوا، ممّا أجبر نائبها يشبك الجمالي على ترك منزله والخروج من المدينة خوفاً على حياته[٤].

---

(١) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١١٦٥ والظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ٢١١ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧٦ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٦.

(٢) السخاوي: المصدر نفسه، ج٣، ص ١١٧٨ والظاهري: المصدر نفسه، ج٨، ص ٢١٧ وابن إياس: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٧٨ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٣) كردعلي: المرجع السابق، ج٢، ص ١٩٧.

(٤) ابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ١٢١ ـ ١٣٠.

أما الموقف الأكثر خطورة والذي أشار إليه قايتباي في خطابه فهو انحلال النظام الداخلي، هذا النظام الذي بدأ محكماً يقوم على أساس طاعة المملوك العمياء لأستاذه وسلطته، والقناعة التامة لما يخصص له من نفقة أو إقطاع، قد تداعى كثيراً بحيث بات المماليك الجلبان أداة للعبث والعدوان ضد أهالي البلاد الآمنين ونهب أموالهم وممتلكاتهم والثورة بين حين وآخر على السلطان بحجة عدم الرضا لما يخصصه لهم من نفقة وأموال مطالبين بالمزيد[1]، الأمر الذي أرهق خزينة الدولة وأثر سلباً على الاقتصاد المتراجع نتيجة الحرب مع العثمانيين: فالتجارة قد شهدت انهياراً كبيراً بسبب شدة عسف العثمانيين في فرضهم الضرائب على مرور الحاصلات والمنسوجات والمماليك من حدود بلاد الشام[2]، كذلك فإن تكاليف الحملات العسكرية والتي بلغت في عهد قايتباي مبلغ سبعة ملايين ومائة وخمسة وستين ألف دينار خارجاً عما كان ينفقه عند عودة الجنود من التجاريد[3]، قد شكلت ضغطاً كبيراً أثر على الوضع المالي للدولة حتى أن المؤرخين انتقدوه انتقاداً شديداً[4].

إذاً على الرغم من انهيار الاقتصاد المملوكي، فإن قايتباي ولتهدئة الجلبان الثائرين، لم يتورع عن جمع المال من الأوقاف والأملاك في القاهرة ودمشق والإسكندرية ودمياط وقد اضطر في كثير من الأحيان إلى قطع الأرزاق، فكانت هذه المصيبة عامة على الناس حيث انقطع معلوم الأيتام والضعفاء من رواتبهم كذلك سائر الأوقاف والجوامع والمدارس فاضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال[5]. لقد أدى قلة النظام في الجباية إلى خراب الدولة[6]، بحيث لم يعد قايتباي قادراً على إنقاذها إلا بإقامة السلام مع العثمانيين فأعاد محاولاته لوقف العداء بينه وبينهم، وقد استعان في سبيل ذلك بوساطة محمد الحلفاوي القاصد التونسي[7].

---

(١) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٥٦٤.
(٢) موير: المرجع السابق، ص ١٧٤.
(٣) الظاهري: المصدر السابق، ج٨، ص ١٤٩. إن هذه الأموال ضبطت منذ سلطنة قايتباي وحتى عام ٨٩٤ هـ.
(٤) كرد علي: المرجع السابق، ج٢، ص ١٩٨.
(٥) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ١١٧٨ وابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧٦ ودهمان: المرجع السابق، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.
(٦) كردعلي: المرجع السابق، ج٢، ص ١٩٨.
(٧) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٢٧ وماجد: المرجع السابق، ص ١٠٨ والدبس: المرجع السابق، ج٦، ص ٥٠٤.

وهكذا أخمد الله الفتنة بين السلطان الملك الأشرف، وبين بايزيد الثاني ملك الروم، واطمأن الناس، وكان ابتداء الفتنة وتجهيز العساكر لقتال ابن عثمان في أوائل سنة٨٨٩ هـ/ ١٤٨٤م، وإلى أن لطف الله بعباده ووقع الصلح بعد وقوع الحرب والفتن نحو ثماني سنين، وصرف في التجاريد لذلك ما لايحصى كثرةً[١].

فيما يبدو أن قايتباي الذي أنعم على جان بلاط عند عودته بتقدمة ألف[٢]، قد سُرّ بما تضمنته معاهدة السلام من بنود إيجابية كانت لصالح دولة المماليك[٣]. فالأراضي الكيليكية قد أخليت من القوات العثمانية وعادت مجدداً إلى الحكم المملوكي، حيث ولي عليها الحاكم الرمضاني غرس الدين خليل بن داوود[٤]، بالإضافة إلى أن هذه المعاهدة قد نصت على عودة حرية التجارة المملوكية[٥]؛ بعد أن تمكن العثمانيون من التحكم بالطرق التجارية ومصادر المواد الخام الاستراتيجية البالغة الحيوية بالنسبة إلى المماليك كأخشاب السفن مثلاً، وبذلوا جميع المحاولات لتقويض طاقة مصر العسكرية ووضعوا العراقيل على طريق شراء المماليك الفتيان من أسواق البحر الأسود لنقلهم إلى مصر[٦].

في ختام هذا الفصل يمكن القول أنه بموجب معاهدة السلام تلك، فإن الحدود بين الدولتين المملوكية والعثمانية قد عادت إلى سابق عهدها ـ أي إمارة قرمان تحت النفوذ العثماني وإمارتا دلغادر ورمضان تحت النفوذ المملوكي ـ بعد أن استنزفت معظم موارد دولة المماليك. وقد كان جلياً فوق هذا أنه بالرغم من أن الموقف في كيليكيا كان لصالح المماليك، إلّا أن الوقت كان يقترب وبسرعة ليوجه العثمانيون اهتمامهم لحل مسألة الحدود هذه نهائياً، وحيئذ سيحشد العثمانيون كل قواهم في حربهم للمماليك، وستواجه دولة المماليك إشكالات عدة تتضافر جميعاً لإنهاء سلطتهم في بلاد الشام ومصر، وتحويلها إلى أيدي العثمانيين.

---

(١) السخاوي: المصدر نفسه والعليمي: المصدر نفسه.
(٢) دهمان: المرجع السابق، ص ١٩٩.
(٣) زقلمة: المرجع السابق، ص ٩٧.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية: ج١٠، ص ١٨٨.
(٥) Shai, Har - El: op. cit, p 213.
(٦) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٥٥ ـ ٥٦.

الباب الثالث

الحرب العثمانية ـ المملوكية الثانية
(٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ/ ١٥١٦ ـ ١٥١٧م)
وضم الأراضي المملوكية إلى السلطنة العثمانية

ـ **الفصل الأول**: التطورات التي برزت عند منعطف القرنين التاسع والعاشر الهجريين وأثرها على العلاقات العثمانية ـ المملوكية.

ـ **الفصل الثاني**: الاستراتيجية العسكرية مع وصول سليم إلى العرش.

ـ **الفصل الثالث**: مقدمات الحرب العثمانية ـ المملوكية الثانية.

ـ **الفصل الرابع**: المعارك الفاصلة بين العثمانيين والمماليك.

التطورات التي برزت عند منعطف القرنين التاسع والعاشر الهجريين وأثرها على العلاقات العثمانية ـ المملوكية

ظلت إتفاقية عام ٨٩٦ هـ/ ١٤٩١م هشة، وتحت ستار علاقات السلام والإخلاص الظاهري استمر الصراع السياسي بين الدولتين دون انقطاع. ومن ناحية أخرى، أثار التعاطف مع العثمانيين وتدعيم الطاقة للدولة العثمانية، وتنامي هيبتها كحامية لجميع المسلمين قلقاً استثنائياً لدى المماليك. أما بلاغات البعثات الديبلوماسية عن الانتصارات، فاعتبر في القاهرة إبرازاً لقوة الباب العالي المتعاظمة[١].

ومهما يكن من أمر فقد توقفت الحرب بين الدولتين لكن بشكل مؤقت، وساد الهدوء جبهات القتال ولكن إلى حين، وتبادل الطرفان الهدايا والوفود سنة بعد سنة[٢]، كما نشطت حركة التبادل التجاري بينهما. وكان المماليك يشترون الأخشاب والحديد والبارود من آسيا الصغرى وهي مواد غير متوفرة في مصر[٣]، حتى أن قضية الأمير جم قد جرى تجاوزها في فترة الهدوء تلك.

ومن مظاهر عودة العلاقات الودية مجدداً بين الدولتين، أن السلطان بايزيد الثاني قد نزل عند رغبة السلطان المملوكي الظاهر عام٩٠٥ هـ/ ١٥٠٠ م وأذن له بتزويج ابنة أخيه الأمير جم[٤]. وكذلك لمّا تولى قانصوه الغوري السلطنة بعد قايتباي، سعى إلى أن يصلح الأمور مع بايزيد الثاني، فأعلن له في رسالة، أن سلفه قايتباي انعوج عن المصادقة إلّا أنه على عكسه يسعى إليها، ويعترف بموقف السلطان العثماني في الجهاد ضد الأوروبيين ويصفه بالسلطان الغازي. وتبدو حيطة الغوري، في أنه رفض أن يجيء ابن بايزيد الثاني واسمه قرقود إلى مصر في طريقه للحج، إلّا

(١) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٥٦.
(٢) دهمان: المرجع السابق، ص ٢٠٣.
(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤،ص ١٩٦ ـ ٢٠١.
(٤) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ٨٦.

إذا أذن له أبوه بذلك، فأرسل قرقود الذي كان قد وصل إلى مصر برسالة أو التماس إلى أبيه يستأذنه في ذلك مع أحد علماء الأزهر الشريف، بحيث أن بايزيد أرسل للغوري يشكره على ذلك ويلقبه فيها بالأخ(١). ورد الغوري على ذلك بأن جهز قرقود إلى أبيه وأتحفه بهدايا عظيمة ووجه معه عسكراً وستة وعشرين مركباً(٢).

وعلى الرغم من الهدوء والتقارب الحاصل بين الدولتين العثمانية والمملوكية إلّا ان العلاقات بينهما ومع إطلالة القرن العاشر الهجري بدأت تأخذ شكلاً جديداً، وذلك لما طرأ عليها من تطورات جذرية متتالية وجوهرية في المجالات السياسية والاقتصادية والاستراتيجية.



ظهور البرتغاليين على المسرح الدولي للأحداث

ممّا لا شك فيه أن الباعث الأول لهذه التطورات هو ظهور البرتغاليين على المسرح الدولي للأحداث.

ففي الوقت الذي حملت فيه إسبانيا مجدداً راية العداء للإسلام، وتبين أن السلام الذي عقد عند استسلام غرناطة عام٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢م، لم يكن اكثر من هدنة قصيرة الأمد، بحيث تقرر توسيع الحرب الصليبية إلى خارج شبه الجزيرة الإيبيرية، ومهاجمة قواعد المسلمين البحرية في شمال أفريقيا(٣)؛ برز وعلى غير انتظار، خطر جديد يهدد الإسلام والمسلمين عندما دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح، وظهروا في البحار الجنوبية، وألقت سفنهم مراسيها في كلكوتا في الهند، بعد أن قصفت السفن المملوكية الراسية عند أرصفتها(٤).

وهنا يمكن القول: بأن نجاح فاسكو دي غاما عام ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٨م في الوصول إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح، كان إيذاناً ببدء عهد دولي جديد،

(١) متولي، أحمد فؤاد الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة، الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٩٩٥، ملحق رقم ١٥، ص ٣٠٩ وما بعدها ملحق رقم ١٩، ص ٣١٩ ـ ٣٢٢ وملحق رقم ٢٠، ص ٣٢٢ وما بعدها.
(٢) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٩ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.
(٣) الشناوي: المرجع السابق، ج٢، ص ٨٩٩ ـ ٩٠٠ ـ ٩٠١.
(٤) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٣٢.

ليس في المحيط الهندي فقط، بل وفي الدول المتحلقة حول الخليج العربي والبحر الأحمر والبحر المتوسط عموماً[١]. إن هذا الاكتشاف الذي وصل المحيطين الأطلسي والهندي وكان فاتحة لانقلاب عظيم في تجارة العالم بأسره، قد شكل ضربة قوية إلى قلب التجارة المملوكية مع الهند؛ حيث كانت تتشعب شرايين التجارة واحد إلى عدن وجدة والسويس والقاهرة، وآخر إلى هرمز ثم البصرة وعبرها إلى حلب وطرابزون[٢]؛ وحرم دولة المماليك من مورد كبير لثروتها التي طالما استمدت منه أسباب قوتها وعظمتها[٣].

فالإسكندرية وموانئ بلاد الشام فضلاً عن الموانئ الإيطالية، خسرت بعد ذلك التاريخ تجارتها مع الشرق الأقصى لصالح بلدان أوروبا الغربية التي بدأ نجمها يلمع بدءاً من ذلك العهد[٤].

عندما ظهر البرتغاليون فجأة، أخذوا يستثمرون اكتشافهم على شكل قرصنة بقوة النار وحد السيف[٥] فتصرفوا بقساوة ودون رحمة، وكانت صنوف التعذيب التي تعرض لها الأبرياء من صيادي الأسماك العزل من السلاح على أيدي «فاسكودي غاما»، نموذجاً للإرهاب الصليبي الجماعي[٦]. ففي عام٩٠٥ هـ/ ١٥٠٠م، أقدم البرتغاليون ودون سبب على تدمير عشر سفن مملوكية في ميناء كلكوتا ـ أهم مرفأ للمسلمين في الهند ـ وبعد عامين شنوا حرباً على سواحل شبه الجزيرة العربية والهند وأفريقيا الشرقية. وخلال السنوات ٩٠٧ ـ ٩١١ هـ/ ١٥٠٢ ـ ١٥٠٦م، قاموا باجتياح شواطئ المحيط الهندي، فاستولوا على السفن التجارية التابعة لدولة المماليك وأحرقوها بمن عليها من الحجاج المسلمين وصادروا معظم شحناتها من التوابل والسلع الهندية[٧]. ولما تكررت أعمالهم على هذا النحو، أخذ حكام كجرات الهندية واليمن يستغيثون بالسلطان المملوكي قانصوه الغوري، فأعد

---

(١) هايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٧.

(٢) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٣٢. طرابزون هي مدينة مشهورة في بلاد الروم، وهي شرقي صامسون انظر القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٤١١.

(٣) Stripling, G. W. F: The Ottoman Turks and the Arabs, 1511 - 1574, Urbana - Illinois 1942, p 15 and Boulos: op. cit, p 539 - 540.

(٤) Stripling: ibid, p 31 and Boulos: ibid.

(٥) هايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٤٤.

(٦) Stripling: op. cit, p 35.

(٧) إيفانوف: المرجع السابق، ص ١٧ وهايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٢٤ وزقلمة: المرجع السابق، ص ١١٥.

الغوري أسطولاً بمساعدة البندقية[١]، سار من السويس إلى جدة بقيادة الأمير حسين الكردي الذي أخذ يعمل على تحصين جدة لمكانتها الدينية، وموقعها الاستراتيجي، وجعلها نقطة ارتكاز للعمليات الحربية.

وإبّان وجوده في مكة، هاجم الأسطول البرتغالي عدن عام٩١١ هـ/ ١٥٠٦م، بمحاولة منه لسد الطريق على مصر. وحين فشل في الاستيلاء عليها[٢]، توجه البرتغاليون إلى سوقطرة الجزيرة التي كانت تتحكم إلى حد ما في باب المندب عند مدخل البحر الأحمر، وحصنوها واتخذوا فيها مركزاً بحرياً. وبذلك ظهروا في البحر الأحمر للمرة الأولى[٣]، وبعد ذلك توجهوا إلى هرمز، لأهميتها الكبرى من الناحيتين الاستراتيجية والتجارية، حيث جرت معركة بحرية انتهت بانتصار البرتغاليين وقبول ملك هرمز أن يظل حاكماً تحت السيادة البرتغالية[٤].

إن استيلاء البرتغاليين على جزيرة سوقطرة وعلى هرمز قد أكمل حلقة حصارهم[٥]. ونتيجة لظهور البرتغاليين في المحيط الهندي ومحاولاتهم السيطرة على الخليج العربي والبحر الأحمر، خيم القلق على القاهرة. فقد كان موقف سلطنة المماليك من هذا الصراع ضعيفاً نسبياً، فدولة المماليك دولة برية بينما دولة البرتغال بحرية، والصراع يأخذ مكانه في البحار، إضافة إلى أن السفن المملوكية التي واجهت الأسطول البرتغالي لا يعدو معظمها كونها سفناً تجارية[٦]. لذلك فقد كان على السلطان المملوكي، الذي خاف من تعرض مكة للمهاجمة[٧]، أن يبذل قصارى جهده في بناء أسطول حربي يستطيع الصمود في المحيط الهندي[٨] أمام اتباع ملك البرتغال الذي منحه البابا لقباً استعراضياً فأصبح «آمر الملاحة البحرية

---

(١) ـ أنيس: المرجع السابق، ص ١٢٢ وزقلمة: المرجع نفسه، ص ١١٥ وهايد: المرجع نفسه، ج٤، ص ٣١ ود. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٨٦، ج٥، ص ٢٦٣.

(٢) صباغ، عباس إسماعيل: تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، دار النفائس ط١، ١٩٩٩، ص ٦٦.

(٣) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٣٤.

(٤) أنيس: المرجع السابق، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(٥) مصطفى: المرجع السابق، ص ٨٢.

(٦) لمعرفة المزيد عن الأسطول المملوكي انظر الخادم: المرجع السابق، ص ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٩٠. Stripling: op. cit, p30.

(٧) زقلمة: المرجع السابق، ص ١١٥.

(٨) Stripling: op. cit, p 30.

والفتوحات والتجارة لأثيوبيا وشبه الجزيرة العربية وبلاد الفرس والهند»[(١)].

والواقع أن اتساع نشاط البرتغاليين التجاري في الهند وسيطرتهم على مصادر تجارة التوابل والسلع الشرقية، أدى إلى حجب وصول هذه السلع بكميات كبيرة إلى دولة المماليك التي كانت تحتكر هذه التجارة، فتأثرت مداخيلها من جراء أعمال القرصنة البرتغالية، وبدأت الدولة تعاني أزمة اقتصادية عنيفة[(٢)].

كان السلطان قانصوه الغوري مقتنعاً أن ازدياد نفوذ البرتغاليين في الهند قد يقضي على مصالحه وهيبته أمام العالم، فكان لا بدّ له من أن يعمل جاداً على مواجهة الموقف. ولكن الحاجة إلى الأخشاب لبناء الأسطول الحربي وإلى الخبراء الفنيين في شؤون الملاحة[(٣)]، إضافة إلى المشاكل المالية والاقتصادية المرتبطة بالعوامل الداخلية[(٤)] ـ كالقحط الناتج عن انخفاض النيل والأوبئة وازدياد الضرائب وغير ذلك ـ جعلت من الصعب بالنسبة إلى المماليك أن يبنوا أسطولاً بجهودهم الخاصة. لذلك ومع رفض البندقية تقديم المساعدة اعتمد السلطان المملوكي في هذه الفترة على العثمانيين في بناء الأسطول الحربي[(٥)].

ففي عام ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧م، قاد أمير البحر العثماني كمال رئيس حملة بحرية إلى الإسكندرية محملة بالمواد الأولية للسلطان المملوكي بالإضافة إلى خمسين مدفعاً جاهزاً[(٦)]. وبدأ الغوري في بناء أسطوله في ترسانة السويس، ولما انتهى من ذلك أبحر هذا الاسطول عام ٩١٤ هـ/١٥٠٨م إلى المحيط الهندي؛ بقصد تحطيم الحصار البحري البرتغالي، بالاشتراك مع القوى الوطنية في الهند التي كانت تقاوم النفوذ البرتغالي تحت زعامة ملك كلكوتا؛ وعلى الرغم من الانتصارات المبدئية التي حققها الأسطول المملوكي، إلّا أنه ما لبث أن انهزم هزيمة ساحقة في أوائل عام ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م في معركة «ديو»، دمرت فيها معظم وحدات الأسطولين المملوكي والهندي وانسحب قائد الأسطول حسين الكردي بعد ذلك إلى جدة[(٧)].

---

(١) هايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٦ وإيفانوف: المرجع السابق، ص ٣٤.

(٢) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٥٥٢.

(٣) Stripling: op. cit, p 30.

(٤) Ayalon: op. cit, p 132.

(٥) هايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٣٣ ـ ٣٢ أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٣١ وج٢، ص ٤٠٥.

(٦) Brummett, Palmira: Ottoman sea power and Levantine diplomacy in the age of discovery, Suny 1994, p 369.

(٧) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٩ وهايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٣١=

لا شك أن هذه المعركة البحرية كانت من المعارك الفاصلة في التاريخ، إذ لو أتيح للمماليك الفوز الأخير، لقضي على الاستعمار الأوروبي في الهند إلى زمن طويل، ولبقيت دولة المماليك والدولة العثمانية تنعمان بثمار التجارة الهندية[١].

مهما يكن من أمر، فقد هزت هذه الخسارة السلطان الغوري ورأى أن احتياطه من الأموال يتناقص بالتدريج في الوقت الذي تزداد فيه قوة البرتغاليين في الهند وتتسع أملاكهم وتنشط تجارتهم[٢]، وأصبح العالم الإسلامي بأسره في حالة من القلق الشديد بانتظار هجمات جديدة من الفرنجة[٣]. وتوالت الرسل على السلطان المملوكي من كلكوتا وغيرها من مدن غوجارات الهندية الإسلامية وفي أيديهم مكاتبات للسلطان تتضمن الطلب بسرعة التجهيز لحملة عسكرية إلى جهات الهند لدفع خَطر البرتغاليين وتهدده في الوقت نفسه بالتعاون معهم ودفع الجزية لهم إن لم يتمكن من دفعهم خارج المحيط[٤]. فاستغاث الغوري ببايزيد الثاني مرة أخرى طالباً المساعدة[٥]، وضغط على البندقية لتمده بمساعدات عسكرية[٦]. لكن هذه الأخيرة التي أدركت أن المماليك قد بلغوا حدًّا من الضعف لم يعد بالإمكان التحالف معهم، اعتذرت عن تقديم المساعدة المطلوبة بحجة أنها لا تريد أن تعرض نفسها للشبهات في عين العالم المسيحي وتنعزل[٧].

لم يستطع السلطان الغوري إعداد حملة عسكرية بحرية بالشكل المناسب، ذلك أن قسماً كبيراً من الأسطول الذي كان ينقل الأخشاب من آياس ـ شمال شرق المتوسط ـ أغار عليه فرسان رودس ودمروه عام ٩١٦ هـ/ ١٥١٠م[٨]، فما كان من السلطان العثماني إلّا أن تكرم على الغوري بإرسال كمية من الأخشاب اللازمة لبناء ثلاثين مركباً حربياً وثلاثمائة مدفع وثلاثين ألف سهم وبارود ومقاذف خشب وغير

= وأنيس: المرجع السابق، ص ١٢٣ زقلمة: المرجع السابق، ص ١١٥ ـ ١١٦ وماهر: المرجع السابق، ص ١٣٢.

(١) زقلمة: المرجع نفسه، ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) طقوس: تاريخ المماليك، ص ٥٥٤.

(٣) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٣٦.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ١٨٢ ـ ١٨٣
Brummett: op. cit

(٥) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٩.

(٦) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٥٥٤.

(٧) هايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٣٢.

(٨) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ١٩١ ـ ١٩٢ وهايد: المرجع نفسه، ج٤، ص ٣٣.

ذلك ممّا تحتاج إليه المراكب[١]، بالإضافة إلى عدد من ضباط البحرية إلى مصر للإشراف على سفنها[٢]. وعلى الرغم من أن أمير الأسطول العثماني كمال رئيس قتل في عاصفة بحرية أثناء جلبه هذه المساعدة الهائلة للبحرية المملوكية، إلّا أنه وصل أكثرها رغم العاصفة[٣].

وبعد أن ضاعف الغوري جهوده في التسلح، صار له عام ٩١٦ هـ/ ١٥١٠م في البحر الأحمر أسطول جديد على أهبة الإبحار، ولكن مع ذلك بقي عاجزاً عن مواجهة البرتغاليين[٤]، ولم يتلق المسلمون في شمال أفريقيا منهم غير التأكيدات الشفوية بالتضامن معهم، بل أن حكام ولاية غوجارات الهندية قرروا ألّا يعتمدوا إلّا على أنفسهم[٥].

وفيما يبدو أن السبب في ذلك يعود إلى أن المماليك وعلى مدى قرابة مائة عام لم يصطدموا بعد بعدو قوي فبدوا وكأنهم نسوا تقاليد الحرب عموماً، إضافة إلى عدم مشاركتهم في الحملات العسكرية إلّا مكرهين، فكانوا يتمردون ويعيثون فساداً في شوارع القاهرة ودمشق وحلب. كل ذلك خلق شعور بفقدان الثقة بالنفس، ببساطة كان المماليك يخشون البدء بالأعمال الحربية[٦].

وهكذا وبينما كانت قوة المماليك تخبو في مصر تحت وطأة الأحداث التي ذكرناها، كانت قوة العثمانيين في الأناضول وقوة الفرس الصفويين الذين خلفوا الترك التيموريين في إيران في صعود مستمر[٧].



بروز الصفويين على مسرح الأحداث السياسية في الشرق
(مشروع إسماعيل الصفوي التوسعي)

لعل الباعث الآخر لهذه التطورات هو ظهور قوة جديدة على المسرح السياسي هي قوة الصفويين الشيعة. فقد نجح الشاه إسماعيل الصفوي في تأسيس

---

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٠١ وهايد: المرجع نفسه، ج٤، ص ٣٣.
(٢) Inalcik, Halil: «The Rise of the Ottoman Empire», v2, p317.
(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٠٣.
(٤) هايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٣١.
(٥) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٤٤.
(٦) المرجع نفسه: ص ٣٦ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٣٢.
(٧) Boulos: op. cit, p 542.

دولة شيعية في إيران، واستطاع أن يوحد قومه في إخلاص يتسم بالورع والتقى ضد المسلمين السنة، الذين طوقوا بلاده من الشمال الشرقي في خراسان (الأوزبك) ومن الغرب (العثمانيين) ومن الجنوب الغربي (المماليك)(١).

استند إسماعيل الأول، قبل تتويجه في تبريز عام٩٠٦ هـ/ ١٥٠١م، على الأرضية التي بذر بذرتها الأولى جده الأعلى صفي الدين(٢) (٦٥١ ـ ٧٣٤ هـ/ ١٢٥٣ ـ ١٣٣٤م) في أردبيل(٣). وكانت هذه الحركة في شأنها كبقية الحركات الصفوية التي اجتاحت هذه المناطق ـ وسط الاضطراب الذي عمّ إيران والعراق عقب سقوط دولة المغول الكبرى ـ ولكنها لم تتخذ الدعوة الشيعية إلا ابتداء من مشيخة «خوجه علي» الذي عاصر الاجتياح التيموري لمعظم البلدان الإسلامية، وكسب على خلاف معاصريه ثقة تيمورلنك، هذه الثقة التي جعلت تيمور يوقف عليه أردبيل ولأعقابه من بعده(٤)، ويفرج عن ثلاثين ألفاً من الأتراك العثمانيين، ويهبهم للشيخ ليكونوا فيما بعد من أبرز مريدي الأسرة الصفوية، وإحدى لبناتها التي ارتكزت عليها إبان قيامها في بداية القرن العاشر الهجري(٥).

أما الحدث الأبرز في سلسلة الأحداث المهمة لهذه المشيخة فقد تجلى ببروز الشيخ جنيد (٨٥١ ـ ٨٦٤ هـ/ ١٤٤٧ ـ ١٤٦٠م) حفيد علاء الدين علي، الذي يعتبر بروزه نقطة عطف في حياة المشيخة، بعد أن تهيأ لها الجو السياسي بتفتيت الامبراطورية التيمورية عقب وفاة شاه رخ(٦). فهو أول من أخذ يعمل على تحويل هذه الحركة من دينية إلى حركة سياسية متخذاً القوة أداة لنشرها(٧). وقد ترتب عن اعتناقه المذهب الشيعي الاثني عشري(٨)، أن رفض الاعتراف بسلطة الأمراء المسلمين من أهل السنة وراح يعمل على بث المذهب الشيعي في الأناضول

---

(١) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٤٩٢.
(٢) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٠١ وبروكلمان: المرجع السابق، ص ٤٩٣.
(٣) الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٣٠. تقع أردبيل في أذربيجان الشرقية على مسيرة ٣٥ ميلاً من الساحل الجنوبي الغربي نحو الخزر (قزوين)انظرالقزويني: المصدر السابق، ص ٢٩١ وبروكلمان: المرجع نفسه، ص ٤٩٣.
(٤) أنيس: المرجع السابق، ص ١٠٥.
(٥) صباغ: المرجع السابق، ص ٤٠ ـ ٤١.
(٦) طقوش: العثمانيون، ص ١٣٧.
(٧) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١١٥ وأنيس: المرجع السابق، ص ١٠٥.
(٨) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٠١ ود.عبد العزيز سليمان نوار: الشعوب الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٢٢.

والتخوم الشمالية لبلاد الشام، حيث التف حوله الآلاف من التركمان[١]، تأسيساً لما كان يرمي إليه من إنشاء دولة، هادفاً في الوقت نفسه إلى استقطاب من هم على عداء مع السلطة العثمانية، أو من هم لم ينالوا حظاً بمشاركة العثمانيين في عملية الحكم، خصوصاً بعد أن أخذت السلطنة تعرض نفسها على التركمان بشدة في عهد عاهلها السلطان محمد الثاني؛ هذا عدا عن استشعاره مدى أهمية المحاور التي كانوا يسكنوها، من الناحية الاقتصادية والاستراتيجية[٢].

وحين اكتشف أمره، ترك التخوم الشمالية لبلاد الشام، ورحل إلى ديار بكر ومنها وثق علاقته بالسلطان أوزون حسن[٣] ـ مؤسس أسرة «ألاق قوينلو» التي حكمت إيران والعراق ـ وارتبط به بأواصر المصاهرة فتزوج من أخته واكتسب بهذا الزواج قوة كبيرة[٤]. مستفيداً من العداء المستحكم بين دولة «ألاق قوينلو» والدولة العثمانية، وحالما تم له إعداد مريديه[٥]، وجد أن الوقت قد حان للتوسع والامتداد بعد أن امتلك المقومات الاقتصادية والبشرية وحتى السياسية، فوجه وجهه شطر شيروان، لأنه وجد من خلال جولته في الأناضول والتخوم الشمالية لبلاد الشام، أن لا طاقة له على مقارعة الدولتين العثمانية والمملوكية، إلا إن حاكمها تصدى له وصرعه في أرض المعركة، وفشلت بمقتله أولى المحاولات الصفوية من الامتداد الجغرافي من الناحية السياسية[٦].

ثم خلفه حيدر الذي قلب الطريقة الصفوية قلباً نهائياً من طورها الديني إلى طورها العسكري، بعد أن نظم مريديه تنظيماً جيد[٧]. واجتمع عنده من الجند نحو ستة آلاف وأكثر واختار لهم لباساً أكثر ما يميزه قلنسوته الحمراء ذات الاثني عشرة رقعة[٨]، والذي صار شعاراً للقوى الصفوية التي عرفت بالقزلباش (حمر

(١) أوزتونا: المرجع نفسه وكامل مصطفى الشيبي: الصلة بين التشيع والتصوف، دار الأندلس، بيروت، ط٣، ١٩٨٢، ج٢، ص ٣٦٠.
(٢) صباغ: المرجع السابق، ص ٩٠.
(٣) المرجع نفسه وأنيس: المرجع السابق، ص ١٠٥.
(٤) الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٠١. كان هدف أوزون من وراء هذه المصاهرة، كسب الشيعة إلى جانبه في صراعه مع القراقوينلو.
(٥) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١١٥.
(٦) صباغ: المرجع السابق، ص ٩٠.
(٧) الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٣٣، والشيبي: الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق، بغداد، ١٩٦٧، ص ١٥.
(٨) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١١٥ والحنفي: المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

الرؤوس). في عام٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨م وفي إحدى المعارك المحلية، لاقى حيدر المصير ذاته الذي لاقاه أبوه من قبل[١]، وخلفه فيما بعد إسماعيل الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية والمحرك الأساسي للامتداد الجغرافي الصفوي[٢].

لقد حكم إسماعيل إيران عام (٩٠٥ ـ ٩٣٠ هـ/ ١٥٠٠ ـ ١٥٢٤ م) وكان يرمي إلى خلق دولة شيعية موحدة في إيران، فأخذ يعمل على إخضاع أجزائها المتفرقة[٣]، واستعان في الوصول إلى ذلك بعناصر من التركمان في أذربيجان وبعض نواحي الأناضول والتخوم الشمالية لبلاد الشام وشكلوا نواة جيشه[٤]. واستولى على تبريز، بعد أن استخلصها من «ألاق قوينلو»، واتخذها عاصمة له، كما اتخذ التشيع مذهباً رسمياً للدولة[٥]، وأكره رعاياه جميعاً على سب أبي بكر وعثمان وعمر[٦]. لقد بذل إسماعيل الصفوي مجهوداً كبيراً لنشر المذهب الشيعي الاثني عشري في الأناضول، ليجتث بذلك الدولة العثمانية السنية من أصولها، حيث أن الأناضول هو البيئة التي نمت فيها وتعتمد عليها الدولة العثمانية[٧]. وهنا يمكن القول بأن العامل الديني وفر الكوادر البشرية من كافة المناطق التي أخذ أصحابها بالطريقة الصفوية، وهذا يعني أن الانتشار الصفوي الذي سبق الامتداد الجغرافي للدولة عمل على تهيئة الظروف الملائمة للامتداد السريع فيما بعد[٨].

بعد أن صفى الشاه إسماعيل دولة «ألاق قوينلو» داخل فارس[٩]، سعى إلى تصفيتها في الخارج، وكان هناك منطقتان إحداهما العراق الذي اعتصم بها آخر أمراء هذا البيت المتداعي وهو مراد بك بن يعقوب، والمنطقة الأخرى هي البستان التي كانت بالنسبة إليه تحت حكم علاء الدولة بن دلغادر[١٠].

وكانت حملة الشاه إسماعيل ضد علاء الدولة هي أولى حملاته الهامة حتماً

---

(١) الحنفي: المصدر نفسه.
(٢) صباغ: المرجع السابق، ص ٣٩.
(٣) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١١٦.
(٤) حليم: المرجع السابق، ص ٧٥.
(٥) الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٣٤.
(٦) بروكلمان: المرجع السابق، ص ٤٩٧.
(٧) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٠٣ ونوار: المرجع السابق، ص ٧١.
(٨) صباغ: المرجع السابق، ص ٤٢.
(٩) الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٣٤ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٠٣.
(١٠) نوار: المرجع السابق، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

وراء فارس. ففي عام ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧م، هاجم مرعش والبستان؛ إثر تحالف عقده مراد بك مع حاكم دلغادر للحؤول دون امتدادات الشاه، والعمل سوياً لإنهاء غائلته[١]، ولكون علاء الدولة رفض تزويج الشاه من إحدى بناته[٢]؛ ونجح في دحر القوات المتحالفة وأصبح المتنفذ في الإمارة[٣]. الأمر الذي حدا بالدولتين العثمانية والمملوكية إلى التفاهم حول تنظيم رد مشترك ضد الدولة الفارسية الجديدة[٤]، ولكنه لم يوضع موضع التنفيذ لأن الشاه، ولكي يتقي حفيظة السلطان المملوكي في مصر، كون هذه الإمارة تتبع لنفوذ دولته، أرسل سفارة إلى القاهرة طمأن فيها العاهل المملوكي قانصوه الغوري مبيناً أن ما جرى من أعمال عسكرية في مرعش والبستان لم تكن سوى احتياطات أمنية، فأخلع السلطان المملوكي على أفراد هذه السفارة وأذن لهم بالرجوع إلى بلادهم وأمر بإبطال إعداد حملة عسكرية ضد الشاه[٥].

على أية حال ومنذ أن تفوق الشاه إسماعيل في البستان، فقد دخل الصفويون إلى جانب المماليك والعثمانيين، ميدان الصراع على النفوذ في هذه المنطقة[٦].

بعد ذلك تطلع إسماعيل الصفوي إلى حوله من مناطق كمجالات لدعوته، وكان لا بد للعراق أن يجذب أنظاره فهو مجال التوسع في الغرب كما أن ظروف العراق السياسية وما أحاط بها من اضطراب كان مشجعاً للتوسع الصفوي، إضافة إلى هذا فالعراق مجال اقتصادي هائل نظراً لخصب أراضيه الزراعية التي يمكن أن تسد الكثير من حاجات سكان إيران، ومركز تجاري هام لأنه يطل على الخليج العربي، وملتقى معظم الطرق الدولية آنذاك، والمنفذ الوحيد لإيران المؤدي إلى بلاد الشام ومنها إلى المتوسط. إلى جانب أن للعراق أهمية خاصة بالنسبة للأسرة الصفوية، فالعراق مركز الشيعة وبه الكثير من تراثهم، مثل مقابر أئمتهم في النجف وكربلاء وبغداد[٧]. باختصار يمكن القول بأن تداخل الدافع الاستراتيجي بالدافع

---

(١) حليم: المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٠٤ ودائرة المعارف الإسلامية: ج٩، ص ٤٠ وبروكلمان: المرجع السابق، ص ٤٤٧.

(٣) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠٢ وأوزتونا: المرجع نفسه.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ١١٩
Boulos: op. cit, p 543.

(٥) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٤، ص ١٢٣ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٢٣.

(٦) رافق: بلاد الشام ومصر: ص ٥٣.

(٧) أنيس: المرجع السابق، ص ١٠٥ ـ ١٠٦. بغداد أم الدنيا وسيدة البلاد وجنة الأرض وقبة الإسلام ومجمع الرافدين. . لمزيد من المعلومات انظر القزويني: المصدر السابق، ص ٣١٣ وما بعدها.

الأيديولوجي كانا المحركان الأساسيان اللذان دفعا الشاه دفعاً قوياً لتحقيق غايته[1].

كان مراد بن يعقوب يدرك تماماً أنه أعجز من أن يقف وحده أمام أطماع الشاه، فاستنجد بإمارة دلغادر ولكن هذه الإمارة التي كانت تمر في مراحل شيخوختها، لم تستطع تقديم أية مساعدة، فاتجه عند ذلك إلى السلطان قانصوه الغوري، الذي يعيش في كنفه الخليفة العباسي، والذي يتربع على سلطنة مصر وصاحب الشام وحامي الحرمين الشريفين وأمل المسلمين في كفاح الفرنجة.

لقد كان الغوري يدرك خطورة استيلاء الشاه إسماعيل السريع على إيران، وأنه أمام زعيم شديد المراس سينافسه في المنطقة، لذلك اتخذ بعض الإجراءات التمهيدية لإعداد حملة ضد الشاه، وفرض الأموال على أهل دمشق من أجل تمويل كتائب المشاة التي ستعسكر في حلب استعداداً لخفض شوكة إسماعيل الصفوي[2]. ولكن الظروف العامة التي كان يواجهها الغوري حينذاك ـ نشاط الأسطول البرتغالي حول السواحل الإسلامية وإغلاق مداخل البحر الأحمر والخليج العربي بهدف تحويل طرق التجارة من مصر إلى رأس الرجاء الصالح ـ كانت لا تسمح له إلّا بمناورات عسكريةفقط دون أن تورطه في حرب حقيقية ضد الشاه، ولهذا فقد فضل الغوري ألا يفتح على نفسه جبهة جديدة غير مستعد لها، وترك صاحب العراق يدبر أموره بنفسه، لذلك لم تكن مهمة الشاه صعبة خلال عملياته العسكرية[3].

ففي عام٩١٤ هـ/ ١٥٠٨م، تم لإسماعيل فتح العراق ودخل بغداد[4]، واتبع سياسة بسط المذهب الشيعي، واعتمد في ذلك على بقايا الشيعة هناك[5]، وانقلب على علماء المذهب السني وأجرى مذابح واسعة ضد السنة[6]، وسك النقود باسمه، كما خطب له على المنابر. كان رد بايزيد الثاني على ما قام به إسماعيل في بغداد أن حثه على التوقف عن القيام بمثل هذه الإجراءات، وطلب المساعدة من مماليك مصر وتركمان الأوزبك. ففي حين أن المماليك لم يقوموا بما يتعدى مطالبة حاكم حلب بمقاومة النشاطات

(١) صباغ: المرجع السابق، ص ٤٧.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤،ص ١٤٣ ونوار: المرجع السابق، ص ٦٩ ـ ٧٠.
(٣) نوار: المرجع نفسه، ص ٦٩ ـ ٧٠.
(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ١٤٣ والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ١١٧.
(٥) أنيس: المرجع السابق، ص ١٠٦.
(٦) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٣٢ ومصطفى: المرجع السابق، ص ٧٨.

الصفوية إذا ما تسللت إلى كيليكيا، فإن تركمان الأوزبك قاموا بسلسلة من الهجمات على الصفويين[١].

وجد الشاه الصفوي نفسه سيد بغداد والعراق دون أن تتحرك ضده أي من الدولتين السنيتين الكبيرتين الدولة العثمانية والدولة المملوكية، فتشجع على التطلع إلى ما وراء العراق لعله يستطيع أن يحقق آمال الشيعة البعيدة في إقامة دولة شيعية كبرى في المنطقة، فحاول تصفية القوات الأوزبكية حليفة الدولتين المملوكية والعثمانية[٢]. عام٩١٦ هـ/ ١٥١٠م، اشتبكت القوات الصفوية بقيادة الشاه مع القوات الأوزبكية في «مرو» على مداخل خراسان وانتصرت عليها، وبذلك أخضع لنفوذه جميع الهضبة الإيرانية وأمن حدوده من جهة الشرق، ودانت له جميع المدن الواقعة على طريق التجارة من مرو إلى ديار بكر[٣].

وتأكيداً من الشاه على إظهار قوته في البلاطين المملوكي والعثماني أرسل إليهما سفارتين مبيناً انتصاراته الساحقة على الأوزبك، الأمر الذي أزعج سليم ابن السلطان بايزيد الثاني ـ الذي كان حاكماً على طرابزون في ذلك الوقت ـ وجعله يقسم إثر سماعه تحديات الشاه[٤]، أن ينتقم منه ثأراً لخان الأوزبك الذي قتل وقطعت رأسه.

أما من جهة المماليك، فإن السلطان الغوري استقبل عام ٩١٧ هـ/ ١٥١١م، رسل الشاه استقبالاً حافلاً وسط دهشة المسلمين السنة[٥].

---

(١) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٩ ومصطفى: المرجع نفسه، ص ٧٥.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر نوار: المرجع السابق، ص ٢٢٦ وما بعدها.

(٣) رافق: بلاد الشام ومصر، ص ٥٣ وصباغ: المرجع السابق، ص ٤٨.مرو من اشهر مدن خراسان واحسنها منظراً انظر القزويني: المصدر السابق، ص ٤٥٦ وما بعدها.

(٤) أرسل الشاه إلى السلطان سليم رسالة مطلعها.

نحن أناس قد غدا شأننا   حب علي ابن أبي طالب
يعيبنا الناس على حبه   فلعنة الله على العائب

انظر ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٢١ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٧ والغزي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٩٦.

(٥) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٤.



تحالفات المماليك والفرنج
مع الشاه الصفوي في سنوات الجمود العثماني
(٩١٥ ـ ٩١٨ هـ/ ١٥٠٩ ـ ١٥١٢م)

مع أن بايزيد الثاني كان مستعداً لشن الحرب إن تصور أنها مجدية، إلّا أنه كان يرى من الأجدى وقد وصلت الدولة إلى حدود ثابتة مترامية أن يبذل الجهود لصيانتها وتقويتها حتى لا يصبح هذا الاتساع عبئاً على الدولة نفسها، ولعل هذا هو الذي جعله يسعى إلى التفاهم ودياً مع القوى العديدة المجاورة له[١].

ففي عام ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢م وعقب توقيع إتفاقية السلام مع المماليك، أوفد السلطان بايزيد الثاني رسولاً إلى البابا إسكندر السادس ـ خلف إينوسنت الثامن ـ بشأن استبقاء الأمير جم في روما[٢]، محملاً بالهدايا ومعه مرتب جم[٣]، البالغ حوالي ثلاثمائة ألف دوقية[٤]. فاستقبل هذا الرسول من قبل البابا استقبالاً حافلاً مصحوباً بالكرادلة[٥].

وفي العام نفسه بدأت أولى العلاقات الديبلوماسية بين الدولة العثمانية وبعض الدول الأوروبية التي برزت مؤخراً على المسرح السياسي، فكانت هناك علاقات مع مملكة بولندة ومع مملكة روسيا[٦].

بالمقابل كان نتيجة ازدياد قوة الدولة العثمانية ونموها وانفلاشها الواسع في أوروبا، أن نظرت إليها الدول الأوروبية من زاوية مصالحها على أنها الدولة القوية التي يمكن استغلالها لتحقيق مصالحها الحيوية على حساب دول أوروبية أخرى[٧]. ونتيجة لهذه النظرة في العلاقات السياسية، تنافست الدولة الإيطالية ولا سيما نابلي بالإضافة إلى البابا اسكندر السادس على كسب ود الدولة العثمانية[٨]. فحين أغار

(١) نوار: المرجع السابق، ص ٦٧.
(٢) لقدظل جم موضوع اهتمام شديد لدى جميع الدول التي يهمها الأمر في الشرق.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩٣.
(٤) فريد بك: المرجع السابق،ص ٦٩.
(٥) الدبس: المرجع السابق، ج٦، ص ٢٦.
(٦) فريد بك: المرجع السابق، ص ٧١.
(٧) طقوش: العثمانيون، ص ١٢٣.
(٨) فريد بك: المرجع السابق، ص ٧١.

شارل الثامن ـ ملك فرنسا ـ على إيطاليا لتنفيذ مشروعه الصليبي وهو الاستيلاء على إسطنبول، اصطدم بالمصالح الحيوية لملك نابلي الذي خشي من ازدياد نفوذ الفرنسيين، فأرسل من يخبر السلطان العثماني بتقدم الجيوش الفرنسية إلى بلاده[1]. كذلك لمّا وصلت القوات الفرنسية إلى روما، وأجبرت البابا على تسليمها الأمير جم، دسّ البابا السم للأمير قبل تسليمه تنفيذاً لأوامر السلطان بايزيد، فتوفي في مدينة نابلي الإيطالية عام ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٥م، حيث قام ملكها بإرسال الجثة إلى أخيه بناءً على طلبه، ودفنت في بورصة[2].

وفيما يبدو أن ظهور هذا الوجه الجديد للعثمانيين قد أزعج خصومهم، وبوجه خاص البنادقة[3]. ولكن بعد مناوشات عسكرية عثمانية استمرت أربعة أعوام (٩٠٤ ـ ٩٠٨ هـ/ ١٤٩٩ ـ ١٥٠٣م) ضد البندقية، أظهر فيها الأسطول العثماني مزايا عسكرية لا بأس بها وكفاءة عالية في مجابهة أفضل الأساطيل الأوروبية[4]، اضطر البنادقة لعقد إتفاقيات مع العثمانيين صاروا بمقتضاها ملحقين بإسطنبول وإن لم يسلموا بذلك رسمياً[5].

وحدث الشيء نفسه مع المماليك الذين ما لبثوا أن اضطربوا بعد وفاة قايتباي وانتشار الفوضى في داخل مصر والشام؛ على أثر تعاقب خمسة سلاطين على الحكم بحيث لم يطل حكم الأربعة الأوائل منهم خمس سنوات وكان نهايتهم العزل والقتل[6]، وظهور البرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر؛ إلى إصلاح علاقاتهم مع العثمانيين، بل والالتحاق بهم في عهد السلطان الغوري بالاعتماد عليهم في بناء أسطولهم ودعمهم لمواجهة البرتغاليين، وفي استهداء الحديد والنحاس والبارود لإنشاء المدافع وتذخيرها، بل واستهداء المدافع نفسها[7]. وما اعترف المماليك أنهم صاروا دولة تابعة، لكنهم صاروا كذلك في الحقيقة أيام الغوري، فقد ضعفوا في المجال الاقتصادي لدخول البرتغاليين العنيف المحيط الهندي والبحر الأحمر، واختل نظام الضبط العسكري لديهم، وأضحى

---

(١) طقوش: المرجع السابق، ص ١٢٢.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ج٧، ص ٩٣ ومصطفى: المرجع السابق، ص ٧٥ وفريد بك: المرجع السابق، ص ٧١.
(٣) فريد بك: المرجع نفسه، ص ٧٢.
(٤) حليم: المرجع السابق، ص ٧٥ وفريد بك: المرجع السابق، ص ٧١.
(٥) صباغ: المرجع السابق، ص ٧١ وفريد بك: المرجع نفسه، ص ٧١ ـ ٧٢.
(٦) دهمان: المرجع السابق، ص ١٠٢.
(٧) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ١٩٦.

حاكم المسلمين غير قادر على حماية أرواح المسلمين وممتلكاتهم وحماية المدن المقدسة وتأمين سلامة الحج، إذ وقع مئات الحجاج في أسر البرتغاليين، وسقط آخرون ضحية لهجمات البدو خلال انتفاضة الحجاز(١)، وانقطع الحج الشامي سبع سنوات (٩١١ ـ ٩١٨ هـ/ ١٥٠٦ ـ ١٥١٢م)(٢).

وما إن جاء العام ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩م وعلى أثر الهزيمة التي حلت بالأسطول المملوكي في معركة «ديو» على يد البرتغاليين، حتى صار واضحاً أن المماليك ما عادوا قادرين على حماية الطريق البحري عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي حتى مع الاستعانة بأمراء المسلمين بالهند(٣)، ولا قادرين على تقديم مساعدات لضحايا حملات الفرنجة سواء في مدن ولايات غوجارات الهندية الإسلامية أو في مدن شمال أفريقيا(٤). فتطلع هؤلاء إلى العثمانيين كقوة ضابطة تحمي الحرمين من جهة، وتواجه خطر البرتغاليين وقرصنة الإسبانيين من جهة أخرى. من جانبهم لبى العثمانيون استغاثة المستغيثين من مسلمي شمال أفريقيا وإسبانيا(٥).

وهكذا بدأ الجميع بما فيهم البنادقة يعتادون على الظهور العثماني مطلع القرن العاشر الهجري بمظهر القوة البحرية الكبرى الحامية، ويحاولون التوصل معها إلى شروط واتفاقيات. وقد أفاد العثمانيون من ذلك كله لفرض شروط قاسية للحماية، منها الضرائب، الأمر الذي أزعج التجار المسلمين والبنادقة على حد سواء، ولكن ما كان لهم خيار أمام ميل البرتغاليين إلى الاستئثار بالتجارة وحدهم(٦). في هذه الظروف ظهر الشاه إسماعيل الصفوي، فوحد إيران وانتزع تبريز من «ألاق قوينلو» واستولى على بغداد وبدأ يتهدد الأقاليم المملوكية شمال حلب والأناضول الشرقي العثماني. وأمّل المماليك والفرنج أن يتخذوا من القوة الجديدة موازناً للصعود العثماني، وجرت اتصالات محمومة من جانب البنادقة والبرتغاليين والمماليك مع إسماعيل الصفوي بناءً على طلبه لعقد تحالف وبخاصة في سنوات الجمود العثماني، عندما ساءت صحة السلطان بايزيد الثاني واستشرى الصراع بين أولاده الثلاثة قرقود وأحمد وسليم على السلطة.

---

(١) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٤٠.
(٢) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦ ـ ٢٣٦ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٣٦٢.
(٣) هايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٣٦.
(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ١٩٠ وإيفانوف: المرجع السابق، ص ٣٦.
(٥) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٧٠.
(٦) Brummett: op. cit., p 365.

من الركائز التي بنى الشاه إسماعيل سياسته التوسعية عليها، إضافة إلى نشر المذهب الشيعي، التحالف مع القوى المعادية للدولة المملوكية والدولة العثمانية. ومن أجل تحقيق ذلك، أجرى مفاوضات مع الدول الأوروبية خاصة البندقية لمساعدته، ففي عام٩١٧ هـ/ ١٥١١م، قبض حاكم البيرة على رجل قبرصي يرافقه فارس يحملان خطاباً من الشاه إسماعيل إلى البنادقة وقنصلهم في دمشق وخطاباً إلى قنصلهم في الاسكندرية، يدعوهم لأن يكونوا عوناً له على سلطان مصر ويطلب منهم «أن يجوا إلى مصر من البحر ويجي هو من البر» على حد تعبير ابن إياس(١)، ويحثهم على إرسال مساندة عسكرية لقواته من أجل القضاء على الدولة العثمانية(٢).

إن العلاقة السياسية بين البندقية والدولة المسيطرة على فارس وأذربيجان والعراق كانت جيدة بشكل عام، ولم تنقطع المباحثات بينهما بشأن تطور الأوضاع السياسية في المنطقة والمؤثرة على التجارة الشرقية بشكل خاص. فقد تحالفت البندقية في الماضي مع أوزون حسن ـ زعيم «ألاق قوينلو» ـ للوقوف في وجه السلطان العثماني محمد الفاتح، وإن كانت هذه المحالفة لم تؤت ثماراً. وإن انهيار تجارة مصر عقب وصول البرتغاليين إلى الهند جعل البندقية ـ حليفة المماليك ـ تفكر في الاستيلاء على مصر نفسها لتصل إلى الهند(٣)، وهي تحتاج في ذلك إلى حليف ضد القوتين المملوكية والعثمانية. كما وأن الصفويين الذين ورثوا «ألاق قوينلو»، كانوا يودون بدورهم القضاء على المماليك للوصول إلى البحر المتوسط عبر أملاك السلطان. في الوقت نفسه شعر البنادقة بتدهور أوضاع الدولة المملوكية، فرغبوا بإحياء الطريق التجاري البري المار عبر العراق والخليج العربي، وهو يمر بأملاك الصفويين ويحتم لإحيائه أن يكون للصفويين منفذ على البحر الأبيض المتوسط عبر الأملاك المملوكية والعثمانية، لذلك هدف البنادقة والصفويين إلى إقامة تحالف بينهما نظراً لتبادل المصالح المشتركة بينهما(٤).

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ١٩١ وهايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) Inalçil, Halil: The Ottoman economic mind and aspect of the Ottoman economy, Studies in the economic history of the Middle East, M.A cook 1970, p 214.

وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٠٤ وهايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٣٤ وموير: المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٣) هايد: المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٧ لقد فكرت البندقية بشق قناة السويس عام ١٥٠٠م لمواجهة البرتغاليين نظراً لتضرر مصالحها.

(٤) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٥٣٩.

للقاهرة قبل وبعد معركة «ديو» كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر الحربية[١].

لقد اتخذت علاقات الدولتين في الشرق الأدنى شكلاً أكثر غرابة حين رفض المماليك عام ٩١٧ هـ/ ١٥١١م أي تعاون مع العثمانيين لمقاتلة الصفويين، رغم عداوتهم لهم ووصفهم إياهم بالرافضة أهل البدع والضلالة[٢].

كان العثمانيون في وضع أكثر حرجاً من المماليك[٣]، وخاصة في ظل الاضطرابات الداخلية التي كانت تواجهها الدولة العثمانية على أثر استياء صحة السلطان بايزيد الثاني[٤]، وكان بإمكان هؤلاء المماليك أن يقدموا لهم مساعدة أكثر فاعلية، لكنهم في تلك الفترة بالذات قرروا تلقين حكام إسطنبول درساً لا ينسى، فاستقبلوا في عام٩١٧ هـ/ ١٥١١م، رسلاً بعث بهم إسماعيل الصفوي، ودخلوا في مفاوضات مع الشاه وحاولوا التفاهم معه[٥]، بشأن عقد محالفة صداقة سياسية وتناصر حربي[٦].

إن سياسة المماليك تجاه العثمانيين وتحالفهم مع الصفويين المتطرفين الشيعة، اعتبر مظهراً من مظاهر العداوة السافرة، التي أضعفت مواقع المماليك في مصر، وقوّت المشاعر المعادية لهم في الأوساط العثمانية الحاكمة، فأخذ الحكام يميلون تدريجياً إلى اعتبار المماليك عدوهم الرئيسي والأشد خطراً. هذه القوى بالذات وفي مقدمتها القوى الإنكشارية هي التي أوصلت إلى الحكم السلطان سليم الأول، الذي اعتلى عرش السلطنة العثمانية عام ٩١٨ هـ/ ١٥١٢م[٧].

---

(١) إيغانوف: المرجع السابق، ص ٥٧.

(٢) متولي: المرجع السابق، ملحق رقم ١٧، ص ٣٢١.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٢١ ـ ٢٣٠ ـ ٢٦٢ ـ ٢٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٦٩.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٢٠ ـ ٢٦٥ ـ ٢٧١ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٣٣ وابن طولون: المصدر السابق، ج١، ص ٣٤٢ ـ ٣٥٤ ـ ٣٥٧.

(٦) زقلمة: المرجع السابق، ص ٩٩.

(٧) إيغانوف: المرجع السابق، ص ٥٧ والجميل: المرجع السابق، ص ٣٣٢.

الاستراتيجية العسكرية مع وصول سليم إلى العرش

في عهد السلطان سليم الأول حدث انقلاب في استراتيجية الدولة العثمانية، فتوقف الزحف الغربي أو كاد، واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً.

والدولة العثمانية قبل هذا الاتجاه الشرقي، كانت امبراطورية متكاملة تكونت أساساً في أوروبا، وفي البلقان كان مركز الثقل عاصمة الدولة، إضافة إلى أنه من أبناء الأوروبيين تتكون الإنكشارية خلاصة الجيش العثماني، كما أن أصحاب المناصب الكبرى في الدولة كانوا من أصول أوروبية أيضاً[١]. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ما تفسير هذا الاتجاه؟

من الواضح أن التطورات التي برزت في أوائل القرن العاشر الهجري، والتي سبق وأشرنا إليها في الفصل السابق، هي المسؤولة عن جذب أنظار الدولة العثمانية إلى الدخول في معترك الأحداث السياسية في الشرق، لذلك فقد قامت سياسة السلطان سليم الشرقية في البداية على قاعدتين أساسيتين:

الأولى: مواجهة الخطر البرتغالي الاستعماري.

الثانية: مواجهة الخطر الصفوي[٢].



١

الأوضاع الداخلية عشية وصول سليم إلى العرش

واجه السلطان بايزيد الثاني في آواخر سني حكمه تنافساً حاداً على العرش بين أبنائه الثلاثة، أحمد وقرقود وسليم، أسفر عن إشعال نار الحرب الداخلية[٣]،

---

(١) أنيس: المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٢) The applied history research group: op. cit, p 1 - 2.

(٣) حول الصراعات الداخلية آخر سني حكم بايزيد انظر القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٠، وما بعدها وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص٢٠٧ وما بعدها.

ممّا كان له أثر سلبي على الدولة حال دون الاهتمام بالأمور الخارجية في ذلك الوقت، وعلى الرغم من أن السلطان بايزيد الثاني اختار أحمد لخلافته، إلّا أن الصراع العثماني ـ الصفوي كان مسؤولاً عن تولي سليم العرش[1].

ففي الوقت الذي تردد السلطان بايزيد الثاني في شن هجوم مباشر على الصفويين، إما تجنباً للحرب بقدر الإمكان أو خشية من أن تؤدي الدعوة الشيعية إلى اجتذاب كثير من مقاتليه[2]، كان سليم ـ حاكم طرابزون الملقب «بياوز» أي الصارم وهو لا يزال صغيراً[3] ـ شديد الحساسية، تجاه مضاعفة جهود الشاه إسماعيل في تحويل الأناضول إلى المذهب الشيعي كخطوة للسيطرة على السلطنة العثمانية من الداخل[4]. وحتى أنه لم يتوان عن شن الهجمات ضد الصفويين لخفض شوكتهم، فقد قاد الانكشاريين إلى النصر في عدة حملات موفقة في جورجيا وفي الأراضي الواقعة في شرقي الأناضول[5]، فأصبح أمل القيادات العسكرية العليا الإنكشارية في وقف الخطر الشيعي، فكان أن تهيأت له بذلك فرصة القيام بانقلاب عسكري تم بنجاح عام ٩١٨ هـ/ ١٥١٢م، وتسلم سليم الأول العرش من أبيه[6]، ليبدأ سياسة عثمانية داخلية.

عندما ارتقى سليم الأول، عرش السلطنة كان عليه بداية تثبيت أقدامه في الحكم وتطهير جبهته الداخلية، وخاصة أن النزاعات الأسرية كانت لا تزال ناشطة.

فأخذ بداية يعمل على تنحية أخيه الأكبر أحمد، الذي لا يزال يدعي حق ولاية العرش[7]، فعين السلطان سليم الأول ابنه سليمان حاكما على إسطنبول، وسافر بجيوشه إلى منطقة آسيا الصغرى[8]، لمحاربة أخيه وابنه علاء الدين الذي كان قد استولى على مدينة بورصة، لوضع حد لطموحاتهما السياسية، فاقتفى أثر أخيه إلى

---

(١) الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٢٧ وفريد بك: المرجع السابق، ص ٧٢.
(٢) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢١٣ ومصطفى: المرجع السابق، ص ٧٨.
(٣) متولي: المرجع السابق، ص ٩٦. ودائرة المعارف الإسلامية: ج١٢، ص ١٢١.
(٤) Inalcik, halil: The Ottoman Empire the rise classical age 1300 - 1600, London 1973, p 195.
(٥) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٣٢ ومصطفى: المرجع السابق، ص ٧٩.
(٦) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢١٠ ونوار: المرجع السابق، ص ٧٢.
The applied history research group: op. cit, p1.
(٧) الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٢٩ ودائرة المعارف الإسلامية ج١٢، ص ١٢٢ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢١٣ وحليم: المرجع السابق، ص ٧٩.كان أحمد مدعوماً من أعيان الدولة وأمرائها.
(٨) فريد بك: المرجع السابق، ص ٧٣.

أنقرة، إلّا أنه لم يتمكن من القبض عليه لأنه هرب إلى آماسيا، ولما لحق به سليم هرب إلى ملطية وأرسل ابنه الآخر مراد إلى تبريز لطلب المساعدة من الشاه إسماعيل الصفوي، الذي كان يتحين الفرصة للانقضاض على الدولة العثمانية.

ثم حدث أن كثرت الوشايات في حق أخيه قرقود وأولاد إخوته، بأن كل منهم يريد السلطنة[١]، فزحف السلطان سليم إلى بورصة[٢]، ثم دخلها وقبض على خمسة من أولاد إخوته وأمر بقتلهم، وبعدها توجه بسرعة إلى صاروخان، مقر أخيه قرقود، ففر منه إلى الجبال، وبعد البحث عليه عدة أسابيع قبض عليه وقتله[٣]. أما أحمد فقد جمع جيشاً من أنصاره، وقاتل أخاه سليماً بالقرب من مدينة «يكي شهر» عام ٩١٩ هـ/ ١٥١٣م، إلّا أنه خسر المعركة واستسلم لأخيه الذي قتله[٤]، خوفاً من أن يستمر في إثارة المشاكل ضده[٥].

كان للأمير أحمد ولدان التجأ أحدهما وهو الأمير مراد إلى تبريز محتمياً بالشاه إسماعيل الصفوي، في حين التجأ الآخر وهو علاء الدين إلى السلطان قانصوه الغوري في مصر[٦]، أما قرقود فكان له ولد، فرت به والدته من عمه السلطان سليم إلى الشاه إسماعيل الصفوي[٧]. ولما طلبهم منهما، امتنعا عن تسليمهم، فأسرّ ذلك في نفسه.

على أية حال، ما إن اطمأن سليم إلى سلامة جبهته الداخلية، حتى عاد إلى أدرنة حيث عقد معاهدات مع البندقية والمجر وروسيا، فاتحاً بذلك عهداً جديداً من العلاقات السلمية مع أوروبا[٨]، لأنه أراد تركيز اهتمامه إلى مواجهة الخطرين العظيمين اللذين هددا العالم الإسلامي آنذاك، وهما الخطر البرتغالي الاستعماري والخطر الصفوي التوسعي.

---

(١) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢١٤ وحليم: المرجع السابق، ص ٧٩.
(٢) يرد اسمها في صيغ مختلفة وهي: بورصة، برصا، بروسة، بورسة.
(٣) الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٣٠ وفريد بك: المرجع السابق، ص ٧٣ والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٩٢.
(٤) الحنفي: المصدر نفسه، ص ٢٣٠ والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٣ وفريد بك: المرجع نفسه، ص ٧٣ والبرجاوي: المرجع نفسه.
(٥) حليم: المرجع السابق، ص ٧٩.
(٦) سعد الدين: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣٨ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ وحليم: المرجع نفسه، ص ٧٩.
(٧) ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٢١.
(٨) دائرة المعارف الإسلامية: ج١٢، ص ١٢٢ وحليم: المرجع السابق، ص ٧٩ وفريد بك: المرجع السابق، ص ٧٢ والبرجاوي: المرجع السابق، ص ٩٢.



سياسة السلطان سليم في مواجهة الخط البرتغالي

إن احتكار القوى البرتغالية لمسالك التجارة الشرقية جميعها ووقوع كل المراكز الساحلية الاستراتيجية الهامة على امتداد أفريقيا الشرقية تباعاً في أيديهم، وما تبع الضغط البرتغالي من هدف ديني؛ إذ كان بابا روما يود توجيه لتطويق العالم الإسلامي من الخلف، وفتح الطريق أمام التغلغل المسيحي في الشرق الأوسط والهند، في حين تقوم إسبانيا بجهود مماثلة في العالم الجديد(١)؛ كل ذلك أثار قلق الدولة العثمانية، بل واستيائها الشديد اثر الوطأة العظمى للانقضاض السريع على البحار الشرقية، وما نتج عن ذلك من انعكاسات سلبية على الاقتصاد العثماني، بدأت تظهر علائمه بشكل واضح في بداية عهد السلطان سليم، بسبب وقف دفق المتاجر من الحبوب الآتية من مصر وبلاد الشام براً وبحراً، بعد أن سد البرتغاليون منافذ التجارة في البحر الأحمر والخليج العربي(٢). ناهيك إلى أنه في الوقت ذاته أخذ الصفويون يعرقلون حركة الطريق الأفقي بعملياتهم العسكرية ليس بإيران فحسب بل في شرقي الأناضول وعلى التخوم الشمالية لبلاد الشام، الأمر الذي جعل السلطان سليم يندفع إلى مواجهة هذا الواقع، وكانت إسطنبول امتلأت بالمسلمين واليهود الفارين إلى الشرق ـ بعد سقوط غرناطة ـ وكان بعضهم على علم وثيق بكل التفاصيل التقنية للمشروعات الأطلسية والمشروعات القديمة لارتياد أفريقيا(٣)، فخطط السلطان العثماني للقيام بعملية كبيرة تستهدف التصدي للتوسع البرتغالي الاستعماري.

ارتكزت خطة سليم على انتهاج سياسة ذات شقين:

أولاً: إصلاح علاقاته بالمماليك والاستمرار بدعمهم عسكرياً في مواجهتهم ضد البرتغاليين.

ثانياً: السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب.

فيما يتعلق بالشق الأول، وبعد نجاح السلطان سليم في تأمين الجبهات الأوروبية بعقد معاهدات ديبلوماسية مع العديد من الدول الأوروبية كما ذكرنا

(١) Shaw: op. cit, v 1, p 99.
(٢) صباغ: المرجع السابق، ص ٦٧ ـ ٧٨.
(٣) مصطفى: المرجع السابق، ص ٨٢ ـ ٨٣.

سابقاً، نجح بعقد تحالف رسمي مع المماليك في مصر ضد الصفويين سنة٩١٩ هـ/ ١٥١٣م، بالرغم من العداء المستحكم بين الطرفين(١)، مستغلاً ارتياب المماليك من تدابير البطش التي مارسها إسماعيل الصفوي ضد أهل السنة(٢)، وخوفهم على أملاكهم في بلاد الشام ومصر من التوسع الصفوي(٣).

وكان السلطان سليم، في الأيام الأولى التي اعتلى خلالها عرش السلطنة وقبل أن تصله رسالة تهنئة من السلطان الغوري لجلوسه على العرش(٤)، قد لبّى استغاثة المماليك واستجاب لمطالبهم في إرساله الأسلحة والمدافع وبعض التجهيزات الحربية لهم، إضافة إلى السفن القوية والبحارة، بغرض المساعدة في بناء أسطولهم وتشكيل قوة بحرية مملوكية نافذة في البحر الأحمر(٥). كذلك عاود السلطان سليم دعم المماليك عام ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م، فأرسل لهم سفناً ومؤناً وذخائر(٦).

ويفسر هذا الدعم العثماني للمماليك بحرص العثمانيين الشديد على تحدي البرتغاليين في المحيط الهندي لحماية مؤخرتهم الاستراتيجية(٧)، وخاصة بعد محاولة البرتغاليين عام ٩١٩ هـ/١٥١٣م الاستيلاء على عدن وسواكن(٨)، وتردد أقوال عن مشروعات برتغالية كثيرة كمشروع تغيير مجرى النيل من الحبشة لمنع وصوله إلى مصر، ومشروع نزول البرتغاليين في ينبع ـ ميناء المدينة ـ ومهاجمتهم قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وسرقة رفاته(٩)،

---

(١) سبب العداءهو التحالف المملوكي ـ الصفوي الذي سبق وأشرنا إليه بالإضافة إلى لجوء ابن أحمد بن بايزيد وهو علاء الدين إلى مصر، وكان قد فر من عمه سليم انظر ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٨٩ ـ ٣٠٣ ـ ٣٠٦.

(٢) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٤ ص ٢٠٧.

(٣) على أثر وصول قوات الشاه إسماعيل الصفوي إلى البيرة عام ٩١٨ هـ انظر ابن إياس: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥٧.

(٤) لقد وصل قاصد السلطان الغوري لتهنئة السلطان سليم عام ٩١٩ هـ انظر ابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤٧.

(٥) Shaw: op. cit, v1, p 83.

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٣٦٥ ـ ٣٩٣.

(٧) راقق: العرب والعثمانيون، ص ٦٠.

The applied history research group: op. cit, P2.

(٨) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٣٠٧ وهايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٤٥ وأنيس: المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٩) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٨٣.

The applied history research group: op. cit, p2 and Stripling: op. cit, p34.

بالإضافة إلى تحالف البرتغاليين مع الشاه إسماعيل الصفوي الذي عرف بقسوته وتحديه للمسلمين السنة، والذي كشف في حديث سري مع السفير البرتغالي الذي زاره عام ٩١٩ هـ/ ١٥١٣م، عن مخططاته للاستيلاء على مكة واجتياح الأراضي المملوكية[(١)].

إن صفة العثمانيين كغزاة يقاتلون أعداء الدين حتم عليهم مقاومة البرتغاليين وحماية الأماكن المقدسة في الحجاز، ومن أجل ذلك أوقف السلطان سليم العثماني، كما فعل أسلافه من قبله، الأوقاف في الأناضول للانفاق على الأماكن المقدسة، وحظي مقابل ذلك باعتراف شريف مكة بحماية العثمانيين للأماكن المقدسة[(٢)].

أما فيما يتعلق بالشق الثاني، فقد سعى السلطان سليم إلى الوصول إلى الهند لتحقيق سيطرة عثمانية على طرق التجارة الشمالية، بفعل احتكار البرتغاليين التوابل وسيطرتهم على الطرق التجارية الجنوبية مع الهند.

هذا وقد شهدت بداية فترة حكم السلطان سليم تطوراً في البيروقراطية العثمانية والحرف والأعمال التقنية السائدة في البلاد آنذاك ممّا جعل متطلبات الدولة تزداد مع تطور هذه الأعمال[(٣)]. ثم إن استمرار زيادة ارتفاع أسعار الحبوب في أوروبا في ذلك الوقت كان يشكل أساساً لازدهار تصدير الحبوب من الأناضول. يضاف إلى ذلك، الاستهلاك المتزايد في أوروبا للمنتوجات الشرقية خاصة التوابل والحرير[(٤)]، الأمر الذي حدا بالبنادقة في بداية الأمر، وقد خشوا أن يفقدوا دور الوساطة الذي كانوا يلعبونه فيما يتعلق بالتجارة الشرقية، أن يحثوا المماليك على القيام بجهد مشترك ضد البرتغاليين، الذين شكلوا خطراً على مستقبل المدن الإيطالية[(٥)].

كل ذلك دفع السلطان سليم إلى السيطرة على الطرق التجارية الشمالية مع الهند واحتكار التجارة بين الشرق والغرب.

---

(١) Stripling: ibid.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ١٦٨ ورافق: العرب والعثمانيون، ص ٦٠.

(٣) Inalcik, H: The Ottoman economc mind, op. cit, p 213.

(٤) طقوش: العثمانيون: ص ١٣٣.

(٥) هايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٣٦ ـ ٤٠.




٣

سياسة السلطان سليم في مواجهة الخطر الصفوي

على الرغم من أن عهد بايزيد الثاني هو العهد الذي بذرت فيه أولى كوامن الصراع العثماني ـ الصفوي، إلّا أن سليم الأول جاء ليسجل البداية الحقيقية لنمو هذا الصراع وذلك لاعتبارات أساسية عديدة وهامة، لعبت أدوارها في خلق وبلورة ذلك الصراع واحتدامه بين الطرفين، سنحاول دراستها بالتفصيل.

اعتبارات سلطوية: تجسدت بتنازع أسروي بين العائلتين الحاكمتين العثمانية والصفوية، إذ كانت حماية البيت الصفوي لعشرات المنهزمين من أفراد البيت العثماني الحاكم، والذين كانوا قد وقعوا تحت حكم وظروف الإبادة التي تعرضوا لها في بدء حكم السلطان سليم الأول. كانت هذه الحماية مدعاة لإشعال فتيل ذلك الصراع التاريخي، وبمثابة عامل مباشر في انفجار الأزمة التي كانت قد نضجت بتأثير نوازع ومسببات أخرى[١].

اعتبارات مذهبية: لم ينظر السلطان سليم إلى التهديدات الإيرانية التي طالت المناطق الشرقية والجنوبية من دولته بعين الريبة والحذر فحسب، بل رأى فيها الشر المحدق بدولته، كونها انبعثت عن دولة خرج بها إلى الوجود ذلك المذهب الشيعي المتطرف[٢]، أو مذهب الرفض والإلحاد، الذي أباح للشاه إسماعيل ولأتباعه في سبيل نشره، سفك الدماء والعباد وقتل العلماء وإحراق كتبهم ومصاحفهم ونبش قبور المشايخ من أهل السنة[٣]. ويمكن أن نستخلص وجود التعصب الديني في مذهب الشاه من قضية مفادها أن هذا الأخير قد أمر بتربية خنزير سماه بايزيد وهو أكبر احتقار عند المسلمين[٤].

لقد كان لانفجار الحركة المذهبية التي بدأها الشاه في بث مذهبه عنوة وتوسعاته السياسية من أجل تثبيت غايتها إثارة واضحة ليس للحفيظة الدينية السنية للعثمانيين فحسب، بل عاملاً فعالاً في تغيير استراتيجيتهم السياسية وتوجيه أنظارهم

(١) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٣١.
(٢) Shaw: op: cit, p 78.
(٣) الحنبلي: ابن العماد، شذرات الذهب من أخبار من ذهب، دار الآفاق والجديد، بيروت، تحقيق لجنة أحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ج٨، ص ١٤٤ والحنفي: المصدر السابق، ص ٢٣٤.
(٤) موير: المرجع السابق، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ وزقلمة: المرجع السابق، ص ٩٨.

نحو آسيا الغربية بعد أن كانت أوروبا الشرقية شغلهم الشاغل، بذلك بدأت أولى حلقات النزاع المزمن بين الطرفين، وكان العامل المذهبي أحد دوافعها[1].

اعتبارات سياسية: اعتبر السلطان سليم أن الشاه إسماعيل يشكل عاملاً خطراً بوجه خاص، من عوامل تفكك الأناضول العثماني، نظراً لانتشار مذهبه بحماس بين القبائل التركمانية ضمن الأراضي العثمانية في شرقي الأناضول. وكانت هذه القبائل تعارض التنظيمات العثمانية التي سلبتها استقلالها الذاتي. وزاد في الأمر أنّ التركمان أظهروا تعلقاً بالطرق الصوفية التي تدعو إلى تعاليم وطقوس تتفق مع حياتهم، لذلك أخذت القبائل التركمانية في شرقي الأناضول تتجاوب مع دعوة الشاه إسماعيل الصوفية الشيعية، لأنه تركماني مثلها[2].

وعلى سبيل المثال فإن رجال قبيلة الورسق تركوا أماكن سكناهم في قرمان وهبوا لنجدة الشاه إسماعيل إبان إقامته في أذربيجان[3]. وفي عام ٩١٧ هـ/ ١٥١١م، قامت ثورة بين تركمان الأناضول بقيادة رجل عرف بلقب شاه قولي أو عبد الشاه أو شيطان قولي[4]، وتمكنوا من الاستيلاء على ولاية تكا وقرمان وتوقات، وهي مناطق لطالما اعتبرت مصدراً لقيام ثورات منتظمة ضد السلطة المركزية العثمانية، وقرأوا الخطبة باسم الشاه فيها. وعلى الرغم من أن بايزيد الثاني نجح في القضاء على هذه الثورة[5]، إلّا أن السلطان سليم اعتبر هذا الأمر نذيراً بالخطر بالنسبة لسكان الدولة العثمانية بالذات، ورأى أن حل المشكلة الأناضولية يمر عبر القضاء على الشاه[6].

اعتبارات اقتصادية: كان من أسباب انزعاج السلطان سليم الشديد من الشاه إسماعيل الصفوي، محاولاته عرقلة الطريق الأفقي التجاري بالعمليات العسكرية ليس بإيران فحسب، بل في شرقي الأناضول وعلى التخوم الشمالية لبلاد الشام،

---

(١) الغزي: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٥ والجميل: المرجع السابق، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.
The applied history research group: op. cit, p 1.
(٢) Inalcik: The Rise of the Ottoman Empire, op. cit, p 314.
(٣) صباغ: المرجع السابق، ص ٢٤١.
(٤) الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٢٤ وصباغ: المرجع نفسه، ص ١٢٧.
(٥) الحنفي: المصدر نفسه.
Inalcik: op. cit.
(٦) طقوش: العثمانيون، ص ١٣٥.
The applied history research group: op. cit, p1.

في الوقت الذي وقفت فيه دفق المتاجر من الجنوب الآتية من مصر وبلاد الشام براً وبحراً، بعد أن سد البرتغاليون منافذ التجارة في البحر الأحمر والخليج العربي[(١)]، وهذا ما ألحق الضرر بالدولة العثمانية من الناحية الاقتصادية لاعتماد موارد خزنتها على هذه التجارة[(٢)]. لذلك فقد حاول السلطان سليم في بادئ الأمر منع الصفويين من الاستفادة من المواد الخام الخاصة بصنع الأسلحة والذخائر مثل النحاس والحديد التي اشتهرت بها بلاد الأناضول.

كما فرض حصاراً تجارياً على الدولة الصفوية خاصة تجارة الحرير التي تمر عبر الأراضي العثمانية عن طريق حلب ـ الإسكندرون وفي طريقها إلى الغرب حيث تقوم بمقايضتها بالذهب، ممّا خفض إيرادات الصفويين بشكل ملحوظ. ثم خطا السلطان خطوة أخرى حين أخذ يصادر البضائع الإيرانية من جميع التجار لشحنها من الجانب الأوروبي في الروملِلي، ممّا أثر على حركة التجار الذين تحولوا نحوالجنوب عبر وادي الرافدين[(٣)].

ولما قرر السلطان سليم الإستيلاء على الطرق التجارية الشمالية مع الهند، وكانت الدولة الصفوية تقوم كحجر عثرة في سبيل ذلك، فكر بالقضاء عليها.

إذاً وبناءً على ما تقدم وإزاء الاعتبارات السلطوية، المذهبية، السياسية، والاقتصادية، كان طبيعياً أن يبدأ السلطان سليم بالشاه إسماعيل أولاً لأنه يشكل الخطر المباشر على الدولة العثمانية. فالصفويون تعاونوا مع البرتغاليين الذين أعلنوا أن لهم أهدافاً صليبية ومعادية بصراحة للإسلام، كما أن العثمانيين كانوا ينوون تأليف جبهة قوية تستطيع الوقوف أمام أوروبا كلها التي تدعم البرتغاليين، لهذا كله كان لا بد من الصدام الأول مع الصفويين فقتال الأعداء الداخليين يجب أن يسبق الصراع الخارجي[(٤)].

وممّا يجدر ذكره، أن الدولة العثمانية لم تكن قد تعرضت لمثل هذا الخطر الكبير منذ غزوة تيمورلنك للأراضي العثمانية، وكان من الممكن أن يسفر انهزام الجيش العثماني على فرض الصفويين مذهب التشيع على الأناضول الوسطى وإلحاقها بإيران[(٥)].

---

(١) صباغ: المرجع السابق، ص ٦٧ ـ ٦٨.
Ibid, p3.

(٢) صباغ: المرجع السابق، ص ٣١٣.

(٣) Inalcik: The Ottoman economic mind, op. cit, p 214.

(٤) حسون: د. علي: تاريخ الدولة العثمانية: المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٩٤، ص ٥٧.

(٥) طقوش: العثمانيون: ص ١٤٢.

مقدمات الحرب العثمانية ـ المملوكية الثانية

بعد أن اعتلى سليم عرش السلطة العثمانية، لم يرسل إليه الغوري رسالة تهنئة بالجلوس على العرش، ولكنهما تبادلا الرسائل من بعد في مناسبات أخرى. وقد اتسمت الرسائل التي تبودلت بين السلطانين بشيء من الود الظاهري أحياناً وبالشك والحذر أحياناً أخرى، ثم تطورت إلى توتر فوعيد وتهديد[1].

لا شك أن تأزم العلاقات بين الدولتين العثمانية والمملوكية لم يأت مصادفة، أو دون مبررات قوية، بل كانت وراءه أسباب ودوافع عديدة امتزجت وتفاعلت فيما بينها، بعضها ساهم في صنعه المماليك والبعض الآخر نتج عن سياسة السلطان العثماني. إضافة إلى أن الدولة المملوكية كانت في مرحلة الانحطاط بينما الدولة العثمانية كانت في طريقها إلى الأوج وتطمح إلى زعامة العالم الإسلامي، شأن الدول الإسلامية الكبرى[2].

وعلى هذا لا يمكن أن نفصل سبباً عن الآخر فكلها مجتمعة، كانت المحرك الدافع للاحتكاك ثم الاصطدام بين الدولتين في بداية القرن العاشر الهجري.



الموقف المملوكي من الصراع العثماني ـ الصفوي (جالديران)

إن تهديد الصفويين لكلتا الدولتين العثمانية والمملوكية لم يخفف مطلقاً من التناقضات بينهما وظلت كل منهما تتصرف بمعزل عن الأخرى[3].

فحين وصل موفد من الشاه إسماعيل إلى السلطان الغوري يطلب مساعدته ضد السلطان العثماني إن هو فكر في غزو بلاده مبيناً له إن لم يتفقا حاربت الدولة

(١) متولي: المرجع السابق، ص ١٠٧.
(٢) رافق: بلاد الشام ومصر، ص ٤٤.
(٣) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٥٧.

العثمانية كليهما على حدى وقهرته وسلبت أملاكه[1]، وصلت بعثة عثمانية إلى القاهرة في ربيع الأول سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م، حاملة اقتراحاً بعقد تحالف بين العثمانيين والمماليك لمحاربة الصفويين على أن يكون السلطان العثماني والسلطان المملوكي «أمراً واحداً وقولاً جازما على الصوفي حتى يكون من أمره ما يكون[2]».

كان السلطان المملوكي يدرك تماماً أن المنتصر من الجانبين سيعمل على تصفية الموقف بالاصطدام بالمماليك، ومن ثم كان عليه أن يتخذ موقفاً من التطورات السياسية والعسكرية السريعة بتبني أحد الخيارات التالية:

- إما أن يقف إلى جانب العثمانيين ويساندهم ضد الصفويين.
- إما أن يقف إلى جانب الصفويين ويساندهم ضد العثمانيين.
- إما أن يقف على الحياد بين الطرفين.

وأخذ قانصوه الغوري يقلب هذه السياسات أمامه، فوجد أنه إذا وقف إلى جانب السلطان العثماني ضد الشاه إسماعيل فإنه بذلك يعطي العثمانيين قوة على قوة، ويجعل جهودهم في القضاء على الصفويين غير شاقة، أو بمعنى آخر إن انضمام المماليك إلى الجانب العثماني سيخل بالتوازن إخلالاً شديد لصالح العثمانيين بالذات. أما إذا أخذ السلطان قانصوه الغوري جانب الشاه إسماعيل، فإضافة إلى خشيته إن انتصر الشاه على العثمانيين من أن يزحف عليه[3]، كان عليه أن يقنع جمهرة المماليك بذلك، ولقد كان من المستبعد أن ينجح في إقناعهم لعدة أسباب:

أولاً: لقد كانت العلاقات الصفوية ـ المملوكية غير طيبة ولا تشجع على قيام تحالف على جناح السرعة.

ثانياً: كان مماليك مصر سنيين متحمسين لمذهبهم لا يقبلون التعاون مع الشاه الصفوي الشيعي ضد السلطنة العثمانية السنية المجاهدة ضد الفرنجة منذ أكثر من قرنين من الزمان.

ثالثاً: لقد أثبت العثمانيون أنهم أكثر غيرة على الإسلام من الصفويين، حيث لبى السلطان العثماني بايزيد الثاني ثم السلطان سليم الأول ولا يزال طلبات

---

(١) فريد بك: المرجع السابق، ص ٧٣ ـ ٧٤.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٣٧٣.
(٣) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٧٦ وماجد: المرجع السابق، ص ١١٥.

الغوري، بشأن إمداده بالأخشاب والفنيين لإعداد أسطول كبير لخض شوكة الأسطول البرتغالي الذي هدد المياه الإسلامية الجنوبية[١].

ولهذا فضل قانصوه الغوري أن يقف على الحياد، ولكنه لم يكتف بإرسال قوة من مماليك الجلبان إلى حلب لمراقبة تطورات الأمور ولحماية الأراضي والإمارات الواقعة تحت نفوذ المماليك من الجيش العثماني الزاحف لمحاربة الشاه[٢]، بل حاول تدبير استفزاز لإثارة الصدام بين الجانبين العثماني والصفوي، لكي يتحطم أحد العدوين بيد العدو الآخر، ثم يقوم المماليك بدور منقذ للإسلام والسنة وربما بدور وريث للدولة العثمانية[٣]. ففي الوقت الذي أكّد السلطان الغوري للسلطان سليم عدم اتصاله بالصفويين، وأشاد بموقف العثمانيين اتجاههم باعتبارهم مارقين على الدين[٤]، سمح للوفد الإيراني المرسل من قبل الشاه بالمرور في أراضيه بطريق الشام إلى مملكة البندقية في إيطاليا ليعرض عليها أن يتحدا معاً بغرض محاربة العثمانيين[٥]، دون تبصر بنتائج ما قد يقوم به الشاه في حال انتصاره من أعمال عدوانية متزايدة ضد المماليك وإقامة علاقات وطيدة مع البرتغاليين[٦].

باعتباره زعيماً للسنة كان ملزماً بمساعدة العثمانيين والوقوف إلى جانبهم في هذه المحنة[٧]. فيما يبدو أن السلطان الغوري لم يساوره أي شك في قدرته الذاتية، وأن العثمانيين لن يتمكنوا من التغلب على الصفويين[٨].

في الواقع إن انتصار السلطان سليم في جالديران كان مفاجأة غير متوقعة للمماليك، وقد قابل السلطان المملوكي هذه الأخبار بقلق بالغ يقول ابن إياس: «فلما حضر قاصد سليم باشا بن عثمان بين يدي السلطان وقرأت مكاتبته بحضرة الأمراء وخلع على القاصد الذي حضر بأخبار هذا النصرة ـ كاملية مخمل أحمر كفوري بصمور عال ملابسه ـ ثم أنزل القاصد من القلعة ولم يرسم بدق الكوسات في القلعة ولم يناد في القاهرة بالزينة ولم يعلم ما سبب ذلك[٩]».

(١) نوار: المرجع السابق، ص ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٣٧٦.
(٣) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٥٧.
(٤) متولي: المرجع السابق، ص ١٠٩، ١١٠.
(٥) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٣٦.
(٦) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٥٧.
(٧) طقوش: العثمانيون: ص ١٥٠.
(٨) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٥٧ وطقوش: العثمانيون، ص ١٥٠.
(٩) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٠٤.

وعلى الرغم من أن الغوري قد أرسل فيما بعد رسالة تهنئة للسلطان سليم لكيلا يثير غضبه، لأنه لو لم يفعل ذلك لتأكد للسلطان العثماني تحالفه مع الصفوي ضد العثمانيين[١]، إلّا أن موقف المماليك من مسألة النزاع العثماني مع المتطرفين الشيعة ورفضهم الاقتراح العثماني بالتحالف معهم ضد الشاه وتمسكهم بسياسة الانتظار، قد تحول إلى حجر عثرة بين الدولتين السنيتين، وتبين أن هذه المسألة كانت الشرارة التي أشعلت نار الحرب فيما بعد بين الطرفين[٢].

٢

قضاء العثمانيين على إمارة دلغادر وضمهم إمارة رمضان

في الشهور الأولى التي أعقبت جالديران، وبعد أن سيطر السلطان سليم على أقاليم مختلفة في أذربيجان، وأرمينيا، ونجح بأساليب ديبلوماسية[٣] من استمالة أمراء الأكراد ورؤساء العشائر وحكام المقاطعات في العراق والجزيرة وإثارتهم على حكم الشاه[٤]، وافتتح بنفسه قلعة كيماخ[٥]؛ وجه أحد جيوشه للقضاء على إمارة دلغادر، التي وقفت منه موقفاً خيانياً في علاقاتها السياسية والاقتصادية مع الصفويين من طرف والمماليك من طرف آخر[٦].

فالسلطان سليم حين وصل إلى مشارف قيصرية أثناء طريقه لمحاربة الشاه إسماعيل، كان قد بعث برسوله إلى علاء الدولة بن دلغادر، حاكم مرعش والبستان، طالباً منه المساهمة في حرب الصفويين. ولكن علاء الدولة تخلق الأعذار في عدم المجيء إليه، متعللاً بكبر سنه وأنه لا يستطيع القيام بأي مجهود لكونه تحت الحماية المملوكية. وما إن مضى السلطان في طريقه، حتى أغار علاء الدولة على القوافل العثمانية[٧]، ومنعها إمدادات الحرب من المرور إلى الجبهة

---

(١) متولي: المرجع السابق، ص ١١٧.
(٢) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٥٧ وزقلمة: المرجع السابق، ص ٩٧.
(٣) فقد انتدب سليم الشيخ إدريس البدليسي لهذه المهمة انظر دائرة المعارف: ج٣، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية: ج٣، ص ٤٦٤.
(٥) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٤.قلعة كيماخ تقع عند المجرى الأعلى لنهر الفرات.
(٦) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٥٨.
(٧) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧٢.

الشرقية، ممّا حدا بالسلطان سليم الذي حرص في ذلك الوقت على أن لا يثير نقمة المماليك بالتعرض لإمارة دلغادر التابعة لها[1]، أن يرسل إلى الغوري يخبره بما فعل علاء الدولة[2]، فرد عليه الغوري بكتاب جاء فيه «. . . إن علاء الدولة عاص، فإن ظفرت به فاقتله»، وفي الوقت ذاته أرسل إلى علاء الدولة يشكره على فعله ويغريه على الاستمرار بتصلبه تجاه العثمانيين[3].

من خلال موقف الغوري هذا يتأكد بأن خطته كانت تهدف إلى ضرب القوى مع بعضها ليخفف من ضغطها على دولته، ولكن سياسة المخاتلة هذه كان لها أثر سلبي على الدولة المملوكية فيما بعد وعلى علاء الدولة. ذلك أن حرب سليم مع الشاه إسماعيل وتحالفات هذا الأخير مع إمارة دلغادر[4] وإمارة رمضان[5]، أقنعت السلطان سليم بأن عليه قبل مواصلة الحرب مجدداً ضد الشاه، بأن لا يكتفي بتأديب علاء الدولة فحسب، بل وبضرورة إعادة الاستيلاء على كبادوكيا وكيليكيا التابعتين للمماليك، وذلك لعدة أسباب استراتيجية:

أولاً: للحفاظ على أمن الأناضول تحسباً لأي اختراق قد يحصل من أي جهة من الجهات، وذلك لحماية مؤخرة جيشه من الشاه وأنصاره[6].

ثانياً: إن سيطرته على موانئ كيليكيا من شأنها أن توفر له طريقاً بحرياً يربط إسطنبول بباياس يسهّل عليه تمويل حملاته القادمة ضد الصفويين بصورة أجدى ممّا كان عليه الحال خلال الحرب السابقة[7].

ثالثاً: إن السيطرة على الممرات الاستراتيجية في منطقة التخوم الشمالية لبلاد الشام من شأنها أن تؤمن له التحكم بطرق التجارة الدولية[8].

وبناءً على ذلك انتدب السلطان سليم صدره الأعظم لإنهاء غائلة علاء الدولة[9]، وعسكر هو ـ أي السلطان ـ على مسافة قريبة من الإمارة. اشتبك

---

(1) متولي: المرجع السابق، ص ٨٧.
(2) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٣٥.
(3) ابن زنبل: الشيخ أحمد الرمال: واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٢٢.
(4) مصطفى: المرجع السابق، ص ٨١.
(5) حليم: المرجع السابق، ص ٨٢.
(6) Stripling: op. cit, p 40.
(7) مصطفى: المرجع السابق، ص ٨٣.
(8) مصطفى: المرجع نفسه، ص ٢٩.
(9) القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٤.

الجيش العثماني مع جيش علاء الدولة في معركة مهولة قتل فيها ابن علاء الدولة وجماعة كثيرة من جنده، ولم يرجع سليم إلى سلطانه، إلّا بعد أن خرّ علاء الدولة صريعاً بأرض المعركة[١].

ورغم مصرع الصدر الأعظم، إلّا أن إمارة دلغادر كانت قد انقرضت على يديه، وبذلك تخلص سليم من حجر عثرة كانت تقف أمامه من خلال تحالفاتها[٢]، واستناب فيها علي بن شاه سوار[٣].

وعلى الطرف الآخر فقد نجح السلطان سليم بإخضاع ممتلكات إمارة رمضان[٤]، ولا سيما جهات أدنة وطرسوس، إلى نفوذه مستغلاً استرخاء العلاقات بين أمرائها والمماليك، وبهذا فقد صارت الجيوش العثمانية تأمن على مقدمتها وعلى خط رجعتها[٥].

وعلى الرغم من أن السلطان سليم لم يكن في نيته أن يبدأ عمليات استراتيجية تجاه بلاد الشام ومصر على اعتبار أن هدفه الأساسي في هذه الفترة كان إقصاء القوى الصفوية عن التخوم الشمالية لبلاد الشام مع الحفاظ على علاقات حسنة مع المماليك، إلّا أن سقوط المناطق الاستراتيجية الحساسة في المنطقة الحدودية ولا سيما إمارتي دلغادر ورمضان المشمولتين بحماية المماليك بيد العثمانيين، جعل الصدام مجدداً بين الدولتين أمراً لا مفر منه[٦].



ردة الفعل المملوكية
من التوسعات العثمانية

لما وصلت الأخبار إلى القاهرة بمقتل علاء الدولة، وأن السلطان سليم قد تملك غالب التخوم الشمالية لبلاد الشام، وشرع ببناء برج عند عقبة

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ ـ ٤٥٨ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٧٢.
(٢) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٣٨.
(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٦٢ والقرماني: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٤.
(٤) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ وحليم: المرجع السابق، ص ٨٢.
(٥) كرد علي: المرجع السابق، ج٢، ص ٢٠٨.
(٦) عاشور: مصر والشام، ص ٢٧٧ وحران: المرجع السابق، ص ٤٢٤.

بغراس وآخر على باب الملك[1]؛ انزعج السلطان الغوري بشدة وأعلن النفير العام بالجند[2].

من جهة أخرى وفي هذه الأثناء، تحرك الشاه إسماعيل مجدداً بعد أن استردت قواته بعضاً من أنفاسها، فجمع عدداً كبيراً من الجند وقام بمهاجمة «آمد» في ديار بكر وقتل من كان بها من الحامية العثمانية واستخلصها من أيديهم وانتصر عليهم[3]، فما كان من السلطان سليم إلّا أن أرسل أحد قواده لمساعدة سكان ديار بكر المحاصرين، فدارت معركة بين الطرفين أسفرت عن ارتداد القوات الصفوية وقتل قائدها[4].

وتجنباً من إثارة المماليك ازاء التحركات العسكرية العثمانية سواء في إمارتي دلغادر ورمضان أو في ديار بكر، فقد أرسل السلطان سليم رسالة إلى الغوري يظهر له فيها أن الهدف من وراء تحركاته العسكرية الأخيرة إقصاء القوات الصفوية، ويؤكد له أنه ليس به طمع في دولته أو رغبة في إلحاق الضرر به، ويحرص للعمل على تحسين العلاقات بين البلدين[5]. فرد الغوري على سليم بجواب أخبره فيه أنه يريد كمية من الأخشاب اللازمة لبعض المصالح المهمة في القاهرة، ويطلب أيضاً أن يرسل إليه بعض العمال المهرة في صناعة السفن[6].

لم يوضح الغوري في رسالته ماذا يريد بالخشب صراحة، ولكنه اكتفى بالقول بأن شراء الخشب «لبعض مصالحنا المهمة في القاهرة» فهل أراد السلطان المملوكي أن يجهز المراكب للتصدي للعثمانيين في البحر المتوسط إن هم بدأوا بسوء؟ أم أنه كالعادة كان يريد أن يستعدّ لفك حصار البرتغاليين الذي يهدد موانئ المماليك ويزداد خطره بعد فشلهم في مواجهته[7].

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٦٣.
(٢) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٦٧ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٣٤.
(٣) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٢ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٣٥.آمد مدينة من بلاد الجزيرة ونهردجلة يحيط بها إلا من جهة واحدة انظر القزويني: المصدر السابق، ص ٤٩١ - ٤٩٢.
(٤) القرماني: المصدر السابق، ج٣ ص ٤٤.
(٥) متولي: المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨ - ١٢٤.
(٦) المرجع نفسه، ص ١١٨.
(٧) صباغ: المرجع السابق، ص ٦٧. عام ١٥١٥م فشل الأسطول المملوكي في مواجهة البرتغاليين، الأمر الذي جعل الأسطول البرتغالي ينساح في المحيط الهندي، وخليج عمان والخليج العربي دون رادع أو منافس.

فيما يبدو أن الاحتمال الأول أقرب إلى الصواب، وهذا ما أورده المؤرخ ابن إياس[1]، ولأن الغوري لو كان يقصد التصدي فقط للبرتغاليين لقال ذلك في رسالته صراحة لكي يفرح السلطان سليم، حيث أن الخطر البرتغالي يزيد مع الأيام وتأثيره على العثمانيين قائم. وربما أيقن السلطان الغوري أن الدائرة ستدور عليه بعد أن هزم سليم الشاه الصفوي وقضى على علاء الدولة حليف المماليك، فأراد أن يجهز المراكب لكي لا يفاجئه العثمانيون وهو لم يستعد لذلك[2].

وعلى الرغم من أن سليم طمأن الغوري في رسالة لاحقة على أنه لن يحدث بين البلدين ما يكدر الصفو وأنه لا يطمع في الاستيلاء على بلد من بلاد المسلمين، إلّا أن الغوري لم تتخدّر أعصابه بما جاء في تلك الرسالة، حيث لم يمض وقت طويل على مقتل علاء الدولة، والذي يعتبر قتله بمثابة ضربة له لم يستطع أن يرد عليها أو هو ألزم نفسه بما جاء في مراسلاته السابقة مع السلطان العثماني، عندما أعرب له عن عدم اهتمامه بحاكم دلغادر وترك حرية التصرف للسلطان العثماني لكي يختار الطريقة التي ينتقم بها منه.

وقد ترجم الغوري غضبه وحنقه على السلطان سليم بأن استقبل في بلاطه في القاهرة الأمير قاسم ابن أحمد ـ شقيق السلطان سليم ـ وكان قد هرب إلى بلاد الشاه من أخيه[3]، وابن علاء الدولة، فاجتمع أولاده وأخوه عبد الرزاق بمصر[4]. ومن جهة أخرى فقد سعى إلى التحالف مع الشاه إسماعيل، ولعل ما شجعه على سلوك هذا المسلك أنّ الشاه كان مستعداً بعد جالديران على متابعة العمل ضد السلطان سليم[5]. ويذكر ابن إياس في هذا الصدد أن الغوري تحالف مع إسماعيل الصفوي لأنه أحس بخطر العثمانيين، وأرسل إليه عدة أفيال « في الخفية في خبر سر بينه وبين الصوفي»[6]. ولكن في الحقيقة فإن الكراهية التي كان يكنها الشاه للغوري لم تكن تقل عن كراهيته للسلطان سليم، بالإضافة إلى أنه لم يفكر بعد جالديران في خوض معركة مكشوفة مع

---

(١) ابن إياس: المصدر المصدر السابق، ج٤، ص ٤٦٧.
(٢) متولي: المرجع السابق، ص ١٢٠.
(٣) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٧٦
(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٨٣ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٣٤.
(٥) مصطفى: المرجع السابق، ص ٨١. وحران: المرجع السابق، ص ٤٢٤.
(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٥.

العثمانيين، واكتفى بتثبيت حكمه في إيران والقيام ببعض المحاولات الارتدادية الضيقة، والتحالف مع البرتغاليين[١].

على أية حال يمكن القول، بأن ردة الفعل المملوكية تجاه التوسعات العثمانية لم تسفر عن نتيجة إيجابية، بل انعكست سلباً على علاقاتهم مع العثمانيين الذين رأوا في هذه المحاولة طعنة للدولة العثمانية من الخلف.



الاستعدادات العسكرية المملوكية

ما إن وصلت الأخبار إلى مسامع السلطان الغوري من حليفه الشاه عن قرب اندلاع الحرب مجدداً بين الصفويين والعثمانيين[٢]، حتى قرر الوقوف في هذه المرحلة إلى جانب الشاه إسماعيل. لأنه ظن أن لو ساعد الشاه في أول الأمر، أي في جالديران، لكان خيراً له ولجاءت النتيجة على عكس ما وقع بعد[٣]. فأمر الغوري بإرسال حملة عسكرية إلى مدينة حلب يكون هو على رأسها[٤] بحجة التوسط في الصلح[٥]، بالرغم من معارضة أغلب القواد والحكام المماليك، الذين خشوا أنهم سيجرون سليم إلى المعركة التي لم يكونوا لها بمستعدين على وجه الإطلاق[٦].

عندما بدأ الغوري بجمع الجنود والعتاد، واجه أزمة داخلية مستعصية، ففي تلك الأوقات العصيبة لم يتخل المماليك عن عبثهم ولم يقدرّوا خطورة الموقف الذي أوشك أن يعصف بهم جميعاً. فثار الجلبان في القاهرة، كما ثار القراصنة من قبل[٧]، لتأخر رواتبهم، وطالبوا بالمكافآت واللحوم، الأمر الذي أغضب السلطان الغوري فترك القلعة واعتزلهم، فاستغل الجلبان هذه الفرصة واستمروا في العبث،

---

(١) عام ١٥١٥م عقد الشاه إسماعيل الصفوي معاهدة دفاع مشترك مع البرتغاليين انظر صباغ: المرجع السابق، ص ٢٣٣.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٢٢.
(٣) موير: المرجع السابق، ص ١٨٧ وزقلمة: المرجع السابق، ص ١٠٠.
(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٢٢.
(٥) حسون: المرجع السابق، ص ٦١.
(٦) مصطفى: المرجع السابق، ص ٨٣.
. Shaw: op. cit, v1, p83 - 84.
(٧) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٣.

ونهبوا الدكاكين في القاهرة وأخذوا «يشوشون على الناس وحصل منهم الضرر الشامل»، لولا أن بعض الأمراء مشوا في الصلح بين السلطان وبينهم[١].

لقد عكست الخلافات المستشرية في أوساط المماليك المسألة السياسية والنفسية والعصبية التي عصفت بالجيش والسلطة، وأشارت إلى الضعف العام والوهن الكبير الذي بلغه النظام المملوكي، وإلى انخفاض درجة الانضباط في الجيش بشكل خطير.

ومع أن الغوري عمد إلى استرضاء المماليك الثائرين بدفع رواتبهم إلّا أن النقمة لم تقتصر على ما قام به هؤلاء، بل كانت تنتظر تدابيره في كل قرية ومدينة[٢].

فالفلاحون في مصر أخذوا يفرون من قراهم مخلفين وراءهم محاصيلهم الزراعية، وفي القاهرة أقفل الخياطون حوانيتهم وصانعو الأسلحة مراكزهم، وتعالت في الشوارع التهديدات والشتائم الموجهة ضد السلطان نتيجة الضرائب التي فرضها من أجل تغطية نفقات حملته العسكرية[٣]. كل ذلك لم يثن عزيمة السلطان الغوري عن متابعة التحضيرات والاستعدادات الحربية التي استغرقت وقتاً طويلاً، واستنفدت جميع الأموال التي كانت موجودة في الخزائن وحواصل الذخيرة من السلاح والعتاد، ولم يكن هناك أمر يستحق لهذا كله «ولا جاءت الأخبار بأن ابن عثمان قد وصل إلى حلب ولا جاليشه ـ مقدمة العسكر ـ ولا تحرك من بلاده»، على حد تعبير ابن إياس[٤]. بل على العكس فقد وصلت إلى الغوري رسالة من السلطان سليم تتضمن استعداده للتنازل له عما يريد يقول له فيها: «أنت والدي وأسألك الدعاء وأني مازحفت على بلاد علاء الدولة إلّا بإذنك، وأنه كان باغياً علي، وهو الذي أثار الفتنة القديمة بين والدي والسلطان قايتباي حتى جرى بينهما ماجرى، . . . وإن ابن سوار الذي ولي مكانه، فإن حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد أبيه أو تولوا غيره فالأمر راجع إليكم في ذلك . . . وأما التجار الذين يجلبون المماليك فإني ما منعتهم، إنّما هم تضرروا من معاملتكم من الذهب والفضة

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٤، ص ٤٨٤، ٤٨٥ وج٥، ص ٧.
(٢) كان قانصوه الغوري شديد الطمع، كثير الظلم والعسف حتى أنه صار إذا مات أحد من رعيته يأخذ ماله جميعاً ويترك أولاده فقراء لذلك اشتد السخط عليه في أواخر سنين حكمه. انظر القرماني: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٤.
(٣) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٨ ـ ٣١ ـ ٣٣.
(٤) المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٩.

فامتنعوا عن جلب المماليك إليكم، وأن البلاد التي أخذتها. . . أعيدها إليكم وجميع ما يريده السلطان فعلناه»[١].

مهما يكن من أمر، وعلى الرغم من النصيحة التي وافته من نائبه في الشام واسمه سيباي ـ وكان يتمتع باحترام وتقدير أهل الشام ـ بأن لا يجر سليم للمحاربة في هذا العام لوجود قحط في البلاد وطمأنه قائلاً: «وإن كان ثمّ عدوّ متحرك فنحن له كفاية»[٢]، إلّا أن الغوري وبعد أن عين طومان باي نائباً عنه، غادر القاهرة في١٢ربيع الثاني عام٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م، باتجاه بلاد الشام على رأس جيش كبير ضم حوالى خمسةآلاف من القرانصة والأجلاب وأولاد الناس عدا عن السيفية، ولم يتأخر بالقاهرة إلّا حوالي ألفي نفر[٣].

دخل السلطان الغوري دمشق في ١٨ جمادي الأول٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م، وكان بصحبته الخليفة العباسي وقضاة المذاهب الأربعة[٤]، وذلك بهدف إعطاء تحركه العسكري صبغة سلمية[٥]. وقد نثر صدقة اليهودي ـ المسؤول عن دار ضرب النقود ـ وقنصل الفرنجة الدراهم على السكان[٦] بهذه المناسبة للتعبير عن ولائهما، ولكسب رضى السلطان، وربما لاستثارة الشعب الذي لم يكتف بعرقلة تدابير السلطان بشأن التعبئة العامة، بل انخرط أيضاً في أعمال معادية للدولة[٧].

في ٢٤ جمادى الأول غادر الغوري دمشق متجهاً نحو حلب، حيث دخلها في ١٠ جمادي الآخرة وكان له يوماً مشهوداً[٨]. وفي حال دخول السلطان إلى المدينة، قابله موفدان من قبل السلطان سليم[٩] هما قاضي عسكره ركن الدين بن زيزك، وأحد أمرائه المعروف بقراجا باشا[١٠]، كانا استوقفا فترة طويلة في حلب

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٥ ـ ٤٦، ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٥ ص ٢٦.
(٣) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٥، ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٤) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٤١ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨٣.
(٥) حسون: المرجع السابق، ص ٦١
(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٥٣.
(٧) ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٧ ـ ٢٣ ورافق: بلاد الشام ومصر، ص ٩٨.
(٨) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٦١، ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٤٥.
(٩) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨٥.
(١٠) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٦١ والغزي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٩٦ والقرماني: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٥ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٤٥.

ولم يسمح لهما بمقابلة السلطان قانصوه الغوري بسرعة[1]، بغرض إخباره بوصول السلطان سليم إلى قيصرية ونيته التوجه لقتال الصفوي[2]، وليعرضا عليه رغبة سلطانهما بتمتين أواصر الصداقة والمحبة بين الدولتين وإصلاح ما فسد بينهما من أمور، واستعداده لتنفيذ جميع ما ورد في رسالته السابقة، وأضافا «نحن فوض لنا أستاذنا الأمر قال مهما اختاره السلطان أفعلوه ولا تشاوروني»[3]. لقد ظن السلطان الغوري، أن مجرد ظهوره على الحدود الشمالية من سلطنته بكامل عسكره وعدته ستخيف السلطان العثماني فيرضخ لجميع مطالبه[4]، لذلك فقد عرض على الرسولين بالإضافة إلى طلبه بتنحية ابن شاه سوار عن الحكم واستعادة الأراضي التي أخذها العثمانيون منه، التوسط للصلح بين مرسلهما سليم وبين الشاه إسماعيل[5].

في الواقع إن القاضي ابن زيزك الذي أحضر معه فتاوى من علماء بلاده، وقد أفتوا بقتل الشاه إسماعيل الصفوي وأن قتاله جائز في الشرع، أخبر الغوري بأن السلطان سليم ما كان أبداً ليوافق على الشرط الأخير وخصوصاً أنه ذكر ذلك صراحةً في رسالته الموجهة للغوري:

«السلطان والدي وأسأله الدعاء ولكن لا يدخل بيني وبين الصوفي فإني ما أرجع عنه حتى أقطع جادرته من على وجه الأرض فلا يدخل بيننا بشيء من الصلح»[6].

في حقيقة الأمر إن السلطان الغوري، الذي أراد أن يستعيد هيبته في المنطقة، قد أساء التقدير من خلال موقفه من الصراع العثماني ـ الصفوي، لأنه بعمله هذا استثار العثمانيين ودفعهم إلى القتال.

كان يعتقد لزمن طويل أن العثمانيين هم من بدأوا الحرب عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م، ولكن إذا كان من الصعب معرفة ما إذا كان السلطان سليم جاداً بتنفيذ رغبات السلطان الغوري بالتنازل له عما يريد، فإن من المؤكد عدم وجود دليل

---

(١) كان الرسولان العثمانيان قد وصلا إلى حلب في ٣جمادي الأولى انظر متولي: المرجع السابق، ١٣٦ ـ ١٤٥.
(٢) القرماني: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٦.
(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٦١ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٤٥.
(٤) رافق: بلاد الشام ومصر، ص ٩٨.
(٥) متولي: المرجع السابق، ص ١٥٨.
(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٦٠ ـ ٦١ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٤٥.

على محاولة السلطان العثماني المراوغة والتمويه كما يُعتقد بهدف تأخير الحملة العسكرية المملوكية[١].

بل على العكس وتعبيراً عن صدق نواياه، فإن السلطان سليم صرح أكثر من مرة بأنه لا يريد التعرض للأراضي المملوكية، وأن هدفه الأساسي هو القضاء على الصفويين، وأكد دائماً على التعايش السلمي مع المماليك. وممّا يؤكد هذا التوجه أن العثمانيين ظلوا يساعدون المماليك في بناء السفن الحربية حتى في هذه المرحلة المتأخرة، حيث أرسل السلطان سليم برسالة إلى الغوري ـ وصلته أثناء وجوده في دمشق ـ تضمنت الموافقة على مطالب السلطان المملوكي الخاصة بإرسال الخشب[٢].

ولو أن السلطان سليم كان يموّه، لحجب مساعدته تلك عن المماليك في هذه الأوقات العصيبة.

بالمقابل ومن جهة المماليك فممّا لا شك فيه، أن السلطان الغوري هو من كان يموّه على السلطان سليم ولا يخبره بنواياه الدفاعية عن بلاده واستعداداته لاحتمال نشوب الحرب بينهما[٣]. فعلى الرغم من أن الغوري قد أشاع بأن القصد من المجيء إلى بلاد الشام الإصلاح بين العثمانيين والصفويين وحل النزاع بينهما بطريقة سليمة[٤]، إلّا أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا فما لزوم هذا الجيش الكبير بعدته وعدده واستصحاب ابن أخ السلطان سليم قاسم ابن أحمد المطالب بالعرش، وأولاد علاء الدولة وأخيه عبدالرزاق في هذه الحملة[٥] ؟ ! (مع العلم أن ابن سوار الذي استنابه السلطان سليم مكان علاء الدولة، كان قد حضر إلى قانصوه الغوري ومعه هدية وترقق له في مطالعته)[٦].

لعل ما أورده المؤرخ ابن إياس قد يجيب على هذا التساؤل عندما قال: «ظنّ السلطان ـ أي قانصوه ـ أن عسكر ابن عثمان إذا سمعوا ذلك يخامرون على سليم شاه ويأتون إلى هذا الصبي قاسم»[٧].

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٥. اعتقد المؤرخ ابن إياس أن الطرح الذي تقدم به السلطان العثماني «كله حيلاً وخداعاً».
(٢) متولي: المرجع السابق، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ـ ١٥٣.
(٣) متولي: المرجع نفسه، ص ١٥٤.
(٤) ابن الحمصي: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨٣ والغزي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٩٥.
(٥) ابن الحمصي: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٨٤ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٣.
(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٨.
(٧) المصدر نفسه، ص ٤٩.



نشاطات السلطان سليم

بينما كان المماليك يتقدمون بجيشهم باتجاه المناطق الشمالية لبلاد الشام، كان العثمانيون يقومون بالتحضيرات والاستعدادات العسكرية لمحاربة الشاه إسماعيل الصفوي في الديار الشرقية[١]. ففي ٤ جمادى الأولى ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م، غادر السلطان سليم إسطنبول وذهب أولاً إلى قونية[٢]، ومنها واصل السير في الأناضول فسلك طريقاً إلى الشمال الشرقي، غير الطريق الذي سار فيه بعد أن وصل إلى قونية في المرة السابقة عندما أراد أن يحارب إسماعيل الصفوي في جالديران، وعندما بلغ الطرف الشمالي لجبال طوروس، اتجه إلى الجنوب ووصل إلى البستان حيث التقى بالصدر الأعظم سنان باشا الذي كان بانتظاره. فتوحدت فصائلهما بعدتها وعددها، وكان جيشاً عثمانيًا شكّل وزناً ثقيلاً في تحركاته في المنطقة[٣].

إن أمر تحرك هذا الجيش ووجهته تلك وآلياته الحربية وعدته الكبرى وقيادته العظيمة قد أثار تساؤلات عدة حول ما يدور بخلد سليم: إلى أين سيمضي السلطان العثماني بجيوشه هذه المرة؟ أيذهب مرة أخرى إلى أذربيجان ليقاتل الصفويين؟ أم أنه سييمّم وجهه شطر بلاد الشام؟

في الواقع إن السلطان سليم وأثناء تحركه في الأناضول في طريقه إلى ديار بكر، كانت قد وصلت إلى مسامعه معلومات من حاكم الرها، عن الاستعدادات العسكرية المملوكية وتحرك الجيش المملوكي باتجاه الشمال[٤]، ووصوله إلى دمشق. فأراد سليم أن يتعرف من خلال وجوده في البستان على تحركات الغوري ونواياه الحقيقية تجاهه، ومدى استعداده للقائه ومدى احتمال قيامه بالعدوان على القلاع المجاورة للدولة المملوكية، لنقل ميدان المعركة خارج حدود دولة

(١) ابن سباط: المصدر السابق، ج٢، ص ٩٣٥ ومتولي: المرجع السابق، ص ١٢٨.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ج١٢، ص ١٢٤.
(٣) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٢١ ودائرة المعارف الإسلامية، ج١٢، ص ١٢٤ ومتولي: المرجع السابق، ص ١٤٤ ـ ١٥٨ ـ ١٥٩.
Stripling: op. cit, p43.
(٤) متولي: المرجع نفسه، ص ١٤٥.

المماليك. ذلك أن السلطان سليم كان يخشى المماليك وقوتهم ويحسب حساب ذلك، فلا تزال في ذاكرته أنباء انتصاراتهم المتكررة على العثمانيين، على الرغم من تغير ميزان القوى في المنطقة لصالحهم بعد معركة جالديران وهزيمة الصفوي وفراره[١]، ونجاحهم في القضاء على إمارتي دلغادر ورمضان. وهو بناء على ذلك، فقد بعث رسالة إلى محمود بك حاكم إمارة رمضان لكي يتخذ التدابير اللازمة على وجه السرعة، لتحصين القلاع القريبة من الحدود المملوكية الشمالية بالجنود والعتاد تحسباً من أي هجوم مملوكي ـ صفوي على القوات العثمانية[٢]، وفي الوقت نفسه أرسل الجواسيس إلى حلب لجمع المعلومات عن ماهية الأوضاع هناك[٣].

وما إن علم سليم بوصول الجيش المملوكي بكامل عدته وعدده إلى حلب وعلى رأسه قانصوه الغوري، حتى أدرك خطورة وجدية الأمر؛ ولكنه حتى ذلك الوقت لم يكن في نيته الدخول في حرب مع المماليك ويمكن الاستدلال على ذلك بعدم أخذه الطريق المباشرة من مرعش إلى حلب، بل فضل الذهاب باتجاه الشرق إلى ملطية، ليتسنى له الوقت الكافي من أجل تحديد وجهته الحربية بما يتوافق مع تطورات الأحداث الملحة: إمّا أن يحارب الفرس وإمّا أن يواجه المماليك[٤].

على أية حال، تحرك الجيش العثماني نحو المقاطعات المملوكية وتوقف قرب ملطية في ٢٧جمادى الآخرة، وحرصاً منه على عدم استثارة المماليك لم يدخل المدينة التابعة لنفوذهم ومكث خارجها، وذلك نظراً لعلمه المسبق بالمنشور الذي أرسله الغوري إلى حاكم المدينة، والذي نصّ على ألا يسمح لأحد أن يمر بأراضيه بينما هم في طريقهم للتفاوض على الصلح مع السلطان العثماني[٥].

ولكن فيما يبدو أن الأحداث السريعة التي حصلت لاحقاً أثبتت أن سليم كان

---

(١) Stripling: op. cit.

(٢) متولي: المرجع السابق، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: ج١٢، ص ١٢٤.

(٤) Stripling: op. cit, p 43.

(٥) متولي: المرجع السابق، ص ١٥٦ وحسون: المرجع السابق، ص ٥٩ وحران: المرجع السابق، ص ٤٢٥.

على حق في جميع مخاوفه[(١)]. ففي الوقت الذي وصل فيه ركن الدين ابن زيزك وقراجا باشا إلى المعسكر العثماني، وأخبرا السلطان سليم بأن الغوري قد عوقهما في حلب فترة طويلة، ولم يحسن استقبالهما في بداية الأمر[(٢)]، وبإصراره على التوسط بالصلح بينهم وبين الصفويين؛ ألقى العثمانيون القبض على جواسيس من قبل المماليك[(٣)]، كانوا يحملون رسالة من قانصوه الغوري إلى الشاه الصفوي يستحثه فيها على قتال السلطان العثماني[(٤)].

وعندما علم سليم بأن سلطان المماليك قد تحرك على رأس جيشه من حلب، توضح له كل شيء ورأى حينئذ بأن ذلك هو الخطر المباشر والمحقق والقادم من الجنوب. وما إن تأمنت له منافذ العراق بسقوط الموصل بيده[(٥)]، حتى قرر شن الحرب على دولة المماليك، وتأجيل مشروعاته لقتال الصفويين[(٦)]، الذين وقفوا ينتظرون نتائج تلك الأحداث بمزيد من الترقب والحذر والاهتمام.



٦

مبادرة السلام المملوكية وردة الفعل العثمانية

من الواضح أن غالبية الجنود المماليك لم تكن ترغب في الحرب ويحنون بالعودة إلى الوطن[(٧)]. وأمام هذا الأمر شعر قانصوه الغوري بأن جيشه لا يستطيع وحده الصمود أمام وحدة وتماسك الجيش العثماني الجيد التسليح والتجهيز، فحاول في ظل هذا الوضع المتفاقم تأخير اندلاع العمليات العسكرية بشتى الوسائل، أو حتى في هذه المرحلة المتأخرة لم يفقد الأمل بالمفاوضات

(١) ابن سباط: المصدر السابق، ج٢، ص ٩٣٦
(٢) حليم: المرجع السابق، ص ٨٣ ودائرة المعارف الإسلامية: ج ١٢، ص ١٢٤ ومتولي: المرجع السابق، ص ١٦٠ ـ ١٤٥.
(٣) كردعلي: المرجع السابق، ج٢، ص ٢٠٩.
(٤) ابن سباط: المصدر السابق، ج٢، ص ٩٣٥ وابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣ وابن كنان: المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٥) صباغ: المرجع السابق، ص ١٥٤.
(٦) مصطفى: المرجع السابق، ص ٨٣.
(٧) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٦٢.

السلمية، وبدا كأن هناك مشروعاً للتفاوض وحقن دماء المسلمين. وعملت الديبلوماسية المملوكية ما في وسعها لترسيخ هذا الوهم في ذهن السلطان سليم مستغلة ذلك لإرباكه وإبقاء المبادرة في يد قانصوه الغوري[١].

ففي الوقت الذي خلع السلطان المملوكي على الأمير عبد الرزاق ـ شقيق علاء الدولة ـ وولاه إمارة دلغادر، أرسل كاتم سره الدوادار مغلباي ليؤكد للسلطان سليم رغبته في الصلح واهتمامه بأمر الوساطة بينه وبين إسماعيل الصفوي[٢].

قال الغوري لرسوله: «جهز نفسك واخرج واكشف لنا خبر أهل الروم وما هم عليه، وأعط هذه المكاتبة إلى ملكهم» ثم أمر عشرة من خيار العسكر بالتوجه مع مغلباي إلى معسكر السلطان سليم[٣].

ولإظهار شدة رغبته في الصلح وتجنب وقوع الحرب، أرسل سفيراً آخر هو الأمير كرتباي مع هدية حافلة للسلطان العثماني[٤]، وأوعز إلى أحد القضاة بأن يجعل موضوع الخطبة في المسجد الكبير بحلب حول الأحاديث النبوية التي تحض على عدم النفرة بين المسلمين[٥]. إلّا أنه لم يغفل عن أخذ الحيطة التي يقتضيها الوضع القائم، فجمع الأمراء وحلّفهم جميعاً على ألّا يخونوه ولا يغدروا به، واستعرضهم بعد ذلك في الميدان وهم في كامل لباسهم وسلاحهم، وأدخلهم من تحت سيفين على هيئة قنطرة كما هي العادة، وهذا معناه القسم العظيم[٦].

من جهته استقبل السلطان سليم سفراء السلطان الغوري أسوأ استقبال لأنه شق عليه إرسال وفد عسكري إليه بينما العادات تقتضي إرسال مجموعة من العلماء[٧]. ومما قاله للأمير مغلباي: «يا مغلباي أستاذك ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا. . . ؟! وإنما أرسلك بهؤلاء العشرة يرعب بهم قلوب عسكري ويخوفهم برؤية أجناده، ولكن أنا أكيده بمكيدة أعظم من مكيدته». وكاد أن يشنقه لولا شفاعة وزيره يونس باشا «فأمر بحبسه ورمى برقبة العشرة واحداً بعد واحد»[٨].

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٦٤ وابن زنبل: المصدر السابق، ص ٢٦ ـ ٢٨.
(٢) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٦٤،
(٣) ابن زنبل: المصدر السابق، ، ص ٢٦.
(٤) ابن إياس: المصدر السابق وابن زنبل: المصدر نفسه، ص ٢٨.
(٥) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٦٢.
(٦) المصدر نفسه، ص ٦٣.
(٧) المصدر نفسه، ص ٨٦ وابن زنبل: المصدر السابق، ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٨) ابن زنبل: المصدر نفسه، ص ٢٧.

وبعد يومين أمر السلطان سليم بإحضاره من السجن ثم حلق ذقنه وألبسه طرطوراً وأركبه على حمار أعرج معقور[1] وقال له: «قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق»[2].
وأرسل رساله تهديد إلى الغوري وفيها يلومه على أفعاله ويظهر له عدم خوفه منه مهما فعل، ويذكر له أنه كان متوجهاً أصلاً إلى الديار الشرقية، ولكنه عدل عن ذلك وتوجه إلى الديار المملوكية نظراً لما علم به من تحالف الغوري مع إسماعيل الصفوي[3].

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٦٨، وابن زنبل: المصدر نفسه، ص ٢٧.
(٢) ابن إياس: المصدر نفسه وابن زنبل: المصدر نفسه، ص ٢٨
(٣) متولي: المرجع السابق، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

المعارك الفاصلة بين العثمانيين والمماليك



الأساليب التي اتبعها الطرفان قبل الحرب

أما وقد أصبحت الحرب لا محالة واقعة بين العثمانيين والمماليك فقد سيطر على كل من القاهرة وإسطنبول جو محموم للحرب صوّرها كل طرف كما لو أنها كانت واجباً على كل مسلم خوضها. ولجأ كل طرف إلى تنفيذ الأساليب التي تضعف وتوهن قوة الطرف الآخر كالإتهام بخيانة الجهاد ضد أوروبا والذي كان من أقوى أساليب الدعاية، فاتهم المماليك «ملك الروم» ـ كما لقبوا سليماً الأول ـ بالإرتداد عن الدين الحنيف[1].

فقد أذاع الغوري على الناس أن السلطان العثماني قد جهّز عساكر كثيرة من النصارى والأرمن وغيرهم ليضرب بهم جند الله المجاهدين ضد البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة، الذين هددوا الأراضي الإسلامية المقدسة الحجازية[2]. ولكن يبدو أن هذا الأسلوب في الدعاية لم يلق نجاحاً يذكر، ولم يؤدِ إلى إثارة الغرائز ضدهم، وخاصة بين أهل الشام كون هؤلاء عانوا كثيراً من جراء ما ارتكبه الجيش المملوكي من منكرات وتجاوزات في مناطقهم، إضافة إلى أن الاتهام لا يستند إلى أي دليل مادي واضح، بل الذي كان شائعاً هو أن العثمانيين ومنذ قرون مضت، عاشوا مجاهدين ضد الفرنجة، ولم يتأخروا عن إمداد المماليك أنفسهم بالمواد والفنيين اللازمين لقتال البرتغاليين[3].

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٥١ وإيفانوف: المرجع السابق، ص ٦١.

(٢) ابن كنان: المصدر السابق، ص ١٩٤.
Stripling: op. cit, p. 45.

(٣) استمر العثمانيون بإرسال المساعدات العسكرية اللازمة للمماليك لقتال البرتغاليين حتى في السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب العثمانية ـ المملوكية الثانية.

اللاجئين إليه والمتعاونين معه من المماليك، أكثر من إفادة السلطان الغوري من اللاجئين إليه من العثمانيين. فرجال المماليك الذين استطاع العثمانيون جذبهم إلى صفهم، كانوا من ذوي المناصب العليا وكبار القادة، في حين أن اللاجئين العثمانيين إلى بلاط الغوري كالأمير قاسم ـ البالغ من العمر ثلاث عشر سنة ـ كانوا يمنحونه فقط قوة معنوية ودعائية[1]، بالإضافة إلى أن التفكك الداخلي في الدولة المملوكية ولا سيما في صفوف الجيش[2]، كان يعطي السلطان العثماني فرصاً أفضل للإفادة المثمرة، على عكس الجبهة الداخلية العثمانية الصلبة التي كان يسيطر عليها السلطان سليم الأول بمحبة جنده وخوفهم منه، لما عرف عنه من قسوة بالغة في معاملة المتمردين عليه[3].

بل ومن المفارقات المثيرة في سياسة الغوري، أنه لم يكن يعلم الصديق والناصر من الخائن: فسيباي ـ نائب الشام ـ عندما أسرَّ له عن خيانة خاير بك، لم يأخذ السلطان هذا الاتهام على محمل الجد والخطورة لأنه كان يستبعد مثل هذه الخيانة من خايربك. في حين كان يتخوف من سيباي نفسه ويظن أنه يسعى إلى أن يحل محله، مستنداً على ما قاله رجال الطالع بأن من يتولى السلطنة بعده ـ يبدأ اسمه بحرف السين ـ فظنّ أنه سيباي[4]، مع العلم أن هذا الأخير هو من أوائل من قتلوا لاحقاً في معركة مرج دابق دفاعاً عن المماليك.



معركة مرج دابق ـ سقوط بلاد الشام
٩٢٢هـ/١٥١٦م

استشاط الغوري غضباً ممّا سمعه من رسوله مغلباي الذي وصل المعسكر المملوكي وهو بحالة يرثى لها، ومن رسالة التهديد الشديدة اللهجة التي أرسلها إليه سليم. فتحرّك على رأس جيشه من «برو»، التي كان وصلها في ٢ رجب من العام

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٢) على سبيل المثال عندما أقدم قانصوه الغوري على الحرب واستحلف الأمراء وكبار العلماء والقضاة والمماليك على الطاعة من جديد ووزع عليهم الهدايا فانقسم إذ ذاك المماليك فريقين: فريق راض وهو المماليك السلطانية أو الجلبان الذين نالوا فضلاً عن مرتباتهم الهبات، وفريق ساخط وهو المماليك القراصنة الذين لم تصل إليهم هبات الغوري، انظر ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٦٣.

(٣) Stripling: op. cit, p 46.

(٤) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ١٧.

٩٢٢ هـ/١٥١٦م، باتجاه الشمال وعسكر في مرج دابق[١]، على بعد مسيرة يوم واحد من حلب، وهي المدينة التي كان الغوري قد أوعز إلى جنوده بترك كميات كبيرة من السلاح والأموال في قلعتها الحصينة، والتي كان العسكر قد لعن فيها من قبل السكان من جراء ما ارتكبوه من منكرات وفساد. فلقد أخرجوا الأهالي من بيوتهم بوحشية ونهبوا أموالهم وتعرضوا لأعراضهم[٢]، الأمر الذي أساء إلى المماليك كل الإساءة، وكان له عواقب وخيمة بالنسبة لهم، «وكان ذلك سبباً فيما بعد لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة»[٣].

في هذه الأثناء وعلى الطرف الآخر، كان الجيش العثماني بقيادة سليم قد ترك ملطية، وتحرك باتجاه الجنوب الغربي، فأخذت المدن المملوكية تتهاوى بيده تباعاً الواحدة تلو الأخرى بطريقة عجيبة ومتسارعة، « وملك عسكر ابن عثمان قلعة ملطية وبهسنا وكركر وعينتاب... وغيرها من القلاع»[٤]، وما إن وصلت طلائع الجيش العثماني إلى «تل حبش» بالقرب من مرج دابق، حتى عسكرت فيه ونودي بأن المعركة سوف تنشب غداً.

لقد استنزفت المقاومة المملوكية حيويتها في المناطق الشمالية لبلاد الشام من خلال فرار عدة قواد من الرسميين الكبار أمثال يونس بك ـ حاكم عينتاب ـ الذي مال إلى جانب العثمانيين، ومن خلال نفور السكان في هذه المناطق من دعم وإسناد الجانب المنهار لقوى المماليك المتداعية، لمّا بلغهم ما فعلوه في حلب وأهلها[٥].

وعبأ كل عاهل جيشه استعداداً للقاء العسكري الحاسم، الذي بدأ في صبيحة يوم ٢٤ رجب ٩٢٢ هـ/١٥١٦م[٦].

كان جيش المماليك وفق ما صوّره لنا المؤرخان ابن إياس وابن زنبل على

---

(١) متولي: المرجع السابق، ص ٦٤.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٤٢ ـ ٦٥ وابن زنبل: المصدر السابق، ص ٢٦.
(٣) ابن زنبل: المصدر نفسه، ص ٢٥.
(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ص ٢٨.
(٥) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٢٨ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ١٢١.
(٦) يذكر المؤرخ ابن طولون هذا التاريخ انظر مفاكهة الخلان، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤ وقد عاصر ابن طولون الحادث وكان يكتب في دمشق القريبة بينما يذكر المؤرخون المعاصرون مثل ابن إياس في بدائع الزهور، المصدر السابق، ج٥، ص ٦٨ ـ ١٢١ ان المعركة حدثت في ٢٥ رجب. ويؤيد ابن إياس في ذلك الغزي في الكواكب السائرة، المصدر السابق، ج١، ص ٢٩٧ اما ابن زنبل فيذكرأن القتال بدأ في ٢٣ رجب.

النحو التالي: «برز الغوري للقتال في موكبه على صهوة جواده، وعلى يمينه الخليفة المتوكل، وحول السلطان طائفة من الأشراف وجماعة من الفقراء، ومن ورائهم جماعة من مشايخ الطرق الصوفية، وكان الصبي قاسم بك بن أحمد بك ابن عثمان ـ المقدم ذكره ـ واقفاً بإزاء الخليفة. وعلى بعد عشرين ذراعاً خلف الغوري رفرف العلم السلطاني، ومشى تحته مقدم المماليك والقضاة الأربعة وأمير زردكاش، وعلى رأس الميمنة سيباي الطيب، وعلى الميسرة الخائن خايربك نائب حلب، وتولى سودون العجمي أتابك العساكر»(١). وكان ابن معن وأمراء جبل الشوف بصحبة خاير بك والغزالي(٢).

أما الجيش العثماني فقد كان كالعادة المألوفة، حيث أن الجناحين كانا مربوطين من اليمين ومن اليسار بألوية قائد الجناح الأيمن الصدر الأعظم سنان باشا، ومعه أمراء الأناضول وقرمان ودلغادر ورمضان، وقائد الجناح الأيسر الوزير يونس باشا، ومعه أمراء الرومللي والروم وديار بكر وغيرهم، وكان السلطان سليم في الوسط ومعه سائر البكوات، وعساكر الإنكشارية(٣).

كان السلطان العثماني أكثر ما يخشاه فرسان المماليك، فوزّع قواته ومدفعيته بحيث تستطيع الاختباء في أي لحظة خلف سلاسل من العربات المتصلة بعضها ببعض وخلف حواجز من الأشجار والأخشاب، لمقاتلة الجيش المملوكي من هناك.

في مرج دابق وفي موضع يعرف بتل الغار، اصطدم الجيشان العثماني والمملوكي في معركة تعتبر من إحدى أكبر معارك التاريخ العالمي(٤). وقد عبر ابن زنبل عن ذلك بقوله: «لم نر في التواريخ القديمة والحديثة وقعة مثل هذه الوقعة، ولا اجتمع فيها مثل هذين العسكريين ولا أكثر عددا»(٥).

بدأت المعركة ببروز قائد القلب الأتابكي سودون للقتال ومن بعده سيباي، واستهلت بهجوم خاطف عنيف أسفر عن صد هجمات فرسان العثمانيين وقتل قرابة

---

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٦٨ ـ ٦٩ وابن زنبل: المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١. أمير زردكاش هو رئيس صناع الأسلحة.

(٢) الشهابي، الأمير حيدر أحمد: لبنان من بداية الدولة العثمانية إلى مطلع عهد الأمير بشير الشهابي الثاني، تعليق د. مارون رعد، دار النظير عبود، ١٩٩٣م، ج٣، ص ٧٣٨.

(٣) متولي: المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٤) Stripling: op. cit, p47.

(٥) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٣٣.

عشرة آلاف منهم[١]، إلّا أنهم لم يتمكنوا بعد ذلك من تجاوز الحواجز الخشبية وسلاسل العربات، ووقعوا هدفاً لنيران الإنكشارية[٢].

وممّا زاد في تأزم الوضع مقتل كل من سودون الأتابكي وسيباي وفرار جنودهما على أثر ذلك، وفرار كل من خايربك وجان بردي الغزالي من جيش الغوري[٣]، وامتناع الأمير فخر الدين المعني الاول ومن معه من الرجال عن القتال، [٤] ولم يبق في ساحة المعركة إلّا الأشرف الغوري مع مماليكه الجلبان الذين لم يكونوا قد اشتركوا في المعركة[٥]، حينئذ سارع العثمانيون إلى الهجوم. وبحلول فترة الظهيرة بدا أن المماليك مهددون بالحصار، فجفلت عساكرهم ولم يصمدوا أمام مدفعية الجيش العثماني المتفوقة، فلاذوا بالفرار لا يلوون على شيء[٦]. ولمّا تأكد انتصار العثمانيين، انتحر السلطان المملوكي بتناوله السم، فوقع عن حصانه، بعد أن فقد وعيه ومات على الفور[٧].

وقتل في هذه المعركة عدد كبير من أتباع الغوري، وقد تناثرت أشلاء القتلى والجرحى في أماكن عديدة[٨]. وبلغ عدد الأسرى أكثر من ألفين، جزت رؤوسهم جميعاً[٩]، ولم يبق السلطان سليم إلّا على الخليفة العباسي وقضاة المذهب الشافعي والحنبلي والمالكي، واصطحبهم معه أثناء فتح مصر، ولم يتمكن من الفرار إلّا قاضي المذهب الحنفي[١٠].

كان نبأ هزيمة المماليك في مرج دابق مؤشراً لاندلاع انتفاضة شعبية ضدهم

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٦٩.

(٢) إيغانوف: المرجع السابق، ص ٦٣.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٦٠ والغزي: المصدر السابق، ج١، ص ١٦٨ وابن زنبل: المصدر السابق، ص ٣٥.

(٤) الشهابي: المرجع السابق، ج٣، ص ٧٣٨.

(٥) زقلمة: المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٦) ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤، وابن كنان: المصدر السابق، ص ١٩٥ Shaw: op. cit, p 84.

(٧) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٧٠ ـ ٨٧.
يورد ابن زنبل في المصدر السابق، ص ٣٦ رواية مفادها أن الغوري عندما علم نتيجة المعركة أصابه حزن شديد فوقع عن حصانه ومات من شدة قهره. أما ابن طولون في المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤، فيقول بأن الغوري دعا بماء فشرب وأغمي عليه، ثم سقط ميتاً بالقولنج.

(٨) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩.

(٩) متولي: المرجع السابق، ص ١٧١.

(١٠) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٤٧ ـ ١٦٥.

في حلب، حيث هاجم السكان الحامية المملوكية وقضوا عليها، ثم أقفلوا بوابة المدينة في وجه فلول المماليك الهاربة، التي ما إن حاولت الدخول إلى المدينة لالتماس المساعدة واستعادة الودائع، حتى تعرض أفرادها للقتل والنهب[١]. وجرى على المماليك في حلب ما لم يجر عليهم في مرج دابق، فالسكان أظهروا عليهم نقمة شديدة وقسوة أكبر من العثمانيين أنفسهم[٢]، انتقاماً لما فعلوه معهم في السابق عندما حلوا بحلب قبل المعركة.

ولما رأى الأمراء وبقية جنود المماليك ذلك، انتقل قسم منهم إلى جانب العثمانيين[٣]، ولاذ الباقون بالفرار[٤]، وتوجهوا إلى دمشق، وظهروا أمام سكانها في ثياب رثة وأحياناً عراة تماماً، بعضهم يسير على قدميه وآخرون على الحمير والجمال[٥]، حيث كانت تنتظرهم خيبة أمل جديدة نظراً لقيام انتفاضة شعبية أخرى ضدهم، فاضطروا إلى أن يشقوا طريقهم إلى مصر فرادى أو جماعات صغيرة، [٦] ولم يعد لجيش المماليك وجود فعلي[٧].

في هذه الأثناء دخل السلطان سليم مدينة حلب، يرافقه خايربك[٨] والخليفة العباسي[٩]، بقبول أهلها، الذين تطلعوا إليه كمنقذ لهم من جور المماليك وظلمهم؛ ووسط هتافات الترحيب. وقابله أعيان المدينة ومشايخ قبائلها وعرضوا عليه الطاعة والولاء وسلّموه مفاتيح القلعة التي كانت تحتوي على الألوف من الأموال والذخائر، التي تركها الغوري فيها[١٠]، وقرئت الخطبة باسمه في جوامع المدينة، ونودي به خادماً للحرمين الشريفين.

---

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥ ص ٧٣ وابن الحمصي: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨٨ وابن زنبل: المصدر السابق، ص ٤٠ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٥٤.

(٢) Stripling: op. cit, p 51.

(٣) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٦٣.

(٤) وكان بينهم محمد بن قانصوه الغوري وجان بردي الغزالي.

(٥) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٧٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٧) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٦٤.

(٨) ابن طولون: المصدر السابق، ص ٢٥ وابن كنان: المصدر السابق، ص ١٩٧.صار خاير بك من جملة أمراء سليم وقد سماه السلطان العثماني خاين بك لأنه خان سلطانه وأطاعه انظر ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٧٦.

(٩) متولي: المرجع السابق، هامش رقم ٣، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

(١٠) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٧٥ وابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٥ ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٣٨.

من جانبه أحسن السلطان سليم إلى العلماء وأكرم مثوى الخليفة العباسي، إلّا انه وبّخ القضاة لأخذهم الرشوة وعدم منعهم من ارتكاب المظالم بحق الناس[١].

وبعد أن أجرى السلطان العثماني التدابير اللازمة في مدينة حلب وعين عليها حاكماً من قبله، أراد أن يستثمر الانتصار الذي حققه، فاستتبع عملية الفتح للمدن الشامية، وضم حماه وحمص ثم توجه إلى دمشق. وكان السكان يرحبون به ويحتفون بمقدمه بصورة لم يألفها أي سلطان عثماني من قبل. وفي هذا إشارة إلى حالة النفوس والانسحاق التي كان يعانيها السكان في الأيام المملوكية[٢].

عندما وصل السلطان سليم إلى أطراف مدينة دمشق، أرسل الرسل إلى المدينة طالباً تسليمها، فوافق العلماء ومشايخ الحارات على ذلك[٣]، نظراً لانتشار الفوضى فيها بسبب استيلاء الزعر على السلطة، على أثر هروب بعض أعيان دمشق بنسائهم وأولادهم من المدينة مع المماليك[٤]. وكان هدف هؤلاء الذين ألقيت عليهم المسؤولية، حماية البلد من النهب، لا سيما وأن حكم المماليك الفاسد وتصدي جنودهم إلى الأهالي لم يكن فيه ما يجعلهم يدافعون عنه، وخاصةً بعد فشل المماليك عسكرياً[٥].

وهكذا فقد دخل السلطان العثماني دمشق في١١رمضان ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م، وسار في شوارعها المفروشة بالحرير وسط احتفالات مهيبة، وخطب في الجامع الأموي، واستقبل وفوداً من طرابلس والبقاع وبيروت وصيدا وغيرها من مدن الشام، التي سارعت إلى تقديم ولائها له. ووصل إلى دمشق الأمراء الدروز من جبل لبنان الذين انحازوا إلى جانب العثمانيين. ومقابل الاعتراف الشكلي بالتبعية لهم، احتفظوا لأنفسهم بالحكم الذاتي الداخلي[٦].

وأدخل السلطان سليم بضع تنظيمات وإصلاحات خاصة بالإدارة والقضاء

---

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٧٤ ـ ١١٧.
(٢) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٦٢.
(٣) ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨ وابن كنان: المصدر السابق، ص ٢٠٠.
(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٨٤ ـ ١٠٦.
(٥) ابن طولون: المصدر السابق وابن كنان: المصدر السابق.
(٦) من الأمراء الدروز الذين انحازوا إلى جانب العثمانيين الأمير فخر الدين المعني والأمير جمال الدين اليمني والأمير عساف التركماني وغيرهم من أمراء البر انظر الشهابي: المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٤٠.
Stripling: op. cit, p51.

والعلماء والشؤون المالية، كما أجرى إحصاء للسكان والممتلكات في المدينة، وألغى القيود المذلة المفروضة على السكان المسيحيين واليهود وتجار البندقية، وسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحرية.

وهكذا فبسقوط مدينة دمشق، أصبح السلطان سليم سيداً على بلاد الشام كلها(١)، وبهذا يكون قد حقق وخلال فترة قصيرة، أهداف الحرب بكاملها؛ الحاق الهزيمة بالمماليك وبسط الهيمنة العثمانية على بلاد الشام.



أسباب هزيمة المماليك وانتصار العثمانيين

إن ثمة من يرى في انتصار المماليك في بدء المعركة، لم يكن إلّا خطة عسكرية طبقها السلطان سليم، وكان طبقها قبل عامين مع الصفويين في جالديران، وتقضي هذه الخطة بالهجوم والتقدم أولاً، ثم بالتراجع حتى يصبح الجيش المعادي على مرمى من المدفعية والبنادق التي تعمل في الوقت المناسب، ولا أدل على ذلك ممّا ورد في إحصاء لعدد القتلى(٢)، الذي بلغ ألف نفس(٣).

على أن الانكسار المملوكي كانت له أسباب أخرى:

فالخيانة لعبت دوراً بارزاً في إلحاق الهزيمة بالمماليك، إذ أن السلطان سليم نجح في استدراج المماليك إلى ساحة المنازلة بأسلوب ذكي بعد أن أمّن قنوات اتصال مع مراكز قوى في حلب، وهي المدينة الاستراتيجية التي تقف جداراً صلباً بين أكبر قوتين في المنطقة، وعلى الأخص «البلاد الشامية»(٤).

فنائب المدينة خايربك كان يعمل علناً لصالح العثمانيين(٥)، وساهم في

(١) Ibid, p52.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(٣) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٤) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٦٠.

(٥) رافق: بلاد الشام ومصر، ص ٩٩.إن خيانة خاير بك مبعثها خوفه على حياته فقد أخذ الغوري منذ أن تولى العرش يتتبع القرانصة وذوي الشوكة والقوة من أمراء الجراكسة فيقتلهم واحداً واحداً ومن يعد منهم كخاير بك كافل حلب صار يخشى منه أن يدس إليه سماً فيقتله كما قتل أخاه قانصوه بن مالباي من قبل وأخذ ماله ظلماً انظر متولي: المرجع السابق، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

تثبيط عزائم الجنود عندما أشاع، قبل موت الغوري، إشاعة مؤداها أن السلطان المملوكي قتل[١].

واتهم جان بردي الغزالي فيما بعد بأنه كان متواطئاً مع العثمانيين في مرج دابق[٢]. ويقال بأن الغوري قد خانه لأول الأمر ثلاثة عشر ألفاً من جيشه وامتنعوا عن الحرب عند الصدمة الأولى وأبوا قتال العثمانيين[٣] ومن هؤلاء الأمير فخر الدين المعني الأول ومن معه من رجاله، حيث فضل أن يقف موقف المتفرج ليتخذ بعد انتهاء المعركة الموقف الذي يتناسب مع مصالحه[٤]. وقد عبر ابن زنبل عن هذا الأمر بقوله: «ولم يقاتل في هذا اليوم من المماليك أكثر من ألفي فارس»[٥].

على أية حال عندما نذكر الخيانة ودورها الفاعل يصبح ما هناك من أسباب أمراً ثانوياً[٦]. فالجيش المملوكي لم يكن أقل عدداً من الجيش العثماني فحسب[٧]، بل افتقر إلى الخبرة القتالية بسبب توقف المماليك عن الفتح وعدم تعرض بلاد الشام ومصر لغزوات كبرى من جهة، ولمحافظة الجيش المملوكي على التقاليد القديمة في الفروسية والقتال وعدم محاولة السلاطين تطوير هذا الجيش مع تطور تسليح الجيوش في ذلك الوقت من جهة أخرى. وافتقر أيضاً إلى الوحدة في التشكيل، فقد تألف هذا الجيش من المماليك الذين رافقوا السلطان

---

(١) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٣٥.

(٢) إن خيانة جان بردي الغزالي موضع خلاف كبير بين المؤرخين يقول البعض أن خيانته بدأت في معركة مرج دابق ويقول البعض الآخر أنها بدأت بعد معركة مرج دابق مباشرة وعلى الأرجح أنه ظل مخلصاً حتى معركة الريدانية، ولما رأى أن الفشل واقع بالمماليك حتماً وخاصة عندما علم أن طومان باي آخر سلاطينهم قد أرسل إلى السلطان سليم في ١٧ محرم يطلب الصلح، أدرك أن السلطان المملوكي لم يعد يتمتع بقوة تؤهله لمقاومة العثمانيين مرة أخرى عندها انحاز إلى جانب العثمانيين في ١٨ محرم ٩٢٣ هـ انظر موير: المرجع السابق، ص ١٩٥. عن تاريخ انضمامه إلى العثمانيين انظر ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٥٩.

(٣) كردعلي: المرجع السابق، ج٢: ص ٢٠٩.

(٤) الشهابي: المرجع السابق، ج٣، ص ٧٣٨.

(٥) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٣٣.

(٦) زيادة، نقولا: الفتح العثماني لبلاد الشام وآثاره المباشرة، مجلة الإجتهاد، العدد الرابع والأربعون، ١٩٩٩ م، ص ١٤.

(٧) يذكر ابن طولون أن السلطان سليم، وصل إلى دمشق في عساكر عظيمة لم تر العين قبلها ويقال أن عدتها مائة ألف وثلاثين ألفاً انظر ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص٣٠ أما السلطان الغوري فقد أتى من حلب إلى مرج دابق في ثلاثين ألف مقاتل انظر دهمان: المرجع السابق، ص ٢٥٨.

الغوري عند خروجه من مصر مع مماليك نواب بلاد الشام ـ غزة ـ صفد ـ دمشق ـ طرابلس ـ حماه ـ حلب، عدا عن أن التنافس والبغضاء التي كانت تدب بين فرق الجيش الذي تألف من المماليك الجلبان والمماليك القرانصة ومماليك الأمراء والنواب. وكان الغوري قد أكثر من المماليك الجلبان، وكان يميزهم بالأعطيات على القرانصة رغم قلة خبرتهم لحداثة سنهم[(١)]. وقد رمى في لظى المعركة بمماليك السلاطين المتقدمة بقصد إضعافهم، وذلك في محاولة منه لضمان السيطرة في النهاية لأجلابه[(٢)].

وممّا رواه ابن إياس أن السلطان المملوكي قال لمماليكه الجلبان: «لا تقاتلوا شيء وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم»[(٣)].

ولم يفت ذلك عن القرانصة، فتغيرت نيتهم حين علموا به[(٤)]، وممّا قاله هؤلاء: «نحن نقاتل بأنفسنا مع النار، وأنت واقف تنظر إلينا كالعين الشامتة، ما تأمر أحداً من مماليكك يخرج للميدان»[(٥)].

وهنا لا بد من التنويه إلى هذا الأمر، لو أن السلطان الغوري قد أمر مماليكه الجلبان بالقتال في ساحة المعركة إلى جانب القرانصة، لعزّز ذلك الروح المعنوية عند أفراد الجيش المملوكي، ولربما تغير مجرى الأحداث[(٦)].

بالمقابل كانت الجيوش العثمانية جيدة التسليح والتجهيز، وتعتبر من أحسن جيوش العالم حينذاك[(٧)]. لقد طبقت الأساليب التكتيكية الحديثة، فلجأت إلى تدعيم مواقعها بواسطة قلاع متحركة تشكلت من عربات مربوطة بعضها بالبعض الآخر. وامتازت المعدات المقاومة للخيالة كالشوكات والخطافات الحديدية المربوطة بالحبال، بأهمية كبيرة في محاربة المماليك، إذ كان الجنود العثمانيون يطلقون هذه الأدوات على فرسان المماليك المدججين بالسلاح ويلقونهم أرضاً.

(١) دهمان: المرجع نفسه، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠. حول موقف مجتمع المماليك العسكري من الأسلحة النارية انظر الخادم: المرجع السابق، ص ٥٠٣ وما بعدها.
(٢) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٣٣.
(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٦٨ ـ ٧٣.
(٤) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ٦٨ ـ ٧٣ وابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣ ـ ٢٤ وابن زنبل: المصدر السابق، ص ٣٣.
(٥) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٣٣.
(٦) Stripling: op. cit, p 47.
(٧) أوزتونا: المرجع السابق، ج٢، ص ٣٧٤ ـ ٣٨١ ونوار: المرجع السابق، ص ٨٩.

كان العثمانيون كذلك يمتلكون أفضل مدفعية في العالم آنذاك، فقد استخدمت جيوش سليم الأول أحدث المدافع النحاسية المركبة على عجلات، يجر الواحد منها زوج من الثيران. ورغم أن جنود الجيش العثماني كانوا ينتمون إلى مختلف القوميات والطوائف الدينية، فقد عرف هذا الجيش المكون من إنكشارية وسباهية (فرسان) بانضباطيته الجيدة وتماسكه المعنوي[١]. فكان يجمع بين جميع أفراده الشعور بالولاء العميق للسلطان، بحيث أن كل فرد من فرق الجيش يأخذ مكانه بأوامر تصدر من السلطان، الذي يعتبر المحور الرئيسي الذي ينظم جميع عمليات التشكيل التي تتم في المعركة[٢]، وذلك بفضل سعيه الحثيث إلى تأمين حاجات الجند والضباط الكافية لمواجهة متطلبات الحرب، [٣] بالإضافة إلى أن الفساد لم يكن قد دبّ في الجيوش الإنكشارية بعد، فكانوا عنصراً فعالاً في القتال وأحسنوا استخدام الأسلحة النارية الجديدة[٤].

يضاف إلى ذلك باختصار، أن الدولة العثمانية أنذاك كانت في أوج قوتها، تخرج من ظفر إلى ظفر، وكان انتصار قواتها قبل فترة وجيزة في جالديران، بقدر ما كان مثبطاً لهمة المماليك، كان مشجعاً للعثمانيين على القتال[٥].



٤

معركة الريدانية ـ سقوط مصر والحجاز

٩٢٣ هـ/١٥١٧م

عندما بدأت أخبار هزيمة المماليك في مرج دابق تصل إلى القاهرة، اضطربت الأوضاع الداخلية، وتزايدت في رمضان مع وصول عدد من العساكر والأمراء المهزومين ومن استطاع الهرب من القضاة وأصحاب المناصب الرفيعة[٦].

---

(١) أوزتونا: المرجع السابق، ج٢، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ ـ ٣٨٦ ـ ٤٠٥ وإيفانوف: المرجع السابق، ص ٦٠.
Stripling: op. cit, p 47.

(٢) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٢٨ والشناوي: المرجع السابق، ص ٥٢.

(٣) Stripling: op. cit, p 46.

(٤) Shaw: op. cit, p 83 - 84.

(٥) رافق: المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٨٤ ـ ١١٦.من بين الهاربين وصل القاضي الحنفي محمود بن الشحنة إلى القاهرة وقد نهبت جميع أغراضه.

فقام البدو بنهب بعض القرى وقتل الفلاحين وعدد كبير من التجار والجند[(١)]، وخرج المماليك من الطباق[(٢)]، ولم يكونوا قد اشتركوا في القتال بعد، وقد غضبوا لمقتل الغوري فعمدوا إلى حرق الأسواق التجارية، التي فيها رعايا أجانب، لا سيما أسواق الروم، بحجة أنهم أعوان السلطان العثماني[(٣)].

لقد حل بسكان القاهرة الضرر الكبير، وخاصة أن أخبار كارثة مرج دابق وصلت مصحوبة بأنباء زحف السلطان العثماني على بلاد الشام في طريقه إلى مصر، وأشيع أن عدة مراكب لهم أرست في ثغر الإسكندرية نحو رشيد[(٤)].

كان الموقف حرجاً في القاهرة ويتطلب إجراءً عاجلاً وسريعاً وذلك من أجل تدعيم القوة الدفاعية للصمود أمام الزحف العثماني المرتقب. فاجتمع المماليك الذين عادوا إلى مصر لدراسة الموقف الناتج عن الهزيمة ولاختيار سلطان جديد يتولى أمر القيادة: فأجمعوا على ترشيح الأمير طومان باي[(٥)] لتولي السلطنة، بل أجبروه على أن يوافق على انتخابه سلطاناً وذلك في رمضان٩٢٢ هـ/١٥١٦م. وكان رفض هذا الطلب في بادئ الأمر بسبب الانقسامات الخطيرة في صفوف المماليك بين مؤيد له ورافض ـ فالقرانصة وقع اختيارهم عليه في حين أن الجلبان رفضوا هذا الاختيار وتمسكوا بابن الغوري الذي كان لا يزال طفلاً صغيراً ـ بالإضافة إلى الضائقة الاقتصادية التي كانت مصر تعاني منها، فخزائن المال كانت خاوية ولا يملك ما ينفقه على الجند[(٦)].

من الواضح أن طومان باي ورث تركة مثقلة وتولى السلطنة في ظرف لا يحسد عليه حاكم، وكان أقل ما ينتظره عندما تولى الحكم أن يجد تعاوناً من المماليك بعد أن ضحى وقبل منصب السلطنة في تلك الظروف، ولكن من المؤسف أن المماليك في ذلك الظرف العصيب أظهروا الكثير من الاستهتار والاستهانة بالموقف. فعلى سبيل المثال فقد ردوا النفقة التي تسلموها منه، وبلغ السفه والحمق ببعضهم أن قالوا على مسمع منه: «إن كنت تعمل سلطاناً فامش على طريقة من تقدمك من السلاطين وإن رحت لعنة الله عليك، وغيرك يجي يعمل

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥ ص ٧٩ ـ ٨١ ـ ٨٢ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٠.
(٢) هي المدارس الحربية المملوكية. انظر الحنفي: المصدر السابق، ص ١٦٩.
(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٨٢ ودهمان: المرجع السابق، ص ٢٧٠.
(٤) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ٨٣.
(٥) لُقب بلقب الأشرف وهوآخر سلاطين المماليك في مصر والشام.
(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ٨٥ ـ ١٠٣.

سلطاناً»[١]. لم يستطع طومان باي أن يعمل شيئاً سوى تأنيبهم على هذا الموقف المتخاذل وترضيتهم[٢].

وفي هذا إشارة إلى أن المماليك قد وصلوا في ذلك الدور إلى درجة من الانحلال أعمتهم عن رؤية الخطر المحيط والمحدّق بهم[٣].

على أية حال، في هذه الأثناء وصلت بعثة عثمانية إلى القاهرة، اقترحت على المماليك تقديم الولاء إلى السلطان العثماني، وفي حال استجابتهم للاقتراح يعهد إليهم بإدارة مصر حتى مدينة غزة، نيابة عن سليم الأول، على أن يضرب اسمه على السكة ويخطب باسمه على المنابر وتدفع له الضريبة السنوية[٤].

فيما يبدو أن السلطان سليم وبعد انتصاره في مرج دابق، أراد أن يوقف الحرب مع المماليك وألّا يستمر في زحفه على مصر، وذلك لعدة اسباب:

- لقد حطم إمكانية التحالف بين الصفويين والمماليك باحتلاله بلاد الشام، وفي هذا فوائد عسكرية ودينية كثيرة.

- إن حملته على مصر ستعرّضه لمخاطر اجتياز سيناء وبما في ذلك خطر هجوم البدو عليه، وامتداد خطوط مواصلاته[٥].

- إن توغل العثمانيين في مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استجماع قوتهم، وإعادة تهديد مناطق العثمانيين.

- إن احتلال العثمانيين لمصر سيترتب عليه التزامات دفاعية جديدة، ويجعلهم وجهاً لوجه أمام الخطر البرتغالي في البحر الأحمر.

ولهذه الأسباب مجتمعة، فاوض السلطان العثماني طومان باي سلطان المماليك الجديد، على الخضوع له، وعين في الوقت نفسه جنداً كثيراً إلى غزة والقدس والمناطق المجاورة، للمحافظة على سلامة الحاج، ولرؤية ردة الفعل لدى مماليك مصر[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٦ ـ ١٢٨.
(٣) عاشور: سعيد عبدالفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ص ٢٨٠.
(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ وابن زنبل: المصدر السابق، ص ٥٢.
(٥) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٥١ ـ ٥٤.
(٦) ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ورافق: المرجع السابق، ص١٠٣ ـ ١٠٤.

كان طومان باي من جانبه يعلم أن مقاومة العثمانيين لن تجدي نفعاً، ويعرف تماماً المصير الذي ينتظره هو ودولته، لكنه وتحت إلحاح أمراء المماليك وعلى كره شديد منه، اضطر إلى رفض عرض التبعية للسلطان سليم، وقتل المماليك رسل العثمانيين الذين حملوا العرض إلى مصر(١).

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذا الرفض ليس بالأمر الغريب، نظراً لتألم المماليك من انكساراتهم، ولأن قبولهم العرض العثماني يعني مساهمتهم في القضاء على سلطنتهم، ولكن الغريب حقاً هو استمرارهم على انقساماتهم، وهذا ما عبر عنه طومان باي بقوله: «وليس فيهم أحد مع أحد» واعتدادهم بفروسيتهم رغم ما قاسوا في سبيل ذلك من انكسارات، وعدم اعترافهم بفعالية رصاص العثمانيين(٢).

وبما أن استئناف الحرب بين الطرفين قد أصبح أمراً حتمياً، فكان لزاماً على طومان باي أن يبذل كل ما في وسعه من جهد في سبيل تنظيم قواته للدفاع عن البلاد. وتمكن في فترة قصيرة، من جمع فصائل المماليك وتجهيزها، كما شكل فصائل من المرتزقة، وضمن تأييد شيوخ البدو بما بذل لهم من المال(٣)، وحاول اقتباس أحدث المنجزات العسكرية. ولكن عندما طلب شراء عدداً من المدافع من البندقية(٤)، أظهرت هذه الأخيرة كعادتها، عدم رغبتها في مساعدة سلطنة المماليك عسكرياً، وبالتالي أحجمت عن نقل التطور التكنولوجي المتوفر لديها إلى هذه السلطنة(٥).

على أية حال ومن جانبه، راهن طومان باي على حرب طويلة وعنيفة مع العثمانيين، وهو من أجل ذلك كان ينوي انهاكهم على ما يبدو في معارك صغيرة، وللشروع بالحرب قرر قطع كل اتصال له مع العثمانيين. وتحقيقاً لهذه الغاية، حاول الاتصال مجدداً بالشاه إسماعيل الصفوي لاقناعه بالهجوم على حلب(٦)، وأرسل جيشاً بقيادة جان بردي الغزالي إلى غزة(٧)، غير أن طلائع الجيش العثماني، بقيادة سنان باشا ـ أحد أفضل القادة العثمانيين ـ تمكنت بمساعدة بدو

---

(١) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٥٣ ـ ٥٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٣.
(٣) ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥.
(٤) برجاوي: المرجع السابق، ص ٩٧ ـ ٩٨.
(٥) الخادم: المرجع السابق، ص ٥٣٠. كانت البندقية قد رفضت سابقاً تقديم المساعدة العسكرية لدولة المماليك. انظر البحث، ص ١٥٩.
(٦) Stripling: op. cit, p52.
(٧) ابن زنبل: المصدر السابق، ص٥٥. تعتبر غزة مفتاح مصر من الشمال.

سيناء، من إلحاق هزيمة منكرة بالمماليك في معركة قرب بيسان في فلسطين في ٢ ذي الحجة[١]، وأسر الغزالي ولكنه تمكن من الفرار[٢].

ويعود سبب هزيمة المماليك في هذه المعركة إلى أن « مماليك الغوري هم الذين أخنوا بالعسكر وبادروا بالهروب حتى وقعت هذه الكسرة الثانية» على حد تعبير ابن إياس[٣].

وإزاء التصرف المملوكي، وبإلحاح من خايربك على السلطان سليم للتوجه إلى مصر طمعاً بحكمها من قبل العثمانيين، وخوفاً على حياته إذا لم يقض على السلطنة المملوكية[٤]، لم يجد سليم مفراً من إكمال مهمته، لذلك وبعد احتلال الجيش العثماني لمناطق غزة والقدس، وانعدام المقاومة الشعبية له[٥]، قرر غزو مصر. وبالفعل فإن وجود قوة معادية للسلطان العثماني في مصر من شأنه أن يهدد حكمه في بلاد الشام[٦]

من جهته، عندما علم طومان باي بتحرك العثمانيين باتجاه الأراضي المصرية[٧]، حاول أن يقنع أمراءه بمباغتتهم عند الصالحية[٨]، ذات الأهمية الاستراتيجية، حيث تلتقي الصحراء بالدلتا، وحيث يكون العثمانيون قد أنهكهم عبور صحراء سيناء[٩]، ولكنهم أصروا على الوقوف عند معسكر الريدانية خارج القاهرة مباشرة. وعبثاً حاول السلطان إقناعهم بالسفر إلى الصالحية، فكانت إجابتهم «ما يقع بيننا وبينه قتال إلا في الريدانية»، ولو أنهم أطاعوه «لكان عين الصواب» على حد تعبير ابن إياس[١٠]. وإزاء الوضع الناشئ لم يسع طومان باي

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١١٨ ـ ١٢٨ وابن زنبل: المصدر نفسه، ص ٥٦ ـ ٥٧ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.لقد جرت المعركة في مكان يعرف بخان يونس.

(٢) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ١٢٩ وابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٤ ـ ٤٥ وابن زنبل: المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٣) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(٤) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٤.

(٥) أرسلت صفد مفاتيح قلعتها للسلطان سليم وهو في دمشق انظر ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٣ وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٢٦.

(٦) رافق: المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٧) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٣٦.

(٨) اسم محلة كبيرة في القاهرة انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٩) رافق: المرجع السابق، ص ١٠٦.

(١٠) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٣٩ ـ ١٤٥.تعرف الريدانية الآن بالعباسية.

إلا أن يحصن الريدانية، فحفر خندقاً على طول الخطوط الأمامية، اعتقاداً منه أن الجيش العثماني سيقابله وجهاً لوجه، وزرعه بالحواجز المضادة للخيول، وشكلت العربات سداً يحمي قطع المدفعية المنصوبة هناك، كما رفعت أمامها سواتر ترابية لحمايتها[1]. وجند طومان باي في جيشه المغاربة والعبيد السود، وأخرج المجرمين من السجون ووزع السلاح عليهم، وحشد الأغنياء الذين تشكلت منهم وحدات شبه عسكرية[2]، إلّا أنه عانى من نقص في القادة العسكريين المحنكين والجنود المدربين[3]، بسبب ترفعهم بكبرياء عن اعتماد الأسلحة النارية[4].

والواقع أن هذا الجيش، الذي بلغ ثلاثين ألف مقاتل[5]، كان غير متجانس، وافتقر إلى الروح القتالية العالية. ولا أدل على ذلك ممّا قاله المغاربة للسلطان: «نحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر ونحن ما نقاتل إلّا الفرنج ما نقاتل مسلمين»[6].

في هذا الوقت وصل العثمانيون في ٢٧ ذي الحجة إلى العريش، وتقدموا عن طريق الصالحية وبلبيس[7] إلى الخانق[8]، من غير أن يلقوا مقاومة. في اليوم التالي الموافق ٢٨ ذي الحجة، وصلوا إلى بركة الحاج، وهي على مسافة ساعات قليلة من العاصمة، وعسكروا فيها[9]. والجدير بالذكر أن ولاء البدو كان عاملاً هاماً في نجاح تقدم العثمانيين، لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لكان بإمكانهم إشغال قسم كبير من الجيش العثماني في قتالهم في منطقة هم أدرى بجغرافيتها، عدا عن تهديدهم لقوافل المؤن[10].

---

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص ١٤٠ ـ ١٤٥.وقد فعل المماليك في الريدانية ما فعله العثمانيون في مرج دابق.
(٢) المصدر نفسه ج٥، ص ١١٩ ـ ١٣٧.
(٣) أوزتونا: المرجع السابق، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
Stripling: op. cit, p52.
(٤) الخادم: المرجع السابق، ص ٥٠٣.
(٥) ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥.
(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٣٧.
(٧) مدينة بمصر كثيرة الخيرات انظر القرماني: ج٣، ص ٣٢٢.
(٨) كلمة فارسية معناها بيت العبادة انظر ابن زنبل: المصدر السابق، هامش ص ٥٩.وقد وجدوا في الخانق من المأكل والمشرب والراحة من التعب انظر ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٤٢.
(٩) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ١٤٠ ـ ١٤١ ـ ١٤٢.
(١٠) رافق: المرجع السابق، ص ١٠٦.

ونشب القتال بين الطرفين في ٢٩ ذي الحجة في الريدانية، وأسفرت إحدى هجمات المماليك، عن قتل الصدر الأعظم سنان باشا، وقد قتله طومان باي معتقداً أنه السلطان سليم[1]، إلّا أن الجيش المملوكي لم يتمكن من التغلب على الجيش العثماني، الذي أبدى تفوقاً ملحوظاً في القتال وكان أكثر فطنة ومعرفة لشؤون الحرب، ودمر في إحدى مراحل المعركة المدفعية المملوكية.

وتمكن السلطان سليم، الذي أدرك طبيعة المدافع المملوكية بأنها لا تتحرك إلى الخلف بسهولة؛ وهي على عكس مدافع العثمانيين ؛من تنفيذ مناورة التفاف حول جبل المقطّم، فحاصر الجيش المملوكي، الذي تراجع تحت ضغط الأحداث العسكرية دون نظام، مخلفاً وراءه قرابة ما لا يحصى عدده من القتلى، ثم انفرط عقده وتفرق[2]. ودخل الجيش العثماني مدينة القاهرة عاصمة السلطنة المملوكية في ٣٠ ذي الحجة من العام ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م، وقرئت الخطبة باسم السلطان سليم[3].

في ليل محرم ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م، عاود طومان باي نشاطه فقام بمحاولات ارتدادية، واندفع على رأس مجموعة من المماليك، فجاء إلى القاهرة، وسدوا مداخل الطرق ومخارجها بالمتاريس، وحفروا الخنادق، وقاموا بقتل كثير من الجنود العثمانيين الذين صادفوهم، وأشعلوا انتفاضة شعبية فيها، فاندلعت المعارك في شوارع المدينة، واستمرت الاشتباكات ثلاثة أيام بلياليها في الشوارع وعلى سطوح المباني، حتى أن النساء والأطفال شاركوا في إلقاء الحجارة وقطع القرميد. غير أن ميزان القوى لم يكن متعادلاً فقد أطلق الجنود العثمانيون النار على نوافذ مباني القاهرة، وحطموا أبوابها بالمدفعية احترازاً من أن توجّه المعركة ضدهم، فاحترقت مبان كثيرة وقارب عدد القتلى الخمسين ألفاً من السكان[4].

ولما علم طومان باي أن القتال لا يجدي نفعاً، فرّ مع بعض أتباعه إلى

---

(١) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٦٢.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ «وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر» على حد تعبير ابن إياس. انظر تفاصيل المعركة عند ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص٤٤ وما بعدها وأوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.
(٣) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ١٤٨.
(٤) ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦ ـ ٤٧.
Stripling: op. cit, p54.

الجيزة[١]، وبذا أحكم العثمانيون سيطرتهم مجدداً على المدينة[٢]. في نهاية حرب الشوارع هذه، أصدر السلطان سليم نداء أعلن فيه الأمان، واصدر قراراً بأن كل من كان عنده مملوك جركسي من مماليك السلطان شنق على باب داره[٣]، فتمكن الأهالي من إلقاء القبض على العديد من المماليك، الذين كان مصيرهم الإعدام[٤].

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه إذا كانت حلب ودمشق قد نجتا من التخريب والنهب والدمار باستسلامهما إلى السلطان سليم، فإن القاهرة قد أخذت بالقوة[٥].

ولا أدل على ما تعرضت له المدينة، من جراء مقاومتها، من الرسالة التي أرسلها سليم إلى أمير مدينة دمشق وقاضي القضاة بها، وذكر فيها التخريب والسلب والنهب وإشعال الحرائق والقتل، الذي قام به عسكره[٦]. بعد إخضاع القاهرة، أخذت الإسكندرية وغيرها من مدن مصر السفلى تطارد حاميات المماليك، وأخذ سكانها يوجهون المندوبين إلى السلطان سليم الأول للإعراب عن ولائهم[٧]. من جهته هرب طومان باي إلى البهسنا في صعيد مصر، وظل يكافح بما تيسر له من وسائل، من ذلك أنه منع وصول الغلال إلى القاهرة، فوقع فيها الغلاء، والتفّ حوله كثير من البدو العربان، حتى قويت شوكته. غير أنه أدرك استحالة النصر النهائي، فأرسل إلى السلطان العثماني في ١٧محرم يفاوضه في الصلح، فرد السلطان سليم بأن أرسل إليه وفداً مكوناً من نائب الخليفة والقضاة الأربعة، للاتفاق معه على شروط الصلح[٨].

فيما يبدو، أن طومان باي فرح فرحاً لا يوصف بهذه الفرصة المناسبة لإنهاء الحرب، وكاد أن يوافق على شروط العثمانيين[٩]، والتي كان أهمها الاعتراف بسيادتهم، ودفع خراج سنوي، والدعاء للسلطان سليم في الخطبة، وسك العملة

(١) مدينة كبيرة بمصر على شاطىء نهر النيل الغربي انظر القرماني: المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٩.
(٢) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٤٧ وابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٧.
(٤) ابن إياس: المصدر نفسه، ج٥، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٥) Stripling: op. cit, p 54.
(٦) ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦ ـ ٤٧.
(٧) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٧٠.
(٨) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٦٦.
(٩) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ٨٨.

باسمه، مقابل أن يجلو بجنوده عن الديار المصرية[١]. ولكن أمراء المماليك أظهروا مرة أخرى غباوة متناهية في رفض هذه الشروط، وأقدموا على عمل جنوني بقتل جميع أعضاء الوفد ما عدا نائب الخليفة[٢]. عند ذلك لم يبق أمام طومان باي إلّا أن يتقدم لنزال العثمانيين، فجمع مجموعة من البهسنا، وتقدم بهم حتى وصل الجيزة. وأراد سليم مرة أخرى تسوية الأمور مع المماليك بسرعة، نظراً لورود أنباء عن تحرك الشاه إسماعيل الصفوي في مناطق آمد والرها، وطرده لحاكم العثمانيين فيها، [٣] فأرسل ثانيةً أحد الأمراء العثمانيين إلى طومان باي، لعله يوّفق إلى شروط لإنهاء الحرب[٤]. ولكن ذلك الأمير لم يصل إلى مقابلة السلطان المملوكي، بل ردّ من الطريق مثقلاً بالجراح هو ورجاله[٥].

عندئذ صمم السلطان سليم على مهاجمة طومان باي، وباشر في بناء قنطرة من السفن في عرض النيل ليصل بها إلى الجيزة، وكانت جنود المماليك ترابط بغرب الهرم من جهة وردان. وهناك التقى الجيشان، في ٦ ربيع الأول ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م، في معركة حاسمة استبسل فيها الفريقان واقتتلا قتال اليأس. ورغم أن المماليك قد حققوا نصراً جزئياً على العثمانيين في بادئ الأمر[٦]، إلّا أن عوامل الخيانة ظهرت مرة أخرى، ليقض الله أمراً كان مفعولا، ففوجئ طومان باي أثناء جهوده الجبارة بهجوم البدو والأعراب على مؤخرته ممّا أوقعه بين نارين[٧].

فحلت الهزيمة بالمماليك، وفر طومان باي ملتجأ إلى صديقه الشخصي حسن بن مرعي، شيخ أحدى القبائل في قرية بوطة، لكن هذا الشيخ ضرب بقواعد الضيافة عرض الحائط وسلّم صديقه إلى العثمانيين[٨].

وعامله السلطان سليم في أول الأمر، معاملة كريمة، ولكن ما إن سرت شائعات في شوارع القاهرة تقول باختفاء طومان باي وتنظيمه لجيش جديد يقاتل به

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٧ وابن زنبل: المصدر السابق، ص ٨٨.
(٣) ابن طولون: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٨.
(٤) ابن زنبل: المصدر السابق، ص ١٠٧.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١١١.
(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٧١.
(٧) إيفانوف: المرجع السابق، ص ٧٠.
(٨) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ والحنفي: المصدر السابق، ص ٢١١.

العثمانيين، حتى أمر السلطان بقتله، حيث شنق تحت قنطرة بوابة القاهرة، على باب زويلة[١].

وهكذا، فإن دولة المماليك التي حكمت مصر وبلاد الشام، وتزعمت العالم الإسلامي طوال فترة تناهز القرنين ونصف القرن (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥١ ـ ١٥١٧م)، زالت كقوة سياسية إثر ثمانية أشهر من الاحتضار[٢]، وتغيرت خريطة الشرق الأدنى الإسلامي من أساسها.

وبصفته حاكماً شرعياً على بلاد الشام ومصر، حصل السلطان سليم على جميع حقوق سلاطين المماليك والتزاماتهم في مضمار العلاقات الخارجية، وورث السيادة على المناطق التابعة لهم في أفريقيا وشبه الجزيرة العربية[٣]. وأخذ حكام هذه البلدان الواحد تلو الآخر، يبعثون الموفدين والرسل إلى السلطان سليم للإعراب عن الولاء، والاستعداد لاستئناف العلاقات التي كانت قائمة بينهم وبين سلاطين المماليك. على أن وصول مبعوثي شريف مكة محمد أبو البركات الهاشمي، حاكم الحجاز، إلى القاهرة من بين أوائل المعترفين بالسلطان العثماني، حاكم جديد للمسلمين وحامي الحرمين الشريفين[٤]، اتسم بأهمية بالغة لدى العثمانيين، نظراً إلى أهمية الحجاز الدينية، [٥] ولكونه منطقة حيوية بالنسبة لمصر سواء من الناحية الدفاعية أو من الناحية الهجومية، وله أهمية خطيرة لمنع تسرب النفوذ البرتغالي في البحر الأحمر[٦].

وصلت بعثة أبو البركات برئاسة ولده وولي عهده أبو نهى محمد، في الخامس عشر من جمادى الآخرة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م، فقدمت التهاني والهدايا إلى سليم الأول[٧]، وسلمته مفاتيح الأماكن المقدسة والآثار النبوية الشريفة الموجودة في مكة والمدينة[٨].

---

(١) ابن إياس: المصدر نفسه، ص ١٧٦.
(٢) The applied history research group: op. cit, p2 - 3and Boulos: op. cit, v4, p545.
(٣) Stripling: op. cit, p 56.
(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٩٠.
(٥) نوار: المرجع السابق، ص ١٩٥.
(٦) أنيس: المرجع السابق، ص ١٢٨.
(٧) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، ص ١٩٠.
(٨) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٣٣ ومتولي: المرجع السابق، ص ٢٢٩.
The applied history research group: op. cit, p2 - 3.

وأغلب الظن أن شريف مكة أبو البركات، عندما أرسل إليه السلطان سليم رسالة يدعوه فيها إلى قبول السيادة العثمانية وإعلان الدعوة له، وجد من الحكمة قبول ذلك، فهو يواجه الخطر البرتغالي، وفي حاجة ماسة إلى مساعدة دولة إسلامية كبيرة[١]. ولعل لدى هذا المنتصر الفتي علاجاً لإنقاذ الحجاز من تدهوره الاقتصادي، حتى تظل أفواج الحجاج، تفد إلى مكة والمدينة سنويا، نظراً لما يحصل عليه الحجاز من وراء ذلك من انتعاش اقتصادي كبير.

ومن ناحية أخرى، كان من المتعذر عسكرياً أن يبقى شريف مكة غير معني بالتطورات الجوهرية في الشام ومصر واليمن، خاصة أن حاكم اليمن المملوكي قد خضع لسليم الأول[٢]، لذلك فقدكان عليه أن يحدد موقفه إزاء هذه التطورات الكبرى. فأشراف مكة ليسوا سوى حكام تحت السيطرة المملوكية، ولا سيما أيام الغوري، وامتناعهم عن الخضوع للسلطان سليم، بعد استيلائه على بلاد الشام ومصر، سيلفت أنظار هذا السلطان إن آجلاً أو عاجلاً، خاصة أنه كانت توجد في الحجاز حامية مملوكية في جدة، من بقايا القوات المملوكية التي بعث بها الغوري لتقوية قبضة حكمه في وجه التمردات الداخلية هناك، وفي وجه الخطر البرتغالي المهدد للأراضي المقدسة الإسلامية.

لقد تلاقت أهداف أبو البركات مع تطلعات سليم الأول التي فرضتها عليه ظروف انتصاراته في مرج دابق والريدانية، والأخطار الصليبية التي تهدد العالم الإسلامي بصفة عامة، والبحر الأحمر والأراضي المقدسة بصفة خاصة. لذلك كان دخول شريف مكة في طاعة سليم وانقضاضه السريع على القوات المملوكية في جدة وقتله حسين الكردي، قائدها المملوكي، تنفيذاً للفكر السياسي المستنير من جانب أبو البركات[٣].

بالمقابل ومن جهته، حافظ السلطان سليم على استقلال الحجاز الذاتي كاملاً، واعترف بوضعه الخاص وبالحقوق الموروثة للأسرة الهاشمية، وكرّس محمد أبو بركات أميراً على البلاد[٤].

---

(١) أنيس: المرجع السابق، ص ١٢٩.
Ibid.

(٢) أوزتونا: المرجع السابق، ج١، ص ٢٣٤.حول الاضطرابات في اليمن انظر نوار: المرجع السابق، ص ٩٨ ومابعدها.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٥ ـ ٩٦ ـ ٩٧.

(٤) متولي: المرجع السابق، ص ٢٣١.

وكان من أبرز النتائج التي استتبعت فرض السيادة العثمانية على اليمن والحجاز:

ـ ظهورالعثمانيين في البحر الأحمر ومحاولتهم السيطرة عليه ودفع الخطر البرتغالي عنه.

ـ اتخاذ اليمن بصفة عامة وعدن بصفة خاصة قاعدة الارتكاز ضد البرتغاليين في المحيط الهندي والسيطرة في البحر الأحمر، [١] بهدف عدم تحول الحجاز إلى ميدان قتال بين البرتغاليين والعثمانيين، ولإبعاد الخطر الصليبي عن الأراضي المقدسة الإسلامية[٢].

ـ محاولة إدخال النفوذ العثماني في الخليج العربي من قاعدة اليمن، لتوجيه الضربات من هناك إلى إيران نفسها، نظراً لأن السياسة العثمانية الحربية بعد معركة جالديران، كانت تقتصر على محاصرة إيران وليس الاستيلاء المباشر عليها[٣].

---

(١) حسون: المرجع السابق، ص ٦٣.
(٢) نوار: المرجع السابق، ص ٩٧ وأنيس: المرجع السابق، ص ١٣٠.
(٣) أنيس: المرجع نفسه، ص ١٣١.

الخلاصة

في ختام هذه المحاولة الدراسية التي ألقت الضوء على جانب من تاريخ الدولتين العثمانية والمملوكية وبالتحديد الجانب الذي يعنى بالعلاقة التي قامت بينهما، وما رافق هذه العلاقة من أحداث ووقائع وما تمخض عنها من نتائج، لا بدّ من وضع تقييم لاستراتيجية السلطان سليم الأول. بمعنى آخر إذا كانت الظروف الخارجية والداخلية في الدولة المملوكية قد دفعت إلى تكوين السيطرة العثمانية عليها دفعاً ذرائعياً في التاريخ، وكأن السكّان أرادوا من هذا القادم الجديد حالة خلاص جديدة على يديه، فالسؤال الذي يبقى بحاجة إلى إجابة، إلى أي مدى نجح السلطان سليم في تحقيق سياسته الشرقية التي قامت أساساً على مواجهة الخطر الصفوي ومواجهة الخطر البرتغالي؟

من خلال الرؤية التاريخية لمجمل التحرك الحربي والسياسي لقوى سليم الأول في الجبهة الشرقية من دولته وخلال ما يقارب أربع سنوات، يتوضح لنا أن السيطرة العثمانية على هذه الجبهة جاء مترافقاً مع محاور الخطوط الجغرافية ذات النقاط الاستراتيجية التي استطاع أن يسيطر عليها بالتعاقب وقد جاءت على النحو التالي:

أ ـ محاور ما بعد معركة جالديران:

- خط تبريز ـ أريفان (العاصمةالارمنية). كراباغ عام ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م.
- خط أماسيا ـ كيماخ عام ٩٢١ هـ/ ١٥١٥م.
- خط ديار بكر ـ ماردين ـ الموصل (شمال العراق) عام ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م.

ب ـ محاور ما بعد مرج دابق:

- خط حلب ـ دمشق ـ القدس ـ غزة (خان يونس): ٩٢٢ هـ/ ١٥١٧م.
- خط الريدانية ـ القاهرة ـ الاسكندرية: ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م[1].

لقد احتلت الخطوط التي أعقبت موقعة جالديران فاصلاً زمنياً مداه سنتان

---

(١) الجميل: المرجع السابق، ص ٣٤٥.

بالضبط، ويعتبر هذا الفاصل الزمني هو الجذر التاريخي للسيطرة العثمانية على دولة المماليك، كما أن كلاً من هاتين السنتين ذات أهمية بالغة في عهد سليم الأول نفسه، الذي استطاع أن يكسر خلالهما شوكة قوتين كبيرتين في آسيا الغربية:

الدولة الصفوية والدولة المملوكية ثم يسيطر على مناطقهماالاستراتيجية، ويصبغ آسيا بالصبغة العثمانية.

ونلاحظ من خلال النظرة المتأنية على محاور الخطوط الاستراتيجية الأمور التالية:

محاور ما بعد جالديران: تكمن أهمية الخط الثاني في أنه ضم أراضي إمارة دلغادر إلى الأملاك العثمانية، وهي التي كانت تشكل حجر عثرة أمام التقدم العثماني على الخط الأول.

بينما تكمن أهمية الخط الثالث في أنه ضم المناطق الكردية ذات المذهب السني وفتح الطريق أمام العثمانيين إلى الخليج العربي عبر بغداد[1].

محاور ما بعد مرج دابق: تكمن أهمية الخط الأول في أنه مدّ مجال السيطرة العثمانية على المناطق المملوكية المشرقية، وأمّن الخط التجاري المار بحلب والاسكندرون، بالإضافة إلى سيطرة عثمانية على القدس ذات الأهمية الدينية، وفتح أمام العثمانيين طريق مصر، كما أمن الجناح الجنوبي لبلاد الأناضول، ومنع الصفويين من الهيمنة عليه، والذي كان من بين استراتيجيتهم السياسية.

وتكمن أهمية الخط الثاني في أنه فتح طريق الأراضي المقدسة واليمن أمام العثمانيين، ليتسنى لهم الوقوف في وجه القوى الصليبية وعدم السماح للبرتغاليين بالتوغل في البحر الأحمر، وحقق سيطرة عثمانية آنية على طرق التجارة في الشرق الأقصى.

والواقع أن السلطان سليم وظّف ما توفرله من إمكانات بشرية ومادية وجغرافية واقتصادية ضد خصميه شرقاً وجنوباً، وتمكن من التأثير على ميزان القوى مع الصفويين لصالح العثمانيين، وأنجز ما لم يستطع المماليك إنجازه لأنفسهم.

---

(١) الجميل: المرجع نفسه، ص ٣٤٦.

الخاتمة

يتشابه تاريخ كل من دولة المماليك والدولة العثمانية في وجوه كثيرة. ففي الدولتين سادت العلاقات التي تميز بها الاقطاع الشرقي [1]، وكلتاهما مثلتا دولة عسكرية عملت تحت راية الإسلام السني المؤمن، وعلى مدى فترة زمنية طويلة لم تنشأ بينهما أي خلافات سياسية أو عقائدية، ولا حتى تنافس تجاري أو اقتصادي أو غيره، انما ارتبطت العلاقات بينهما، بشكل عام، بمسألة الحدود والمنافسة على تزعم العالم الإسلامي.

والحقيقة أنّ البدايات الأولى للعلاقة بين الدولتين كانت ودية، وكانت علاقات مجاملة ومؤازرة عن طريق المراسلة وتبادل الهدايا والوفود. خاصة وأنّ الدولة العثمانية الناشئة كانت قد وجهت همها في الدور الاول من حركتها التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة، وبخاصة الدولة البيزنطية، وقد قوبل ذلك النشاط بالاستحسان والارتياح من جانب المماليك وغيرهم. وزاد من ذلك الود المتبادل بُعد حدودهما عن بعضهما البعض، ثم تعرضهما لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك، ممّا جعل الاتصال والتفاهم لمواجهة ودرء ذلك الخطر امراً ضرورياً، رغم تخوف المماليك من نوايا العثمانيين التوسعية.

فإغارة بايزيد الاول على قيصرية عام٧٩٣ هـ/ ١٣٩١م ـ المشمولة بحماية المماليك ـ ثم هجومه عام ٨٠١ هـ/ ١٣٩٩م على ملطية، ضمن حركته لضم الإمارات التركمانية في آسيا الصغرى إلى دولته، بهدف توحيد القوى الاسلامية في الأناضول لمواجهة خطر المغول من جهة، وخطر البيزنطيين والاوروبيين من جهة اخرى، كان كافياً في حد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا العثمانيين، هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعاً إلى الاحتفاظ بود المماليك بهدف اقامة جبهة متحدة في وجه تيمورلنك. ولكن رفض المماليك محالفة

(١) ففي الشرق، لم تكن هناك أرستقراطية النبلاء بالوراثة أو نبلاء الدم التي ارتبطت ملكية الارض بهم. فالطبقة الإقطاعية الحاكمة في الشرق، بخاصة الأسر المسيطرة، قد مثلت أرستقراطية جيل واحد اكتمل عدده عن طريق الاختيار بالصدفة وليس بالحقوق العائلية الموروثة. انظر إيفانوف: المرجع السابق، ص ٧.

السلطان بايزيد الأول أتاح الفرصة لتيمورلنك لكي ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على انفراد.

وأخّرت هاتان الكارثتان اللتان منيت بهما الدولتان، الاصطدام بينهما حوالى قرن من الزمن، تأرجحت خلاله العلاقات بينهما بين التعاون المثمر والعداء السافر.

صحيح أنّ العلاقات استمرت وديّة نسبياً بين المماليك والعثمانيين حتى بعد وفاة تيمورلنك إلى عهد السلطان محمد الفاتح، حين احتفلت القاهرة احتفالاً مشهوداً بفتح القسطنطينية، إلّا أنّه كان واضحاً أنّ صفاء العلاقات العثمانية ـ المملوكية لم يكن إلّا أمراً ظاهريًا، اذ أنّ استراتيجية الدولة العثمانية، التي ارتكزت على مواجهة القوى الأوروبية الصليبية، سرعان ما جعلتها تتجه إلى محاولة التوسع في الأجزاء التي ظلّت خارج قبضتها في آسيا الصغرى، خاصة بعد فتح القسطنطينية والسيطرة على معظم أراضي البلقان.

ولاحظ حكام القاهرة بقلق شديد أنّ دولة اسلامية قوية وديناميكية أخذت تنمو على حدودهم وتشق طريقها الخاص بها، وقد تمركز النزاع الذي بدأ يظهر سافراً وجلياً في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، حول مسألة عدم وضوح الحدود في منطقة طوروس، واتخذ التنافس بين المماليك والعثمانيين شكل مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على الحدود بين دولتيهما. وعلى وجه التحديد تمركز الصراع حول إمارة قرمان وإمارة دلغادر، اللتين شكلتا عصب المواجهة بين الدولتين. . . وهما إمارتان ادّعى المماليك الحماية عليهما، فكانت كل دولة تقوم بمساندة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم. وقد صعّد هذا العداء الكامن بين العثمانيين والمماليك اضطراب الأحوال في منطقة طوروس الحدودية هذه، ثم المؤامرات والتحالفات التي قامت بها العوائل التي حكمت هذه المنطقة الحدودية، خاصة وكما قلنا، فكثيراً ما ادعى المماليك، أنّ منطقة كيليكيا عامة ـ بما فيها كبادوكيا ـ وأدنة وطرسوس خاصة، تابعة لها وخاضعة لحمايتها. وطبيعي ان يتمسك المماليك بهذه المنطقة، فإمارة البستان ـ وهي داخلة فيها ـ منطقة استراتيجية هامة لسيطرتها المطلقة على طريق الفرات، ثم إن وجود عناصر من قبائل التركمان في إقليم طوروس هذا، أضاف إلى عدم استقراره والفوضى التي تعمه. وجعل العثمانيين يهتمون بأمر السيطرة على تلك القبائل التركمانية، التي تشكل خطراً ماثلاً للدولة العثمانية التي بدأت تستقر وتنعم بحياة دولة متطورة نحو مستقبل امبراطوري زاهر.

وعلى الرغم من أنّ المماليك قد سلّموا بمطالب العثمانيين في إمارة قرمان، إلّا أنّهم استطاعوا في هذا الدور إبعاد نفوذهم عن إمارة دلغادر، التي شكلت خطًا دفاعيًا أساسيًا للدّفاع عن الأراضي المملوكية. واستمرّ نجاحهم في هذه المنطقة حتى عام٨٨٦ هـ/ ١٤٨١م، حين تفرّغ السلطان محمد الفاتح لأمر تلك الإمارة ونصّب علاء الدولة حاكماً عليها.

ولكن بعد وفاة السلطان محمد الفاتح، ساءت العلاقات مجدداً بين الدولتين، اذ ان السلطان قايتباي ساعد الأمير جم العثماني في حربه مع أخيه السلطان بايزيد الثاني عام٨٨٦ ـ ٨٨٧ هـ/ ١٤٨١ ـ ١٤٨٢م، تلك الحرب التي لجأ بعدها جم إلى المماليك في مصر، وفتحت الباب على مصراعيه للتدخلات الأوروبية في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية. كما أن العثمانيين شكوا في هذه الفترة من أنّ المماليك كانوا يحرّضون القبائل التركمانية (الورسق والترغود) لإحداث الفوضى في إقليم قرمان، وأنّ قوافل الحج العثمانية صارت غير آمنة، فكثيراً ما كان طريقها يقطع عند مضائق كيليكيا...

ثم أدّت الصدامات المسلحة التي نشبت مع حاكم دلغادر علاء الدولة، الذي طلب مساعدة الجيوش العثمانية، إلى أول حرب عثمانية ـ مملوكية، فاستطاع المماليك إلحاق الهزيمة بالعثمانيين ثلاث مرات، إلّا أنّهم لم يتمكنوا من إحراز نصر حاسم. وفي عام٨٩٦ هـ/ ١٤٩١م ونتيجة لوساطة تونس، عقدت إتفاقية سلام بين الدولتين.

كان طبيعياً أن مال السلطان قايتباي للسلم أمام الأحوال الناتجة عن حروبه مع العثمانيين، تلك الحروب التي كلّفته الكثير من المال، وكانت وبالاً على بلاد الشام إقتصادياً وإجتماعياً وعسكرياً، وكذلك كان السلطان العثماني في شاغل عن الحرب، ميالاً للسلم، نظراً لاهتمامه بالتوغل في أوروبا وحصار بلغراد. وكان مضمون الإتفاق أنّه بعد ست سنوات من الحرب غير الحاسمة، اعترف العثمانيون بحق المماليك في كبادوكيا وكيليكيا، على أن يكون دخل أدنة وطرسوس وقفاً على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة.

كان واضحاً أنّ بايزيد الثاني لم يسخر كل إمكانياته المادية والحربية لحروبه تلك مع المماليك، إذ أنّ مشكلة أخيه جم كانت تشغله، وتحّد من تفرغه لتلك الحروب. فهو لم يرسل معظم قواته لأي من تلك المعارك وإنّما أرسل جزءًا منها، وذلك على عكس المماليك الذين كانوا يخوضون هذه الحروب بكل قواهم المادية والحربية وبكل جهدهم.

وقد تأخرت الحرب العثمانية ـ المملوكية الثانية إلى عام٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م، ذلك أنّ السلطان بايزيد الثاني، ورغم موت أخيه جم عام٩٠٠ هـ/١٤٩٥م، انشغل في مشاكل الجبهة الأوروبية وقد أخذ ذلك جزءًا من وقته.

في هذه الأثناء ظهر خطر التوسع الأوروبي الفعلي في إطار التبدلات الدولية الناجمة عن الإكتشافات البحرية الكبرى، وهدّد البرتغاليون الإسلام والمسلمين، وكذلك كانت القوى الشيعية الصفوية تظهر وتقوى وتكوّن لنفسها دولة في فارس، كل ذلك شغل بال السلطان العثماني، فتحوّل انتباهه ولو حين عن إقليم طوروس الحدودي، وعن تمكّن النفوذ المملوكي هناك. بل على العكس فقد حسّن علاقته بدولة المماليك وتجلّى هذا الإتجاه الودي في العلاقات يوم هدّد البرتغاليون الطريق التجاري إلى البحر الاحمر، وهدّدوا بذلك تجارة المماليك، الأمر الذي دفع السلطان قانصوه الغوري إلى طلب العون والمساعدة من العثمانيين، ولم يبخل السلطان العثماني بعونه، إذ أنّ خطر البرتغاليين كان خطراً مشتركاً أيضاً.

ثم جاءت الحرب العثمانية ـ الصفوية، التي هزم فيها السلطان العثماني سليم الشاه إسماعيل الصفوي ـ حليف البرتغاليين ـ على أرض جالديران عام٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م، والتي كانت إحدى نتائجها تأزّم العلاقات مجدداً بين المماليك والعثمانيين، وذلك لتوفرمسبّبات نذكر منها:

- اعتماد المماليك سياسة الطرف المتفرج من الصراع العثماني ـ الصفوي في جالديران.
- كون شمالي بلاد الشام ما يزال مرتعاً لأتباع الطريقة الصوفية، الميّالين للحكم الصفوي، إذ كان يشكّل انتشارهم في هذه النواحي خطراً على السلطنة العثمانية، قد يتلوه امتداد فعلي للدولة الصفوية.
- سوء الأحوال الاقتصادية، بعد ركود التجارة في البحر المتوسط للتواجد البرتغالي في سواحل آسيا الجنوبية.
- إيواء الغوري للعديد من أفراد البيت المالك العثماني.

لكن العامل المباشر لهذه الحرب، كان تأكد السلطان سليم بوجود ائتلاف، ما بين الصفويين والمماليك، ضده.

أجل لقد كانت الدوافع كثيرة لدى العثمانيين لاجتياح دولة المماليك، ولكن أهمها كان استراتيجياً؛ فمنطقة الشرق الأدنى غدت مزدحمة بالصراعات الإقليمية بين الصفويين والعثمانيين والمماليك، وعرضة لتهديدات القوى الأوروبية

وأطماعها، خاصة القوة البرتغالية، التي شكّلت تهديداً مباشراً لسواحل الجزيرة الجنوبية الشرقية منها والغربية، بفعل وقوع موانئها على طريق التجارة مع الهند. لذلك لم تعد المنطقة تحتمل ثلاث قوى، فدارت الدائرة على المماليك بعد أن خاض العثمانيون معهم معركتين، إحداهما في مرج دابق قرب حلب عام٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م، والثانية في الريدانية بمصر عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م، ممّا أسفر عن نتائج خطيرة أهمها:

- سقوط دولة المماليك وخلوص مصر وبلاد الشام للسيطرة العثمانية، مع إعتراف كل من أشراف مكة وحكام اليمن بالتبعية للعثمانيين، من الناحية الجيوسياسية.
- استيلاء العثمانيين على المحاور الاستراتيجية ـ والتي سبق وتعرضنا لشرحها.

وفي نهاية المطاف لا بدّ من ذكرحقيقة هامة وهي أنّه عندما اتجه سليم الاول عام٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م، بعد عامين من انتصاره على الصفويين في جالديران، للاستيلاء على الشام ومصر وإسقاط الدولة المملوكية، كان المعتقد أنّ حركته الفجائية تلك، علتها الوحيدة اتصالات المماليك السرية بإسماعيل الصفوي لدعمه في مواجهة العثمانيين. أما لماذا اعتبر المؤرخون حركته تلك «فجائية» فلأن العثمانيين دأبوا، منذ مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، على مساعدة المماليك بالجند والعتاد في مواجهة البرتغاليين، ومع أن مفاهيم الغدر والخيانة والتحالف والتخاصم ما كانت شديدة الإعتبار في قواميس الدول، وعلاقاتها انذاك، فإنّ المؤرخين والمراقبين اعتبروا انكشاف المراسلات السرية بين المماليك والصفويين السبب المباشر من وراء مسارعة السلطان العثماني لمصارعتهم. بيد أنّ هناك أسباباً أخرى لهذا التحول في السياسات العثمانية من الدعم إلى المهاجمة بما يتجاوز التألم للغدر المملوكي.

كانت الدولة المملوكية قد بلغت من الضعف حدًّا لم تعد تنفع المساعدات، وبذلك صار البحران المتوسط والأحمر عرضة للسقوط في يد البرتغاليين ومن ورائهما الخليج العربي والمحيط الهندي، كما أن هذا الضعف الذي أفقد بنية الدولة المملوكية الكثير من مكوّناتها ومكتسباتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، كان على وشك تحويل المماليك إلى حلفاء صغار للصفويين، بعد أن عجز العثمانيون، رغم انتصاراتهم في جالديران، عن إسقاط الدولة الصفوية.

وهكذا فإنّ العثمانيين، وفيما يبدو، ما خطّطوا فعلا لإزالة السلطنة المملوكية

إلّاعندما تبين لهم ضعفها المزمن في عجزها عن التصدي للبرتغاليين، وتآمرها عليهم مع الشاه إسماعيل الصفوي، في الوقت الذي كانت فيه تتلقى مساعدتهم بالمال والمواد، لتبقى واقفة على قدميها.

وتدليلاً على أن السلطان سليم ما خطّط تخطيطاً مسبقاً لإزالة السلطنة المملوكية، هو أنه تردد كثيراً في فتح مصر، خاصةً بعد أن فتح بلاد الشام واطمأنّ إلى عدم تعاون المماليك مع أعدائه الصفويين، إذ أنّ الشام فصلت بين القوتين. . . بل يكاد الناظر لموضوع علاقات العثمانيين بالمماليك وفتح بلاد الشام يجزم أنّ السلطان العثماني لم يكن يريد فتح كل بلاد الشام، وإنّما كان يريد تسوية مشاكل الحدود في إقليم طوروس، وانّ مرج دابق كانت في الحقيقة نتيجة لنشاطه الحربي ضد الصفويين، ولخطأ في التقدير من جانب قانصوه الغوري، وربما لو بقي قانصوه الغوري في مصر ولم يتقدم لحلب لما حدثت هذه الموقعة الفاصلة، التي ربطت بلاد الشام ومصر بمقدرات ومصير الأمبراطورية العثمانية لفترة الأربعة قرون التي تلت عام٩٢٢ هـ/١٥١٦م. بل نذهب أبعد من ذلك ونقول لو أنّ قانصوه الغوري تعاون مع السلطان سليم في هذه الفترة، واستفاد من دروس الماضي وعبر التاريخ، لتمكّنا من تشكيل قوة يحسب لها حساب بين القوى الدولية المعاصرة، التي كانت توسّع انتشارها شرقاً وغرباً وترمي بثقلها على مختلف البقاع للإفادة من خيراتها، ولما كان أُفسح المجال للقادم الأجنبي مع مرور الزمن لأن يتحول إلى أشكال عدة من الهيمنة الإستعمارية التي طالت مناطق استراتيجية.

الملاحق

- **الملحق الأول:** من مراسلات السلطانين قانصوه الغوري وسليم الأول.
- **الملحق الثاني:** ترجمة وثائق الأرشيف العثماني الواردة في البحث باللغة الإنكليزية.
- **الملحق الثالث:** المصوّرات.
- **الملحق الرابع:** أسماء السلاطين المماليك والعثمانيين الواردة في البحث وسنوات حكمهم.



نص رسالة السلطان قانصوه الغوري الى السلطان بايزيد الثاني، وفيها يعترف بموقف السلطان العثماني في الجهاد ضد الأوروبيين

عن مجموعة الوثائق والمراسلات التي جمعها الدكتور أحمد فؤاد متولي في كتابه الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته، الزهراء للإعلام العربي ط١، ١٩٩٥، الملحق رقم ١٥، ص٣٠٩ ـ ٣١٢.

«... وبعد فقد عرف الأداني والأقاصي، وعلم الأذناب والنواصي، أن مواقف السلطان الغازي لا زالت مكنونة بالجلال، ومحفوفة بالإقبال منابع الشرف الجم ومطالع المجد الأشم، ومعادن الجلالة والكرامة، ومواطن الجهاد والشهادة، فيها الدين مشدود النطاق، والشرع ممدود الرواق، والعز ملتمع الشعاع، والمجد مرتفع الشراع، والحكم راسخ البنيان، والفضل شامخ الأركان، والعدل لائح المراسم، واللطف واضح المباسم، من اعتصم بحبل اتحادها وانتظم في شمل ودادها. لك في الدين والدنيا غاية أمانيه، وأدرك في الآخرة والأولى نهاية مباغيه. وأمّا المرحوم السلطان قايتباي لما انعوج عن هذا السبيل والمسالك، فطرح وجوده في غيابة جب المهالك، والآن يسر الله تعالى بفضله لنا مقامه الجليل، ونظر علينا بعيون عنايته ولطف الجزيل، فعملنا بخلافه في باب المخالفة، وكشفنا عن وجوه المصادقة غطاء المنازعة، فجلسنا على سرير النصفة، بأعلى غرف القاهرة المصرية، صانها الله من الآفات والعاهات والبلية، مستدعين لدوام دولتكم العلية عن السادات والصلحاء والمشايخ والعلماء المتوطنين في هذه الأماكن المقدسة المكرمة والمقار المشرفة والمعظمة، خصوصاً الحرمين الشريفين الأعظمين الأنورين المنيفين، شرفهما الله وعظمهما. وكنا راسخي القدم خالصي الطوية في موالاة جانبهم ومعاداة مجانبهم، وإبداع شعار خدمتهم وإعلاء منار دعوتهم،

والمنع عن حوزتهم باليد واللسان والمحاماة من بيضتهم بالسيف واللسان. . .»

٢

نص رسالة السلطان بايزيد الثاني الى السلطان قانصوه الغوري، وفيها يشكره على موقفه من ابنه قرقود، ويلقبه فيها بالأخ

عن مجموعة الوثائق والمراسلات التي جمعها الدكتور أحمد فؤاد متولي في كتابه الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته، المرجع نفسه، الملحق رقم ٢٠، ص٣٢٢ ـ ٣٢٥.

«. . . حامي الحرمين المبجلين المشرفين المعظمين، ناصر الإسلام والمسلمين، ظهير أمير المؤمنين، المختص باللطف الخفي من حضرة رب العالمين، لازال خواطره الشريفة مسرورة، ومواد ابتهاجه موفورة، وأعماله مبرورة، وأياديه مشكورة، ومحامده على الألسن مذكورة، والخلائق بنعمه مغمورة، وغياث المكرمات بغيث لطفه ممطورة، وما برحت حضرته العلية ان تعطف على الصادر والوارد عطف العم والوالد، ويأوى الكرام منه إلى ركن منيع واصل رفيع، ما كد الصبح والمسا وجاء الربيع بعد الشتا، يهدى اليه سلاما ألطف من الشمال وأعذب من السلسال، وأطيب من روح الوصال، ودعاء يشنف بصفائه الأذان، ويعطر بنوافجها أردان الزمان. إن كتابه الكريم الذي هو بسجل اللطف ناشر، وعن غرة الكرم سافر، قد وصل إلينا على يد القاصد الأميرى الكبيرى الاخصى المقربى، المؤتمنى كِسبَاى أحسن الله وفادته، فتلقيناه بوجه بش ورواء هش، فكرمناه كمال التكريم، وسألناه عن مقامكم العظيم، ثم فض ختام ذلك الكتاب لدينا، وتلا ماتضمنه بين يدينا، فأصغيناه حسن الإصغاء بسمع الإرادة والرضا. فلما انتهينا إلى البشارة، أن الولد الأعز الأمجد، والنخل الرشيد الأسعد، نوّر حدقه السلطنة الزاهرة، ونوّر حديقة الخلافة الباهرة، ثمرة نخلة السعادة السرمدية ونخيلة ثمرة الدولة الأبدية، المتحلى بحلية مكارم الأخلاق، الفائز بالقدح المعلى بالاستحقاق، المختص بعناية الله الودود، عضد الدولة والدنيا والدين، سلطان قورقود، جعل الله السعادة مقرونة بسفره، والسلامة مضمونة بخيره، آل إلى أصله وانقلب إلى أهله، وانصرف إلى داره وانعطف نحو دياره، وكتبت مثوبات الصلة في صفحات أعماله، وكنتم فائزين معه بتلك المثوبات العظمى، كما ورد في قول النبي

عليه السلام صلوات الله على قائله: «الدال على الخير كفاعله»، تبلجت الدنيا وتبرجت وتعطرت الآفاق، وتأرجت فتكاثر السرور، وامتلأ فؤادنا الوسيع بالفرحة والحبور. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[1].



نص رسالة السلطان قانصوه الغوري الى السلطان بايزيد الثاني وفيها يصف الصفويين بالرافضة أهل البدع والضلالة

عن مجموعة الوثائق والمراسلات التي جمعها الدكتور أحمد فؤاد متولي في كتابه الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته، المرجع نفسه، الملحق رقم ١٧، ص٣١٤ ـ ٣١٦.

«. . . وأما قصة غلبة الفرق الضالة القزلباشية في البلاد الشرقية، فإنها بلية عامة ظهرت في تلك النواحي، فدفعهم لازم بل واجب على الأداني والأقاصي. فالمقصود من دفعهم واستيصالهم بعناية الملك العلام الموافقة والإهتمام، لأنهم أهل البدع والضلالة، وأصحاب الشر والشقاوة، كلهم روافض وجمعهم ملاعين، ليس في قلوبهم الردية أثر الرحمة والشفقة، ولا في طينتهم الخبيثة علايم الهواية والرأفة، وأنهم هتكوا عرض المؤمنين والمؤمنات، وقتلوا علماء الدين والسادات، وأغاروا أموالهم، وأسروا صبيانهم، وعملوا في هذه المملكة أعمالاً لا يرى مثله أحد في خروج الأولاد الجنكزية، ولا سمع شبهه أذن في ظهور الأحزاب التيمورية ﴿ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾[2].

اللهم دمرهم واقهرهم وفرق شملهم وكسر أعناقهم وطهر الأرضين عن هؤلاء الأرجاس الأنجاس ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3]، وبإجابة دعاء الصالحين جدير، والله يؤيدكم وينصركم ويديمكم بالدولة الأبدية والسعادة السرمدية، ويرزقكم عمراً طويلاً وأجراً جزيلاً والحمد لله رب العالمين، والصلاة على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الحق والدين».

---

(١) قرآن كريم: سورة فاطر، الآية: ٣٤.

(٢) قرآن كريم: سورة عبس، الآية: ٤٢.

(٣) قرآن كريم: سورة التحريم، الآية: ٨، وسورة آل عمران، الآية: ٢٦.



نص رسالة السلطان سليم الأول إلى السلطان قانصوه الغوري بعدالقضاء على علاء الدولة حاكم إمارة دلغادر وفيها مناشدة بعدم التدخل في النزاع القائم بينه وبين الصفويين

عن مجموعة الوثائق والمراسلات التي جمعها الدكتور أحمد فؤاد متولي في كتابه الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته، المرجع نفسه الملحق رقم٢٧، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦.

«... ظهير الإسلام والمسلمين، حامي خدام الحرمين الشريفين، أسوة الملوك والخواقين، معين الغزاة والمجاهدين، نصير أمير المؤمنين الذي قصرت عن تعداد أوصافه عقول العقلاء وكلت عن ذكر شمائله ألسنة البلغاء، مزين سرير القاهرة بوجوده وجوده، ومشيد بنيان السلطنة بصفوف جنوده، أدامه الله في دولة لا تنهدم دارها وشوكة لا تنفصم آثارها ونعمه لا يطرى عليها زوال وسعادة لا يقع فيها اختلال من الفتوحات الواقعة فى شهرين من هذه السنة بل في أحد عشر شهراً من الحولين، أي بعد مراجعتنا من فتح العجم إلى أعظم بلادنا أماسية حماها الله مع سائر البلاد الإسلامية عن كل البلية، ووقوفنا فيها إلى آخر الشتاء. توجهنا متوكلاً على الله تعالى ومستظهراً بمعجزات رسوله محمّد صلى الله عليه وسلم ومستمداً من أرواح أصحابه وأولياء الدين رضوان الله عليهم أجمعين، مع عساكرنا المنصورة في أول فصل الربيع يوم الخميس الخامس من شهر ربيع الأول أولاً إلى قلعة كماخ التي كانت في أيدى الرفضة الملاحدة لعاين الله عليهم، ونزلنا عليها يوم السبت خامس شهر ربيع الآخر فشرعنا في قلعها وقمعها مع القوارع الصعبة والمناجيق الشديدة وحاصرناها بجنود كثيرة وأفيال عديدة واشتعل نار القتال وتزلزل عن أقدام الرجال التلال والجبال، فصعق أهل تلك القلعة وتحير كمال الحيرة وامتلأ آذان المجاهدين بنداء نصر الله وفتح قريب، وابتهج قلوب الموحدين بأنواع المسرة من محض لطف الله الملك المجيب. فلما حان وقت العصر تنسم رياح الظفر والنصر، فصعد بعض المبارزين على بروجها وهدى البادى إلى طريق الفوز والنجاة حين عروجها، ونصب ألوية الفتح على قللها الشامخة، وانهدم اكثر جدرانها الراسخة، فدخل العساكر فيها صفاً صفاً، وقرعوا أبواب بيوتها دكاً دكاً، وأخرجوهم من مفازاتهم وفرقوا الآباء من بنيهم وبناتهم، وأخذوا أموالهم وضربوا

أعناقه ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[(١)] وبقية السيوف ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾[(٢)] ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(٣)] فطهرناها من هؤلاء الأرجاس الأنجاس، وزيناها بالجمع والجماعة والناس، وبنينا جدرانها بناء أحسن من الأول، ورتبنا ذخائرها وما يحتاج إليه فيها بأتم وجه وأكمل، ورجعنا بعد نصب الوالى إلى سيواس حماه الله ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[(٤)]. وبعد الوصول إلى البلد المزبور، عزمنا ثانياً إلى بلاد ذو القدرية، فصار مقدمة الجيوش في تلك الأيام أمير الأمراء الكرام بولاية روم إيلي والآن هو وزيرى ومشيرى الدستور الأعظم والوكيل المفخم، نظام العالم مبارزاً للدول والدنيا والدين سنان باشا أدام الله اقباله وضاعف إجلاله. فخرج يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المسفور، ووصل إلى العدو في آخر الشهر المذكور، وقام بالحرب وغلب عليهم بأشد الضرب، فلما نزلنا يوم الأربعاء غرة جمادى الأولى بالعز والنصر على الكلاء الشهير بكوسكون في وسط تلك المملكة قريباً من الوضع الذى وقع فيه المحاربة، ورد من فضل الله وتوفيقه مبشراً منه الينا منبئاً عن حصول المرام وانهزام الأعداء اللئام وآتياً برأس رأس هؤلاء الطوائف أعنى علاء الدولة المقتول المخذول مع رؤوس الشياطين فقرأنا آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[(٥)]، وأرسلنا من محض المسرة وفرط البشاشة رأس ذلك الأمير المخذول إلى ديوان القاهرة مصحوباً بخدمة قدوة الأماجد والأكارم سيف الدين بيك زيد مجده ليكون أيضاً سبباً لنشاطكم وباعثاً لانبساطكم، فالمأمول من مكارم أخلاقكم الحسنة ومحاسن ألطافكم المستحسنة أن تعلنوا هذا الفتح المبين في الأقطار والأمصار من بلاد الموحدين كما هو دأب الملوك والسلاطين، ولا تنسونى من الدعاء الخير الذى نحن به فرحين. ويكون معلوماً لدى خدمتكم المنيفة أنه قد رجعنا إلى القسطنطينية المحمية سالماً وغانماً، وصممنا العزيمة في السنة الآتية إلى تسخير البلاد الشرقية، ودفع بقية السيوف من الرفضة القزلباشية خذلهم الله ودمرهم بعون الله الأزلى وتوفيقه الأبدى، فالمرجو منكم ألا تلتفتوا بتضرعاتهم ولا تتقيدوا بسفسطاتهم، وما عندهم من عقول أثر كلام المجانين لا يعتبر وأن تعيدوا الرسول حسن الإعادة بعد أدائه مراسم الرسالة أدامكم الله وأبقاكم بالدولة والسعادة إلى يوم القيامة حرر في يوم الثلاثاء الرابع من شهر جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة».

---

(١) قرآن كريم: سورة التوبة، الآية: ٦٩.
(٢) قرآن كريم: سورة التوبة، الآية: ٥٧.
(٣) قرآن كريم: سورة الأنعام، الآية: ٤٥.
(٤) قرآن كريم: سورة الناس، الآية: ٤ ـ ٦.
(٥) قرآن كريم: سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

الملحق الثاني

ترجمة وثائق الأرشيف العثماني
الواردة في البحث باللغة الإنكليزية

الوثائق رقم:

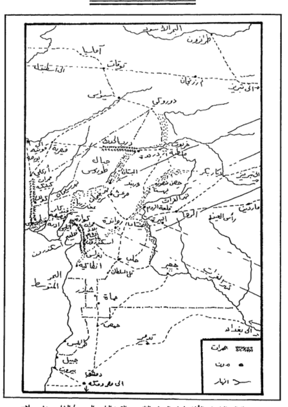
ـ ٥٩٧٢[1] تقرير إلى المجلس الامبراطوري سنة (١٤٨٣م).
حول تمرد ترغود والتجمعات العسكرية المملوكية في حلب.

ـ ٦٣٩٧[2] تقرير أمني من سورية سنة (١٤٨٦م).
يعلم عن انسحاب الجيش المملوكي إلى القاهرة ويوصي بالإعداد لهجوم عسكري.

ـ ٨٥٩٩[3] تقرير عسكري من الوزير الأعظم داوود باشا إلى بايزيد (١٤٨٧م).
حول التحركات العسكرية المملوكية في سورية وكيليكيا.

---

(١) نص الوثيقة باللغة الإنكليزية ورد في البحث ص ٩١.
(٢) نص الوثيقة باللغة الإنكليزية ورد في البحث ص ١٠٩.
(٣) نص الوثيقة باللغة الإنكليزية ورد في البحث ص ١٠٩.

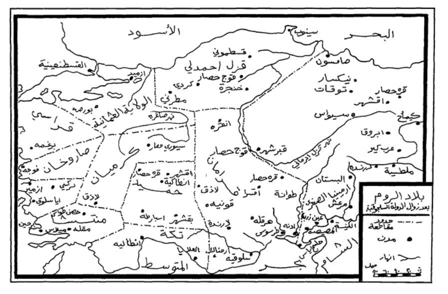


حدود دولة المماليك في الأناضول في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر ميلادي

نقلاً عن : Shai, Har - El: Struggle for domination in the Middle East



الدول المعاصرة لدولة المماليك الثانية في جنوب غرب آسيا
نقلًا عن د. محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك



نقلًا عن د. محمد سهيل طقوش: العثمانيون

أسماء السلاطين المماليك والعثمانيين الواردة في البحث وسنوات حكمهم

قائمة بأسماء السلاطين المماليك

(دولة المماليك البحرية)

١ ـ ركن الدين بيبرس البندقداري	٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ	١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م
٢ ـ المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ	١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م
٣ ـ الأشرف صلاح الدين خليل	٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ	١٢٩٠ ـ ١٢٩٣م
٤ ـ الناصر ناصر الدين محمد: المرة الأولى	٦٩٣ ـ ٦٩٤هـ	١٢٩٣ ـ ١٢٩٤م
: المرة الثانية	٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ	١٢٩٩ ـ ١٣٠٩م
: المرة الثالثة	٧٠٩ ـ ٧٤١هـ	١٣١٠ ـ ١٣٤٠م
٥ ـ الأشرف ابو المعالي زين الدين شعبان بن حسين	٧٦٤ ـ ٧٧٨هـ	١٣٦٣ ـ ١٣٧٧م

(دولة المماليك البرجية)

٦ ـ الظاهر سيف الدين برقوق: المرة الاولى	٧٨٤ ـ ٧٩٠هـ	١٣٨٢ ـ ١٣٨٨م
: المرة الثانية	٧٩٢ ـ ٨٠١هـ	١٣٩٠ ـ ١٣٩٩م
٧ ـ الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق	٨٠١ ـ ٨١٥هـ	١٣٩٩ ـ ١٤١٢م
٨ ـ المؤيّد شيخ المحمودي	٨١٥ ـ ٨٢٤هـ	١٤١٢ ـ ١٤٢١م
٩ ـ الأشرف برسباي	٨٢٥ ـ ٨٤١هـ	١٤٢٢ ـ ١٤٣٨م
١٠ ـ الظاهر جقمق	٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ	١٤٣٨ ـ ١٤٥٣م
١١ ـ الأشرف إينال	٨٥٧ ـ ٨٦٥هـ	١٤٥٣ ـ ١٤٦١م
١٢ ـ المؤيد أحمد بن إينال	٨٦٥هـ	١٤٦١م
١٣ ـ الظاهر خشقدم	٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ	١٤٦١ ـ ١٤٦٧م

١٤ ـ الظاهر يلبياي المؤيدي	٨٧٢هـ	١٤٦٧م
١٥ ـ الظاهر تمربغا	٨٧٢ هـ	١٤٦٨م
١٦ ـ الأشرف قايتباي	٨٧٢ ـ ٩٠١هـ	١٤٦٨ ـ ١٤٩٦م
١٧ ـ الأشرف قانصوه الغوري	٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ	١٥٠١ ـ ١٥١٦م
١٨ ـ الأشرف طومان باي	٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ	١٥١٦ ـ ١٥١٧م

قائمة بأسماء السلاطين العثمانيين

١ ـ عثمان الأول	٦٩٩ ـ ٧٢٦هـ	١٢٩٩ ـ ١٣٢٦م
٢ ـ أرخان	٧٢٦ ـ ٧٦١هـ	١٣٢٦ ـ ١٣٥٩م
٣ ـ مراد الأول	٧٦١ ـ ٧٩٢هـ	١٣٥٩ ـ ١٣٨٩م
٤ ـ بايزيد الأول	٧٩٢ ـ ٨٠٥هـ	١٣٨٩ ـ ١٤٠٢م
٥ ـ محمد الأول	٨٠٦ ـ ٨٢٤هـ	١٤٠٣ ـ ١٤٢١م
٦ ـ مراد الثاني	٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ	١٤٢١ ـ ١٤٥١م
٧ ـ محمد الثاني	٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ	١٤٥١ ـ ١٤٨١م
٨ ـ بايزيد الثاني	٨٨٦ ـ ٩١٨هـ	١٤٨١ ـ ١٥١٢م
٩ ـ سليم الأول	٩١٨ ـ ٩٢٦هـ	١٥١٢ ـ ١٥٢٠م

الفهارس

فهرس الأعلام

حرف الباء

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الياء

فهرس الأماكن والبلدان

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر العربية:

١ ـ ابن الأثير، عز الدين بن عبد الواحد الشيباني (توفي ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق د. عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

٢ ـ ابن أجا، محمد بن علي محمود الحلبي (توفي ٨٨١هـ): تاريخ الأمير يشبك الظاهري، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي.

٣ ـ ابن إياس، محمد بن أحمد (توفي ٩٣٠هـ): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.

٤ ـ ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار، تحقيق طلال حرب، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت.

٥ ـ ابن تغري بردى، جمال الدين ابي المحاسن يوسف (توفي ٨٧٤هـ):

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.

ـ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٠.

٦ ـ ابن الجيعان، القاضي بدر الدين بن عبد الغني (توفي ٩٠٣هـ): القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، تحقيق د. عمر تدمري، طرابلس، جرّوس برس، ١٩٨٤.

٧ ـ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (توفي٨٥٢هـ): إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق د. حسن حبشي، القاهرة، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩و ١٩٧١ و١٩٧٢.

٨ ـ ابن الحمصي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (توفي ٩٣٤هـ): حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق د. عمرعبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٩.

٩ ـ ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدَمر العلائي (توفي ٨٠٩هـ): النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق د. عمرعبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط١، ١٩٩١.

١٠ ـ ابن زنبل، الشيخ أحمد الرمال: واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

١١ ـ ابن سباط الغربي، حمزة بن أحمد بن عمر (توفي ٩٢٦هـ): صدق الأخبار تاريخ ابن سباط، تحقيق د. عمرعبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ط١، ١٩٩٣.

١٢ ـ ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن محمد (توفي ٩٥٣هـ): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، المؤسسة المصرية العامة، طبعة القاهرة، ١٩٦٢.

١٣ ـ ابن عبد الظاهر، محي الدين (توفي ٦٩٢هـ): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط٢، ١٩٧٦.

١٤ ـ ابن كثير، الحافظ (توفي ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧.

١٥ ـ ابن كنان، محمد بن عيسى (توفي ١١٥٣هـ): حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

١٦ ـ أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد (توفي ٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر، بيروت، ١٩٥٦.

١٧ ـ البصروي، الشيخ علاء الدين بن يوسف (توفي ٩٠٥هـ): تاريخ البصروي، تحقيق أكرم العلبي، دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٨.

١٨ ـ الحنبلي، ابن العماد (توفي ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة.

١٩ ـ الحنفي، العلامة قطب الدين (توفي ٩٨٨هـ): تاريخ القطبي المسمى كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، المكتبة العلمية بمكة المشرفة.

٢٠ ـ السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (توفي٩٠٢هـ): وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق د. بشارعواد معروف وعصام فارس الحرستاني ود. احد الخطيمي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٥.

٢١ ـ السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين بن أبي بكر (توفي ٩١١هـ): تاريخ الخلفاء، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧.

٢٢ ـ الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود (توفي ٩٠٠هـ): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق د. حسن حبشي، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٠.

٢٣ ـ الظاهري، زين الدين عبد الباسط بن خليل ابن شاهين الظاهري (توفي ٩٢٠هـ):

نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

٢٤ ـ العليمي، مجير الدين الحنبلي (توفي ٩٢٧هـ): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الأول تحقيق عدنان أبو تبّانة والجزء الثاني تحقيق محمود الكعابنة، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٩٩.

٢٥ ـ العيني، بدر الدين (توفي ٨٥٥هـ): السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق فهيم شلتوت ود. محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧.

٢٦ ـ الغياثي، عبد الله ابن فتح الله البغدادي: التاريخ الغياثي، نشره طارق نافع الحمداني، بغداد، ١٩٧٥.

٢٧ ـ الغزي، الشيخ نجم الدين (توفي ١٠٦١هـ): الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٤٥.

٢٨ ـ القرماني، أحمد بن يوسف (توفي ١٠١٩هـ): أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق د. أحمد حطيط ود. فهمي سعد، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٢.

٢٩ ـ القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (توفي ٦٨٢هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.

٣٠ ـ القلقشندي، أحمد بن علي (توفي ٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣١ ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (توفي ٨٤٥هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

٣٢ ـ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (توفي ٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الجزء ٣١، تحقيق السيد الباز العريني، ١٩٩٢.

٣٣ ـ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (توفي ٦٢٦هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.

ثانياً ـ المصادر التركية:

٣٤ ـ سعد الدين أفندي، خوجة: تاج التواريخ، جزءان طبعاً في إسطنبول١٨٦٣ ـ ١٨٧٢.

ثالثاً ـ المراجع العربية والمعربة:

٣٥ ـ أوزتونا، يلماز: تاريخ الدولة العثمانية، مؤسسةفيصل للتموين، إستنبول ـ تركيا، ١٩٨٨.

٣٦ ـ أنيس، محمد: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤)، القاهرة.
٣٧ ـ إقبال، عباس: تاريخ ايران بعد الإسلام، ترجمة علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠.
٣٨ ـ ايفانوف، نيقولاي: الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤، ترجمة يوسف عطا الله مراجعة د. مسعود ضاهر، دار الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
٣٩ ـ برجاوي، سعيد أحمد: الامبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣.
٤٠ ـ بروكلمان، كارل: الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط ٨، ١٩٧٩.
٤١ ـ تدمري، د. عمر عبد السلام: تاريخ طرابلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨١.
٤٢ ـ جاويش، سليمان بن بطرس: تاريخ القسطنطينية، دار صادر، ط٢، ١٩٩٥.
٤٣ ـ الجميل، سيار: العثمانيون وتكوين العرب الحديث، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، ١٩٨٩.
٤٤ ـ جودت أحمد: تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، بيروت، ١٣٠٨ هـ.
٤٥ ـ حسون، علي: تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٩٤.
٤٦ ـ حليم، إبراهيم بك: تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٨٨.
٤٧ ـ حوراني، ألبرت: تاريخ الشعوب العربية، ترجمة كمال خولي وتحقيق انطوان نوفل، ١٩٩٧.
٤٨ ـ الخادم، سمير علي: الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، مؤسسة دار الريحاني، ط١، ١٩٨٩.
٤٩ ـ دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة أحمد الشناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس. ، وهي من إعداد مجموعة من المستشرقين، مراجعة د. مهدي علام.
٥٠ ـ الدبس، المطران يوسف: تاريخ سورية الدنيوي والديني، المطبعة العمومية، بيروت، ١٩٠٣.
٥١ ـ دهمان، محمد أحمد: العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار، دار الفكر، ط١، ١٩٨٦.
٥٢ ـ رافق، د. عبد الكريم:
ـ العرب والعثمانيون (١٥١٦ ـ ١٩١٦) مطابع ألف باء دمشق، ١٩٧٤.

- بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ١٩٨٨.
٥٣ ـ رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨١.
٥٤ ـ زقلمة، أنور: المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٥.
٥٥ ـ شلبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٨٦.
٥٦ ـ الشناوي، د. عبد العزيز محمد: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠.
٥٧ ـ الشهابي، الأمير حيدر أحمد: لبنان من بداية الدولة العثمانية إلى مطلع عهد الأمير بشير الشهابي الثاني، تعليق د. مارون رعد، دار نظير عبود، ١٩٩٣.
٥٨ ـ الشيبي، كامل مصطفى: الصلة بين التشيع والتصوف، دار الأندلس، بيروت، ط٣، ١٩٨٢.
٥٩ ـ صباغ، عباس: تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، دار النفائس، ط١، ١٩٩٩.
٦٠ ـ ضومط، أنطوان خليل: الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٠.
٦١ ـ طقوش، د. محمد سهيل:
- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، ط١، ١٩٩٧.
- العثمانيون من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة، دار بيروت المحروسة، ط١، ١٩٩٥.
٦٢ ـ عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٣.
- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت.
٦٣ ـ العبادي، أحمد مختار وسالم السيد عبد العزيز: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ١٩٧٢.
٦٤ ـ العبادي، د. أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية.
٦٥ ـ عبد التواب، عبد الرحمن محمد: قايتباي، الهيئةالمصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨.
٦٦ ـ العريني، السيد الباز: المماليك، دار النهضة، بيروت.
٦٧ ـ علي، محمد كرد: خطط الشام، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣، ١٩٨٣.

٦٨ ـ عماد، د. عبد الغني: السلطة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
٦٩ ـ فريد بك المحامي، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت.
٧٠ ـ كاهن، كلود: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة د. بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت، ط١، ١٩٧٢.
٧١ ـ لابيدوس، إيرامارفين: مدن الشام في العصر المملوكي، ترجمة د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٥.
٧٢ ـ ماجد، عبد المنعم: طومان باي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨.
٧٣ ـ ماهر، د. سعاد: البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٦٧.
٧٤ ـ متولي، د. أحمد فؤاد:
ـ الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة، مصر، ١٩٧٦.
ـ الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٥.
٧٥ ـ مصطفى، أحمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط٢، ١٩٩٣.
٧٦ ـ موير، السير وليم: تاريخ دولة المماليك بمصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥.
٧٧ ـ نجا، د. فاطمة هدى: محاضرات الحضارة العربية، مكتبة الإيمان.
٧٨ ـ نوار، عبد العزيز: الشعوب الإسلامية، دار النهضة العربية، ١٩٧٣.
٧٩ ـ هايد، ف: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ ـ ١٩٩٤.
٨٠ ـ واصف، أمين: معجم الخريطة التاريخية، مصر، ١٩١٦.

رابعاً ـ الدوريات:

* مجلة الاجتهاد
ـ زيادة، نقولا: الفتح العثماني لبلاد الشام وآثاره المباشرة، العدد الرابع والاربعون (ص٩ ـ ٣٥)، ١٩٩٩.
ـ السيد، رضوان: العرب والعثمانيون، (ص ٥ ـ ٨)، ١٩٩٩.
* مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
ـ زيادة، محمد مصطفى: «نهاية السلاطين المماليك في مصر»، العدد ٤، (ص ١٩٧ ـ ٢٢٨)، ١٩٥١.

* المجلة المصرية للدراسات التاريخية

- دراج، أحمد السيد: «السلطان جم والديبلوماسية الدولية» العدد ٨، (ص ٤٢ - ٢٠١)، ١٩٥٩.

خامساً ـ المصادر والمراجع الأجنبية

- Aubin, Jean: «Les relations diplomatiques entre les Aq - qoyunlu et les Bahmanides» Iran and Islam, Ed. C. B. Bosworth, Edinburgh, 1971.
- Ayalon, D: Gunpowder and Firearms in the Mamluk kingdom, London, 1956.
- Boulos, Jawad: Les peuples et les civilisations du Proche Orient, Dar Awad, Beyrouth, 1983.
- Brummett, Palmira: Ottoman sea power and Levantine diplomacy in the age of Discovery, Suny, 1994.
- Cahen, Claude: La Syrie du nord à l'époque des croisades, Paris, 1940.
- Chai, Har - El: Struggle for domination in the Middle East, CE. j. Brill, l'Eiden, New York, 1995.
- Cramer, J. A: Georgraphical and Historical description of Asia Minor, Oxford, 1832.
- Darraj, Ahmad al Sayyid: L'Egypte sous le règne de Barsbay (825 - 841), Damascus, 1961.
- De la Broquière, Betrandon: «The travels of Bertrandon de la Broquière, A. D. 1432 and 1433», Ed Thomas wright, Early travels in Palestine, London, 1848.
- Depping, G. B: Histoire du commerce entre la levant et l'Europe, Depuis les croisades jusqu' à la fondation des colonies d'Amerique, Paris, 1865.
- Hill, George: A History of Cyprus, Cambridge, 1948.
- Inalçik, Halil:
  - The Ottoman Empire. The rise classical Age 1300 - 1600 London, 1973.
  - «The rise of the Ottoman Empire». The history of the Ottoman Empire to 1730, Ed. M. A Cook, Cambridge, 1976.
  - «Bursa and the commerce of the Levant», JESHO, 1960.
  - The Ottoman Economic Mind and Aspect of the Ottoman Economy studies in the Economiy History of the Middle East by M. A. Cook, 1970.

- Knolles, Richard: The Turkish History from the original of the Nation to the Growth of the Ottoman Empire, 6th ed, London, 1687.
- Le Strange, Gy: The Lands of the Eastern Caliphate, New York, 1966.
- Raymond, André: Le Caire, Librairie Arthème Fayard, 1993.
- Schwoebel, Robert: The Shadow of the crescent. The Renaissance image of the turk (1453 - 1517), New York, 1969.
- Shaw, Stanford: History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge univ. press, 1978.
- Stripling, George. W. F: The Ottoman turks, and the Arabs, (1511 - 1574), Urgana - Illinois, 1942.
- Thuasne, Louis: Djem - Sultan. Fils de Mohammed II: Frère de Bayezid II (1459 - 1495), Etude sur la question d'orient à la fin de XV ème siècle, Paris, 1892.
- The Applied history research group: The islamnic world to 1600, The university of Calgary Copyright © 1998.
- Woods, jhon E: The Aqquyunlu: clan, confederation Empire, Minneapolis and Chicago, 1976.

فهرس المحتويات

الباب الثاني

الحرب العثمانية ـ المملوكية الأولى

٨٨٩ ـ ٨٩٦ هـ / ١٤٨٤ ـ ١٤٩١م

الملاحق

الفهارس






0147800000028950
العلاقات العثمانية ـ
المملوكية (٨٦٨ ـ ٩٢٣
هـ / ١٤٦٤ ـ ١٥١٧ م)
ج.م
30.00
Barcode Team
ISBN 9953-34-388-8
9789953343884